

التَّائِيحُ الْإِسْلَامِيُّ

مَوَاقِفُ وَعِبَر

(١٥)

الأمويون والعباسيون والعثمانيون والدويلات المستقلة

المجلد الثالث

دكتور

عبد العزيز بن عبد الحميد

الأستاذ بكلية الدعوة وأصول الدين
بجامعة أم القرى

دار النشر

للنشر والتوزيع

جدة

دار النخبة

للطبع والنشر والتوزيع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الإمام الزاهد والخليفة الراشد

عمر بن عبد العزيز

مواقف إصلاحية

- إرهابات بين يدي خلافته -

لقد تم في فصول ماضية عرض مواقف الفتوح الإسلامية التي انتهت تقريبا في عهد الوليد بن عبد الملك ، وسيتم - بإذن الله تعالى - في هذه الفصول عرض مواقف من نوع آخر حيث تولى الخلافة بعد سليمان بن عبد الملك الإمام العادل أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز الذي جدد الله تعالى به لهذه الأمة أمر دينها حيث أرسى قواعد العدل وطبق السياسة الإسلامية .

لقد كان الخلفاء الذين عاصروهم عمر وكثير من ولائهم قد كثرت في عهودهم المظالم ، وعمل الولاة بأهوائهم أحيانا من غير نظر إلى الأحكام الشرعية فورث عمر تلك التركة الثقيلة ، وأحس من أول ساعة أنه يجب عليه أن يعدل سياسة الدولة لتتفق مع شريعة الله تعالى ، ولكن ذلك يصطدم بأهواء أفراد أسرته الحاكمة والمستفيدين من ورائهم ، فلم يخش في الله لومة لائم ، وشمر عن ساعد الجد في إصلاح الأمة وإحقاق الحق ورد المظالم ، وكان حكيما ونزيها حينما طبق الحق على نفسه أولا وعلى أفراد أسرته الأقربين ثانيا ، فسانعده ذلك في تطبيق الحق على بقية أفراد عشيرته من بني أمية وعلى المستفيدين من الوضع السابق .

فراصة صادقة من جده عمر رضي الله عنه :

وقبل أن نتحدث عن مواقف عمر في الإصلاح والعدل نذكر موقفا كريما لجده من أمه وفراصة صادقة من جده عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقد أخرج أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم فيما

يرويه عن شيوخه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه نهى في خلافته عن مذك اللين بالماء ، فخرج ذات ليلة في حواشي المدينة فإذا بامرأة تقول لابنة لها : ألا تمذقين لبنك فقد أصبحت ؟ فقالت الجارية : كيف أمذك وقد نهى أمير المؤمنين عن المذق ؟ فقالت : قد مذك الناس فامذقي فما يدري أمير المؤمنين ، فقالت : إن كان عمر لا يعلم فإنه عمر يعلم ، ما كنت لأفعله وقد نهى عنه ، ف وقعت مقالتها من عمر ، فلما أصبح دعا عاصما ابنه فقال : يا بني اذهب إلى كذا وكذا فاسأل عن الجارية - ووصفها له - فذهب عاصم ، فإذا هي جارية من بني هلال ، فقال له عمر : اذهب يا بني فتزوجها ، فما أحرأها أن تأتي بفارس يسود العرب ، فتزوجها عاصم بن عمر ، فولدت له أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب ، فتزوجها عبد العزيز بن مروان بن الحكم فأنت بعمر بن عبد العزيز (١) .

وهكذا رأينا موقف تلك الفتاة التقية حيث راقبت الله عز وجل الذي يعلم السر وأخفى ، وأدركت أن حفظ الأمانة وأداء حقوق الناس ليس الدافع إليه والوازع من ضده هو الخوف من السلطان في الأرض ، لأن السلطان ونوابه قد يغفلون عن مراقبة الناس فتتهياً

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٢٢ ، وابن عبد الحكم هو أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم الفقيه المالكي المصري ، من كبار العلماء في مصر ، ومن أجلة أصحاب الإمام مالك ، ولما قدم الإمام الشافعي إلى مصر صاحبه وتلمذ عليه ، وقد ذكر شيوخه في هذا الكتاب في المقدمة وهم علماء أجلاء من أمثال الأئمة مالك بن أنس والليث بن سعد وسفيان بن عيينة ، ولكنه لما ساق الأخبار لم يذكر شيوخه من باب الاختصار .

الفرصة لمن التزم بالحق من أجلهم أن ينتهز فرصة غفلتهم عنه فيتبع هواه وينطلق في غش المسلمين وظلمهم، بل أدركت أن الدافع إلى الاستقامة على الحق هو خشية الله تعالى ، ومن استقرت هذه الخشية في قلبه فإنها تحول بينه وبين اتباع الهوى المنحرف لأن رقابة الله تعالى دائمة ، وعلمه لطيف دقيق لا تخفى عليه خافية .

ولقد كان هذا الفهم الثاقب والإيمان القوي مثار إعجاب عمر، ورغبته في أن يزوج ابنه عاصما من تلك الفتاة الزكية رغبة في نجابة الولد، وصلاح المحضن الأول الذي تصاغ فيه تربية الأولاد ، ليكونوا رجال خير وإصلاح .

وكانت فراسة صادقة من أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، حيث أنجبت تلك الفتاة بنتا شرفت بإنجاب إمام من أعظم أئمة الإسلام في العدل والإصلاح .

وهكذا نجد الصحابة رضي الله عنهم يلتزمون بالمقياس الإسلامي وهو التقوى ، فيجعلونه مقياساً لعظمة الناس وتفوقهم، وبينون على هذا المقياس آمالا مستقبلية عالية كما فعل عمر حينما أمر ابنه عاصما بالزواج من تلك الفتاة الثقية .

رؤيا صالحة من جده عمر رضي الله عنه :

وعمر بن عبد العزيز هو الأشجُّ من ذرية عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي رأى فيه الرؤيا الصالحة ، وقد ذكر هذه الرؤيا ابن عبد الحكم فقال : واستيقظ عمر من نومه فمسح النوم عن وجهه وعرك

عينيه وهو يقول : من هذا الذي من ولد عمر يُسمَّى عمر يسير بسيرة عمر؟ يرددها مرات (١) .

ورواه ابن سعد في طبقاته من خبر نافع عن ابن عمر وعن نافع عن عمر بن الخطاب أنه كان يقول : ليت شعري من ذو الشين من ولدي الذي يملؤها عدلا كما ملئت جورا ، ذكره ابن الجوزي ، وذكر من رواية مبارك بن فضالة عن عبد الله بن عمر أنه كان كثيرا مايقول : ليت شعري من هذا الذي من ولد عمر في وجهه علامة يملأ الأرض عدلا (٢) .

مولده ونشأته :

ذكر أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم أنه ولد في المدينة (٣) وذكر محمد بن سعد أنه ولد سنة ثلاث وستين للهجرة ، وهي السنة التي توفيت فيها أم المؤمنين ميمونة رضي الله عنها (٤) .

وذكر ابن عبد الحكم أنه - وهو غلام صغير - كان يأتي عمه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما كثيرا ، لمكان أمه منه (٥) .

ثم ذكر أن أمه لما أرادت اللحاق بزوجها في مصر قال لها عبد الله ابن عمر : خلّفي هذا الغلام عندنا - يريد عمر - فإنه أشبهكم بنا أهل

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٢٢ .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ٥ ، وانظر البداية والنهاية ٩ / ١٩٦ .

(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز / ٢٤ .

(٤) طبقات ابن سعد ٥ / ٣٣٠ .

(٥) يعني لكون أمه ابنة عاصم أخي عبد الله بن عمر .

البيت، فخلفته عنده ولم تخالفه، فلما قدمت على عبد العزيز اعترض ولده فإذا هو لا يرى عمر، فقال لها: وأين عمر؟ فأخبرته خبر عبد الله وما سألها من تخليفه عنده لشبهه بهم، فسر بذلك عبد العزيز وكتب إلى أخيه عبد الملك بن مروان يخبره بذلك فكتب عبد الملك أن يجري عليه ألف دينار في كل شهر (١).

وقد جاء في خبر آخر أن عمر طلب من أبيه عبد العزيز أن يرسله إلى المدينة ليتعلم على علمائها، وذلك فيما أخرجه الحافظ ابن عساكر من خبر العتبي قال: إن أول ما استُئين من عمر بن عبد العزيز وحرصه على العلم ورغبته في الأدب أن أباه ولي مصر وهو [يعني عمر] حديث السن يُشكّ في بلوغه، فأراد إخراجه معه، فقال [يعني بعدما خرج]: يا أبة أو غير ذلك لعله أن يكون أنفع لي ولك، ترحّلني إلى المدينة فأقعد إلى فقهاء أهلها وأتأدب بأدابهم.

فوجهه إلى المدينة فقعّد مع مشايخ قریش وتجنّب شبابهم، وجاءته اللطاف أبيه من مصر فجعل يقسمها بينهم، فشهره أهل المدينة بعلمه وعقله مع حداثة سنّه فحسده فتيان قریش فقعّدوا إليه فقالوا: كيف أصبحت يا أبا خفص؟ فقال: مهلاً، إياي وكلام المجعة، فشهرت منه بالمدينة حتى كُتب بها إلى أبيه بمصر - والمجعة: القليلة عقولهم، الضعيفة آراؤهم -.

قال: ثم بعث إليه عبد الملك عند وفاة أبيه (٢) فخلطه بولده وقدمه

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز / ٢٤ .

(٢) أي أبي عمر بن عبد العزيز بن مروان .

على كثير منهم، وزوجه بابنته فاطمة، وهي التي يقول فيها الشاعر:

بنت الخليفة والخليفة جدها أخت الخلائف والخليفة زوجها

فلم تكن امرأة تستحق هذا البيت إلى يومنا هذا غيرها .

قال : وكان الذين يعيون عمر ممن يحسده لا يعيونه إلا بشيئين :

إلا بالإفراط في النعمة والاختيال في المشية، ولو كانوا يجدون ثالثاً
لجعلوه معهما ، وهو قول الأحنف : الكامل من عدت هفواته ،
ولا تعد إلا من قلة (١) .

فيكون على هذا قد بقي في المدينة بطلب من عمه عبد الله بن

عمر، ثم سافر إلى أبيه في مصر ، ثم عاد إلى المدينة .

وجاء في رواية أخرى بيان سبب آخر لقناعة أبيه بعودته إلى

المدينة ، فقد ذكر ابن عبد الحكم أن بعض أهل بيته كانوا يؤملون أن

يكون هو الحاكم العادل الذي رآه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي

الله عنه في المنام لتحقيق بعض الأمارات فيه ، فلما سقط من الدابة

فشج في وجهه زاد أملهم ذلك فقال أبوه : ما ينبغي لمن كان يرجى لما

يرجى له أن يكون تأديبه إلا بالمدينة ، فبعثه إليها (٢) .

وتربى عمر في أحضان العلماء الأتقياء حتى صار متفوقا في

العلم ، ولما تولى الوليد بن عبد الملك الخلافة ولاه على الحجاز من

سنة ست وثمانين إلى سنة ثلاث وتسعين (٣) .

(١) تاريخ دمشق ١٣٧/٤٥ - ١٣٨ ، وانظر سير أعلام النبلاء ١١٧/٥ .

(٢) سير عمر بن عبد العزيز ٢٥/ .

(٣) تاريخ دمشق ١٣٩/٤٥ .

رؤيا صادقة وعزم على الاستقامة والعدل :

ذكر سعيد بن صفوان وفادة رجاء بن حيوة على عمر بن عبدالعزيز قبل خلافته إلى أن قال : وأقام عنده أياما ، فكان كلما أصبح دخل على عمر بعد صلاة الصبح ، فيتحدثان لا يدخل عليهما أحد حتى يخرج رجاء من عنده ، قال : فبينما رجاء ذات يوم عنده - وقد رأى رؤيا فأصبح وقد حفظها - قال فجعل يحدث نفسه وعمر يحدثه ، فأنكره عمر فقال : يا أبا المقدم إني لأنكر بعض حالك اليوم فما شأنك ! قال : إن الذي ترى وإنكارك إياي لرؤيا رأيته الليلة ، فأنا أعجب وأحدث بها نفسي ؟ فقال عمر : اقصصها رحمك الله فقال : نعم وإن لك فيها نصيبا : رأيت الليلة كأن أبواب السماء فتحت ، فبينما أنا أرمقها إذ أقبل ملكان يهويان ، معهما سرير لم أر مثله حسنا ، حتى وضعاه بالمدينة ، ثم صعدا وأنا أنظر إليهما حتى دخلا أبواب السماء ، فلبثا مليا ، ثم أقبلا ومعهما ثياب بيض لم أر مثلهما ، وشممت عبق مسك لم أشم مثله قط ، فمهداها على ذلك السرير فدنوت منهما فقلت . ماهذه الثياب ؟ قالا : هذا السندس والاستبرق الذي ذكر في القرآن ، ثم صعدا فلبثا مليا ، ثم أقبلا معهما برجل أدعج العينين ، ذي وفرة شديد سواد الشعر ، بعيد ما بين المنكبين ، مربع الجسم ، عليه هبة ووقار ، حتى أقعدها على ذلك السرير من فوق تلك الفرش ، فدنوت منهما فقلت : من هذا الرجل ؟ فقالا هذا محمد ﷺ ، قال : فهبته هبة شديدة : وتأخرت ناكصا على عقبي ، حتى كنت منه بمكان منظر ومسمع ، فبينما أنا كذلك إذ أتى

برجلٍ قد نهزه القتيّر^(١)، ضَرَبَ الجسمَ، حسن اللحم، مشدودة يداه إلى عنقه، حتى وَقَفَ بين يديه، فأقبل رسول الله ﷺ يشني عليه فيما كان من فعّاله في الإسلام، ويقول أنت صاحبي في الغار، وأنت أبوبكر الصديق، والأمر ههنا إلى غيري، ولست أملك لك من الله شيئاً، فلم يزل قائماً بين يديه، ثم أمر به فأطلق عنه، وأجلس عند رأس السرير على الأرض، ثم أتى برجل حسن اللحم، نهزه القتيّر، مجموعة يداه إلى عنقه، حتى وَقَفَ بين يديه، فأقبل رسول الله ﷺ يشني عليه بفعّاله في الإسلام، ويقول: أما إنك الفاروق الذي أعز الله عز وجل به الدين، وأنت صاحب اليهودي. والأمر ههنا إلى غيري، ولست أملك لك من الله شيئاً، فلم يزل قائماً بين يديه ملياً، ثم أطلق عنه وأجلس مع أبي بكر، فما زال كذلك يؤتي بخليفة خليفة حتى أفضى الأمر إليك، فلما سمع عمر ذلك منه ارتاع فاستوى جالساً ثم قال: يا أبا المقدام فماذا صنّع بي؟ قال: أتى بك مجموعة يداك إلى عنقك، ثم وَقَفْتَ بين يديه طويلاً ثم أمر بك فأطلق الغُلَّ، ثم أجلس مع أبي بكر وعمر بن الخطاب فاشتد عجب عمر بن عبدالعزيز لرؤياري جاء بن حيوة ثم قال: يا أبا المقدام والله لولا ما أتق به من صحبتك وورعك، وجدك واجتهادك، ووفائك وصدقك، لأنباتك أني لا ألي شيئاً من أمر الخلافة أبداً، ولكني قد سمعت كلامك ورؤياك، وما أخلق بي، سوف أبثلي بأمر هذه الأمة. فوالله لئن أبثلت بذلك وإنها شرف الدنيا لأُطلبن بها شرف الآخرة^(٢).

(١) القتيّر هو الشيب.

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ١٣٩ - ١٤١.

- من مواقفه في إمارته على الحجاز -

لما تولى الوليد بن عبد الملك الخلافة ولاه على الحجاز من سنة ست وثمانين إلى سنة ثلاث وتسعين (١) .

استشارته فقهاء المدينة :

قال محمد بن سعد : أخبرنا محمد بن عمر قال : حدثنا عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه قال : لما قدم عمر بن عبد العزيز المدينة والياً عليها كتب حاجبه الناس ثم دخلوا فسلموا عليه ، فلما صلى الظهر دعا عشرة نفر من فقهاء البلد : عروة بن الزبير وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة وأبا بكر بن عبد الرحمن بن الحارث وأبا بكر بن سليمان بن أبي حثمة وسليمان بن يسار والقاسم بن محمد وسالم بن عبد الله وعبد الله بن عبد الله بن عمر وعبد الله بن عامر بن ربيعة وخارجة بن زيد بن ثابت . فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال : إني دعوتكم لأمر تؤجرون عليه وتكونون فيه أعواناً على الحق ، ما أريد أن أقطع أمراً إلا ب رأيكم أو برأي من حضر منكم فإن رأيتم أحداً يتعدى أو بلغكم عن عامل لي ظلامة فأخرج بالله على أحد بلغه ذلك إلا أبلغني . فجزؤوه خيراً وافترقوا (٢) .

وهذا الخبر يدلنا على قوة إيمان عمر بن عبد العزيز وحبّه البالغ لتطبيق الإسلام كاملاً ، حيث إن علماء الدين هم أخبر الناس

(١) تاريخ دمشق ١٣٩/٤٥ .

(٢) طبقات ابن سعد ٣٣٤/٥ ، وانظر تاريخ دمشق ٤٥ / ١٤١ .

بالإسلام، ففي استشارتهم والأخذ بحكمهم أمان من الوقوع في الخطأ والانحراف .

إجلاله سعيد بن المسيب :

قال ابن عبد الحكم : وأرسل عمر بن عبد العزيز في ولايته على المدينة رسولا إلى سعيد بن المسيب رحمه الله يسأله عن مسألة، وكان سعيد لا يأتي أميرا ولا خليفة ، فأخطأ الرسول فقال له : الأمير يدعوك فأخذ نعليه وقام إليه من وقته ، فلما رآه قال له : عزمت عليك يا أبا محمد إلا رجعت إلى مجلسك حتى يسألك رسولنا عن حاجتنا فإننا لم نرسله ليدعوك ، ولكنه أخطأ إنما أرسلناه ليسألك ، ولم ير سعيد أنه يسعه التخلف عنه (١) .

وهذا موقف عظيم من عمر بن عبد العزيز رحمه الله في تعظيم علماء الدين ورعاية حقهم ، فالعلم يؤتى إليه ولا يأتي ، والعلماء يُقصدون ، ولا يُقصدون غيرهم ، لأن العلم لا يؤثّر ولا يعطي نتائج المطلوبة إلا إذا تواضع له طالبوه ، وأصبح جوه مفعما بالحب والاحترام لحملة العلم .

ولقد كان عمر موقفا حينما اعتذر للعالم الرباني سعيد بن المسيب وأصر على أن يذهب إليه رسوله ليسأله وهو في مجلسه احتراماً له والتماساً لبركة العلم إذا أحيط بما يلزم له من ظروف وأسباب .

كما كان سعيد بن المسيب موقفا حينما استجاب لدعوة عمر وهو

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٢٦ .

الذي لم يستجب لدعوة أحد قبله ولا بعده.. كان موفقا لأنه أظهر توقير الوالي العادل وتفخيم أمره ، وفي ذلك ما فيه من عون على الاستقامة على العدل ، ودفع الناس إلى طاعته وتثبيت أمره في الولاية.

استخلافه وموقف لرجاء بن حيوة :

قال ابن سعد رحمه الله تعالى : أخبرنا علي بن محمد عن جرير ابن حازم عن هزّان بن سعد قال : حدثني رجاء بن حيوة قال : لما ثقل سليمان بن عبد الملك رأني عمر في الدار أخرج وأدخلُ وأتردد فدعاني فقال لي : يارجاء أذكرك الله والإسلام أن تذكرني لأمر المؤمنين أو تشير بي عليه إن استشارك، فوالله ما أقوى على هذا الأمر، فأنشدك الله إلا صرفت أمير المؤمنين عني . فانتهرته وقلت : إنَّك لحريص على الخلافة لتطمع أن أشير عليه بك . فاستحيى ودخلتُ، فقال لي سليمان : يارجاء من ترى لهذا الأمر وإلى من ترى أن أعهد ؟ قلت : ياأمير المؤمنين اتق الله فإنك قادم على الله وسائلك عن هذا الأمر وما صنعت فيه . قال : فمن ترى ؟ فقلت : عمر بن عبد العزيز . قال : كيف أصنع بعهد أمير المؤمنين عبد الملك إلى الوليد وإلى في ابني عاتكة أيهما بقي ؟ قلت : تجعلهما من بعده . قال : أصبتَ ووفقتَ ، جثني بصحيفة . فأتيته بصحيفة فكتب عهد عمر ويزيد من بعده وختمها ، ثم دعوتُ رجالاً فدخلوا عليه فقال لهم : إني قد عهدتُ عهدي في هذه الصحيفة ودفعْتُها إلى رجاء وأمرته أمري وهو في الصحيفة ، اشهدوا واختموا الصحيفة . فختموا

عليها وخرجوا فلم يلبث سليمان أن مات فكففتُ النساء عن الصباح وخرجتُ إلى الناس فقالوا : يارجاء كيف أمير المؤمنين ؟ قلت : لم يكن منذ اشتكى أسكنَ منه الساعة . قالوا : لله الحمد ! فقلت : أستم تعلمون أن هذا عهد أمير المؤمنين وتشهدون عليه ؟ قالوا : بلى ، قلت : افترضون به ؟ قال هشام : إن كان فيه رجل من ولد عبد الملك وإلا فلا . قلت : فإن فيه رجل من ولد عبد الملك ؟ قال : فنعم إذا . قال فدخلتُ فمكثتُ ساعة ثم قلتُ للنساء اصرخن ، وخرجتُ فقرأتُ الكتاب والناس مجتمعون وعمر في ناحية الرواق .

وقال : أخبرنا عليّ بن محمد عن يعقوب بن داود الشقي عن أشياخ من ثقيف قال : قرئ عهد عمر بعد وفاة سليمان بالخلافة وعمر ناحية وهو بدابق . فقام رجل من ثقيف يقال له سالم من أخوال عمر . فأخذ بضبعه فأقامه فقال عمر : أما والله ما الله أردت بهذا ولن تصيب بها مني دنيا (١) .

(١) طبقات ابن سعد ٣٣٩/٥ - ٣٤٠ ، وانظر تاريخ دمشق ١٥٧/٤٥ .

- تقديره أهل الفضل -

تقديره ولد قتادة بن النعمان :

قال الواقدي فيما يرويه عن شيوخه : وأُصِيبَتْ يومئذ^(١) عين قتادة بن النُّعْمان حتى وقعت على وَجَّتِهِ . قال قتادة بن النعمان : فجنث رسول الله ﷺ فقلت : أي رسول الله ، إنَّ تحتي امرأةً شابةً جميلةً أحبُّها وتُحبُّني وأنا أخشى أن تقذَّرَ مكان عيني . فأخذها رسول الله ﷺ فردَّها فأبصرت وعادت كما كانت ، فلم تضرب عليه ساعةً من ليل ولانهار ، وكان يقول بعد أن أسنَّ : هي والله أقسوى عيني ! وكانت أحسنهما^(٢) .

وقال الحافظ ابن حجر : أخرج الدارقطني وابن شاهين من طريق عبد الرحمن بن يحيى العذري عن مالك عن عاصم بن عمر بن قتادة عن محمود بن لبيد عن قتادة بن النعمان رضي الله عنه أنه أُصِيبَتْ عينه يوم أحد فوقعت على وجتته فردَّها النبي ﷺ فكانت أصح عينيه .

قال : وأخرجه الدارقطني والبيهقي في الدلائل من طريق عياض ابن عبد الله بن أبي سرح عن أبي سعيد الخدري وذكر نحوه^(٣) . وقد ذكر الحافظ ابن كثير أن ولد قتادة بن النعمان وفد على عمر

(١) يعني يوم معركة أحد .

(٢) مغازي الواقدي ٢٤٢/١ .

وأخرجه ابن هشام مختصراً - سيرة ابن هشام ٣/٣٣ - .

(٣) الإصابة ٢١٧/٣ ، رقم ٧٠٧٨ .

ابن عبد العزيز فقال له : من أنت ؟ فقال مرتجلا :

أنا ابن الذي سألت على الخد عينه

فردت بكف المصطفى أحسن الرد

فعادت كما كانت لأول أمرها

فياحسنها عينا وياحسن مآرد

فقال عمر بن عبد العزيز عند ذلك :

تلك المكارم لأقعبان من لبن

شيبا بماء فعادا بعد أبوالا

ثم وصله فأحسن جائزته رضي الله عنه (١) .

وولد قتادة هذا لم يذكر اسمه في هذه الروايات ، لكن جاء في رواية ذكرها الحافظ ابن حجر : قال عاصم : فحدثت به عمر بن عبدالعزيز ، فذكر البيت الذي تمثل به عمر (٢) ، وهذا يعني أن عاصم ابن عمر بن قتادة المؤرخ المشهور هو صاحب القصة ، ويكون قد انتسب إلى جده .

ففي هذا الخبر موقف لأمير المؤمنين عمر بن العزيز رحمه الله تعالى في إكرام ولد قتادة بن النعمان لما وفد عليه حينما عرف نفسه بما حدث لأبيه رضي الله عنه في هذا الخبر على يد رسول الله ﷺ ،

(١) البداية والنهاية ٣٥/٤ ، وانظر عيون الأثر ١٤/٢ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ١٩٦ .

(٢) الإصابة ٢١٧/٣ ، رقم ٧٠٧٨ .

وهذا يدل على تفوق عمر بن عبد العزيز في المجال الأخلاقي ، وذلك بتقدير أهل الفضل والتقدم في خدمة الإسلام والمسلمين ، فإن ما حدث لقتادة رضي الله عنه من اقتلاع عينه بتلك الصورة شاهد على إيغاله في القتال وتعرضه للمهالك ، كما أنه شرف له أن تمثلت فيه تلك المعجزة النبوية .

ولقد كان ولده بارعًا حينما صور هذا المشهد بذينك البيتين من الشعر اللذين ارتجلهما في الرد على أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز لما سأله عن اسمه ، وكان عمر أيضًا بارعًا في جوابه واستشهاده ببيت الشعر الذي استشهد به .

تقديره زياد مولى ابن عياش :

إن من مواقف أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز في التواضع وتقدير العلماء ماجاء في رواية ابن عبد الحكم أنه قال : وقدم عليه زياد مولى ابن عياش وأصحاب له ، فأتى الباب وبه جماعة من الناس فأذن له دونهم ، فدخل عليه فنسي أن يسلم عليه بالخلافة ، ثم ذكر فقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ، فقال له عمر : والأولى لم تضرنني ، ثم نزل عمر عن موضع كان عليه إلى الأرض وقال : إني أعظم أن أكون في موضع أعلو فيه على زياد ، فلما قضى زياد ما يريد خرج ، فأمر عمر خازن بيت المال أن يفتحه لزياد ومن معه يأخذون منه حاجتهم ، فنظر إليه خازن بيت المال فاقتحمته عينه أن يكون يُفتح لمثله بيت المال ويسلَّط عليه - وهو به غير عارف - ففعل الخازن ما أمر به ، فدخل زياد فأخذ لنفسه ولأصحابه بضعا وثمانين درهما ، أو

بضعا وتسعين درهما ، فلما رأى ذلك الخازن قال : أمير المؤمنين أعلم
بمن يسلط على بيت المال (١) .

ففي هذا الخبر صور من تواضع عمر بن عبد العزيز رحمه الله
وتقديره للعلماء الربانيين ، فهو أولاً لم يبال بلقب الخلافة وهو أعلى
لقب عند المسلمين ، والمناصب لها فتنة يقع في حبالها من اغتروا
بالجاه والمنزلة الدنيوية ، أما أقوياء الإيمان فإن شخصيتهم لا تتغير بعد
المنصب بل يظلون على ما هم عليه من التواضع ، وربما زادوا تواضعا
في مقابلة احترام الناس لهم .

ثم هو ثانياً نزل عن مكانه حتى لا يعلو ذلك العالم الرباني زياد
ابن أبي زياد مولى عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة ، وكون ذلك
العالم من الموالي لا يُنزل من قدره عند عمر فإن العبرة بالعلم والتقوى
لا بشرف النسب .

وموقف كريم لذلك العالم الرباني حيث لم يأخذ من بيت المال
إلا ذلك القدر الزهيد مع أنه قد مكن منه ، وهذا مثال رفيع من أمثلة
الزهد والورع .

وحينما تكون النفوس كبيرة والعقول راجحة فإنها تعف عن متاع
الدنيا الذي يتنافس عليه الصغار ، وتطمح ببصرها نحو نعيم الآخرة
الخالد الذي يتنافس فيه الكبار .

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٥٣ ، وأخرجه الإمام أحمد وذكر نحوه

- الزهد / ٢٩٩ ، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ٦١ .

إكرامه من ينتسبون إلى علي رضي الله عنه :

أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر عيسى بن عبد الله بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب . قال : حدثني يزيد بن عمر بن مورك قال : كنت بالشام وعمر بن عبد العزيز يعطي الناس ، فتقدمت إليه فقال لي : ممن أنت ؟ قلت من قريش ، قال من أي قريش ؟ قلت من بني هاشم . قال من أي بني هاشم ؟ قال فسكت فقال من أي بني هاشم ؟ قلت مولى علي . قال من علي : فسكت ، قال : فوضع يده على صدري وقال : وأنا والله مولى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، ثم قال : حدثني عدة أنهم سمعوا النبي ﷺ يقول : « من كنت مولاه فعلي مولاه » ثم قال : يامزاحم كم تعطي أمثاله ؟ قال : مائة أو مائتي درهم ، قال أعطه خمسين ديناراً ، وقال ابن أبي داود : ستين ديناراً لولايته علي بن أبي طالب ، ثم قال : الحق ببلدك فسيأتيك مثل ما يأتي نظراءك (١) .

وهذا موقف يذكر لأمر المؤمنين عمر بن عبد العزيز حيث حفظ حق أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه فأكرم وفادة ذلك الرجل وفضله على غيره في العطية لكونه مولى لعلي ، وفي هذا الخبر تصوير للإرهاب الذي بثه بنو أمية في قلوب الناس فيما يتعلق بعلي ابن أبي طالب رضي الله عنه وذريته ، حيث لم يجراً ذلك المولى على ذكر انتسابه إليه في بادئ الأمر .

(١) حلية الأولياء ٣٦٤/٥ ، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ١٢ .

- نماذج من جرأته في الحق وحزمه وحكمته -

إنكاره على الوليد بن عبد الملك في الحكم بالهوى :

قال أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم : ودخل عمر بن عبدالعزيز على الوليد بن عبد الملك فقال : يا أمير المؤمنين إن عندي نصيحة فيأذا خلا لك عقلك واجتمع فهمك فسلني عنها، قال : ما يمنعك منها الآن ؟ قال : أنت أعلم إذا اجتمع لك ما أقول، فإنك أحق أن تفهم .

قال : فمكث أياما ثم قال : يا غلام من الباب ؟ فقيل له ناس وفيهم عمر بن عبد العزيز فقال : أدخله ، فدخل عليه فقال : نصيحتك يا أبا حفص فقال عمر : إنه ليس بعد الشرك إثم أعظم عند الله من الدم، وإن عمالك يقتلون ويكتبون : إن ذنب فلان المقتول كذا وكذا، وأنت المسؤول عنه ، والمأخوذ به . فاكتب إليهم أن لا يقتل أحداً منهم أحداً حتى يكتب إليك بذنبه ثم يشهد عليه، ثم تأمر بأمرك على أمر قد وضع لك قال : بارك الله فيك يا أبا حفص ومنع فقدك . علي بكتاب فكتب إلى أمراء الأمصار كلهم فلم يخرج من ذلك إلا الحجاج ، فإنه أمضه ، وشق عليه وأقلقه . وظن أنه لم يكتب إلى أحد غيره، فبحث عن ذلك فقال : من أين ذهينا ؟ أو من أشار على أمير المؤمنين بهذا، فأخبر أن عمر بن عبد العزيز هو الذي فعل ذلك فقال : هيهات إن كان عمر فلا نقض لأمره .

قال : ثم إن الحجاج أرسل إلى أعرابي حروري جاف من بكر بن وائل، ثم قال له الحجاج : ماتقول في معاوية ؟ فقال منه . قال له :

ماتقول في يزيد ؟ فسبّه . قال : فما تقول في عبد الملك ، فظلمه
قال : فما تقول في الوليد ؟ فقال : أجورهم حين ولأك وهو يعلم
عداءك وظلمك .

قال : فسكت عنه الحجاج وافترصها منه ثم بعث به إلى الوليد
وكتب إليه : أنا أحوط لديني ، وأرعى لما استرعتني وأحفظ له من
أن أقتل أحداً لم يستوجب ذلك ، وقد بعثت إليك ببعض من كنت
أقتل على هذا الرأي فشأنك وإياه . فدخل الحروري على الوليد وعنده
أشراف أهل الشام وعمر فيهم ، فقال له الوليد : ماتقول في ؟ قال :
ظالم جائرٌ جبار . قال : ماتقول في عبد الملك ؟ قال جبار عات قال :
فما تقول في معاوية ؟ قال : ظالم . قال الوليد لابن الريان : اضرب
عنقه فضرب عنقه .

قال : ثم قام فدخل منزله وخرج الناس من عنده فقال : يا غلام
اردد عليّ عمر ، فردّه عليه فقال : يا أبا حفص ماتقول بهذا ؟ أصبنا فيه
أم أخطأنا ؟ فقال عمر ما أصبت بقتله ، ولغير ذلك كان أرشد وأصوب ،
كنت تسجنه حتى يراجع الله عز وجل أو تدركه منيته ، فقال الوليد :
شتمني وشتم عبد الملك وهو حروري أفستحل ذلك ؟ قال : لعمرى ما
استحلّه ، لو كنت سجنته إن بدا لك أو تعفو عنه ، فقام الوليد مُغضباً ،
فقال ابن الريان لعمر : يغفر الله لك يا أبا حفص ، لقد راددت أمير
المؤمنين حتى ظننت أن سيأمرني بضرب عنقك . فقال عمر : ولو أمرك
كنت تفعل ؟ قال : إي لعمرى قال عمر : اذهب إليك^(١) .

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز / ١٣٤ - ١٣٦ ، وانظر تاريخ دمشق ١٥٢ / ٤٥ .

فهذا موقف جليل من عمر بن عبد العزيز في الصدع بالحق أمام الوليد بن عبد الملك الذي كان شديد البطش وفي حال من الغضب الشديد، ولكنه كان بين أمرين : أن يتعرض لسخط الوليد وعذابه إن جهر بالحق، أو أن يتعرض لسخط الله جل وعلا وعذابه إن جهر بالباطل، فأثر طلب رضوان الله سبحانه واجتناب سخطه وعذابه فكفاه شر عباده .

مشورته على سليمان بن عبد الملك في الحكم :

قال أبو محمد ابن عبد الحكم : وشاور سليمان بن عبد الملك عمر بن العزيز في رجل سب سليمان فقال : ماترى فيه؟ فقال من حوله : اكتب بضرب عنقه - وعمر بن عبد العزيز ساكت - فقال : مالك لا تتكلم يا عمر ؟! فقال : أما إذا سألتني فلا أعلم سباً أحلت دم مسلم إلا سبة نبي ، قال : فقاموا وقام فقال سليمان : لله بلادك يا عمر لو قرشي طُبخت في مرقته لأنضجتها (١) .

ولقد حدث في عهد أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز أن رجلاً من الخوارج شتمه ، كما ذكر ذلك ابن عبد الحكم قال : وحكم رجل في مسجد رسول الله ﷺ (٢) - وأبو بكر بن محمد في صلاته - فقطع عليهم الصلاة وشهر السيف . فكتب أبو بكر إلى عمر . فأُتي بكتاب عمر فقرأ عليه فشتم عمر والكتاب ومن جاء به . فهم أبو

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز / ١٣١-١٣٢ ، والمقصود بالمرقة اللحم ، والمراد وصفه بالقوة والحزم .

(٢) يعني قال : لاحكم إلا الله .

بكر بضرب عنقه ثم راجع عمر وأخبره أنه شتمه وأنه همّ بقتله .
فكتب إليه عمر : لو قتلته لقتلتك به ، فإنه لا يُقتل أحدٌ بشتم أحد إلا
أن يشتم النبي ﷺ ، فإذا أذاك كتابي هذا فاحبس عن المسلمين شره ،
وادعُ إلى التوبة في كل هلال ، فإذا تاب فخلّ سبيله . فلم يزل في
الحبس حتى هلك عمر فضرب يزيد بن عبد الملك عنقه .

وهكذا كان علم عمر بن عبد العزيز وورعه عاصمين له من
الظلم ، فالورع وحده لا يكفي في العصمة بدون العلم بالشرع لأن
المسلم بدون العلم قد يقع في المخالفات عن جهل ، والعلم وحده
لا يكفي لأن المسلم قد يعلم الحكم ولكنه لا يطبقه اتباعاً للهوى ، وقد
تميز عمر بن عبد العزيز في معاملة الخوارج بالعدل والحكمة .

إنكاره على سليمان بن عبد الملك في الإنفاق :

قال أبو محمد ابن عبد الحكم : وقدم سليمان بن عبد الملك المدينة
فأعطى بها مالا عظيما ، فقال لعمر بن عبد العزيز : كيف رأيت
ما فعلنا يا أبا حفص ؟ قال : رأيتك زدت أهل الغنى غنى وتركت أهل
الفقر بفقرهم (١) .

فهذا تقويم جيد من عمر بن عبد العزيز لعمل سليمان بن
عبد الملك ، فقد كان سليمان - لجهله بدقائق أحكام الشريعة في مجال
الإنفاق - يظن أنه بإنفاقه ذلك المال الكثير على الرعاية قد عمل
صالحا ، فأفاده عمر بن عبد العزيز بأنه قد أخطأ حينما صرف ذلك
المال لغير مستحقه وحرم منه أهله .

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز / ١٣١ .

إنكاره على سليمان بن عبد الملك في تحكيمه كتاب أبيه :

ذكر ابن عبد الحكم رحمه الله في روايته عن شيوخه قال : وكلمَ عمر بن عبد العزيز سليمان بن عبد الملك في ميراث بعض بنات عبدالعزيز من بني عبد الملك ، فقال له سليمان بن عبد الملك : إن عبد الملك كتب في ذلك كتابا منعهن ذلك ، فتركه يسيرا ثم راجعه ، فظن سليمان أنه اتهمه فيما ذكر من رأي عبد الملك في ذلك الأمر فقال سليمان لغلامه : إئتني بكتاب عبد الملك ، فقال له عمر : أبا المصحف دعوت يا أمير المؤمنين ؟ فقال أيوب بن سليمان : ليوشكن أحدكم أن يتكلم الكلام تضرب فيه عنقه ، فقال له عمر : إذا أفضى الأمر إليك فالذي دخل على المسلمين أعظم مما تذكر ، فزجر سليمان أيوب ، فقال عمر : إن كان جهل فما حلمنا عنه ؟ (١) .

فهذا موقف من مواقف الجراءة في قول الحق التي يُحمد لعمر حيث اعتبر سليمان بن عبد الملك كتابة أبيه شرعاً لا يمكن تغييره ، فنبهه عمر إلى أن الكتاب الذي لا يُنقض ولا يُغيّر هو كتاب الله تعالى وحده .

وهكذا يصل الطغيان بضحاياه إلى تعظيم شأن الآباء والأجداد الذين ورثوا ذلك المجد الزائل لأبنائهم إلى الحد الذي يعتبرون فيه قضاءهم شرعاً نافذاً من غير نظر في موافقته لحكم الإسلام أو مخالفته .

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ٣١ وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ٢٩ .

وموقف يذكر لسليمان حيث وبَّخ ولده الذي هدد عمر أن قال
كلمة الحق ، وهذا يدل على ما يتصف به سليمان من سرعة الرجوع
إلى الحق إذا تبين له ، كما أن من فضائله جعل عمر بن عبد العزيز
مستشاراً له ومن خاصته الأقربين ، ثم عقد الخلافة له من بعده .
عزله ولالة السوء :

إن من أهم المواقف الجريئة التي قام بها أمير المؤمنين عمر بن
عبد العزيز رحمه الله إقدامه على عزل ولالة السوء الذين اشتهروا
بالظلم ، وكان أول عمل قام به عزل أسامة بن زيد التنوخي ويزيد بن
أبي مسلم ، قال ابن عبد الحكم في ذلك : وكتب بعزل أسامة بن زيد
التنوخي ، وكان على خراج مصر ، وأمر به أن يحبس في كل جند
سنة ، ويقيد ويحل عن القيد عند كل صلاة ، ثم يرد إلى القيد ، وكان
غاشماً ظلوماً معتدياً في العقوبات بغير ما أنزل الله عز وجل يقطع
الأيدي في خلاف ما يؤمر به ، ويشق أجواف الدواب فيدخل فيها
القطائع ^(١) ويطرحهم للتماسيح ، فحُبس بمصر سنة ، ثم نقل إلى
أرض فلسطين فحبس بها سنة ، ثم مات عمر رحمه الله وولي يزيد
ابن عبد الملك فردَّ أسامة على مصر .

قال : وكتب بعزل يزيد بن أبي مسلم عن أفريقية وكان عامل
سوء ، يُظهر التأله والنفاذ لكل ما أمر به السلطان مما جلَّ أو صغر من
السيرة بالجور والمخالفة للحق ، وكان في هذا يُكثر الذكر والتسبيح ،
ويأمر بالقوم فيكونون بين يديه يعذبون وهو يقول : سبحان الله

(١) لعل المراد الأيدي المقطوعة .

والحمد لله ، شدَّ ياغلام موضع كذا وكذا لبعض مواضع العذاب ، وهو يقول : لا إله إلا الله والله أكبر شدَّ ياغلام موضع كذا وكذا ، فكانت حالته تلك شر الحالات (١) .

وهكذا كان أول عمل قام به عمر هو عزل هذين الواليين الظالمين ، كما جاء في رواية ابن عبد الحكم أنه كتب كتابي عزلهما بعد دفن سليمان بن عبد الملك وقبل رجوع عمر إلى بيته ، مما يدل على شدة اهتمامه بإقرار العدل ورفع الظلم .

فهذان الواليان قد نسيا عبوديتهما لله تعالى ، فلم يصاحبهما الشعور بأنهما ومن فوقهما في المسئولية منقادون لشريعة الله تعالى ، مستسلمون لأوامره ، بل كان الشعور الذي يسيطر عليهما هو محاولة إرضاء طموحهما نحو الطغيان والتجبر على الرعية ، وإرضاء من فوقهما من المسئولين لاعتقادهما بأن إذلال الناس يقربهما من المسئولين .

وهذا الشعور الضاغط الذي يلزم الطغاة ويهيمن على تفكيرهم ينسيهم أي تفكير نحو إصلاح الرعية والإحسان إليهم لأن همهم منصرف إلى مدى البراعة في إتقان مجال النفاق والمداينة لمن هم فوقهم ، وتحصيل رضاهم بأي ثمن ، وإن كان يترتب على ذلك سخط الله تعالى عليهم ، وكراهية الناس لهم .

وفي الخبر الأخير مثل من التضليل بالتظاهر بالتسدين حيث يُكثر ذلك الوالي من التسييح والتهليل والتكبير ، في الوقت الذي يتسلَّى

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز / ٣٧ - ٣٨ .

فيه برؤية المعذبين ، ويُصدر أوامره بالتشديد في تعذيبهم ، وهذا جهل منه وضلال ، ففي الوقت الذي يقول فيه لا إله إلا الله ، ينطق عمله الظالم بتعظيم غير الله تعالى ، لأن الله جل وعلا لا يرضى بالظلم ، وإنما ينطوي فكر هذا الوالي الظالم على إرضاء شهوة الجبروت والطغيان في نفسه أو نفوس من يعمل لكسب رضاهم .

وإذا كان يقول: الله أكبر، فكيف لم يجعل الله تعالى نُصْبَ عينيه وهو يعذب الناس ؟ فهل كان الله عز وجل أكبر في فكره حقا، أم كان الأكبر هُم من يعظمهم من دون الله تعالى ؟

وهذا الاتجاه له نتائج خطيرة على عقيدة المسلمين وسلوكهم ، ولهذا كان غضب الإمام العادل عمر بن عبد العزيز، فإنه لم يكن بمعزل عن واقع الأمة قبل الخلافة ، فلما تولى أمر المسلمين سارع إلى عزل الولاة الظلمة الذين يعرقلون سير المجتمع نحو الصلاح .

قوته في الرجوع إلى الحق :

ذكر الحافظ ابن عساكر من خبر يحيى بن سعيد وربيعة بن أبي عبدالرحمن قالاً : كان عمر بن عبد العزيز يقول : ما من طينة أهون عليّ فكّا ، ولا من كتاب أيسر عليّ ردّا من كتاب قضيت به ثم أبصرت أن الحق في غيره فنسخته (١) .

فهذا يدل على تغليب نداء العقل السليم على نداء العواطف ، وذلك مبعثه قوة ملاحظة الهدف الإسلامي الأعلى وهو ابتغاء رضوان الله تعالى والدار الآخرة ، فإذا كان الإيمان بهذا الهدف قويا فإنه يتكون

(١) تاريخ دمشق ١٩٤/٤٥ ، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ٦١ .

لدى صاحبه عزوف عن اتباع هوى النفس وقوة في الشخصية تبعث على عدم المبالاة بانتقادات الناس ولا فيما قد يتعرض له الجاه من اهتزاز لدى بعض الناس .

ومن ذلك ما أخرجه محمد بن سعد من خبر حسن بن القاسم الأزرقى : أنه كان عند عمر بن عبد العزيز ونفر من قریش يختصمون إليه فقضى بينهم ، فقال المقضي عليه : أصلحك الله إن لي بينة غائبة ، فقال عمر : إني لا أؤخر القضاء بعد أن رأيت الحق لصاحبه ، ولكن انطلق أنت فإن أتيتني بينة وحق هو أحق من حقهم فأنا أول من رد قضاءه على نفسه (١) .

تلذهه بتنفيذ الحق :

ذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر أبي بكر بن عمرو بن حزم قال قال لي عمر بن عبد العزيز : ما وجدت في إمارتي هذه شيئا ألد من حق وافق هواي (٢) .

وهكذا يعلن العظماء عن مواقع ملذاتهم . . إنهم لا يتلذذون بمتاع الدنيا الزائل مهما لمع بريقه وقويت جاذبيته ، ولكنهم يعشقون المعاني السامية والمثل العالية التي من أبرزها تنفيذ الحق مع انشراح النفس له . . إنها متعة روحية عالية لا يتذوقها إلا من صفا فكره وسمت مطالبه .

(١) طبقات ابن سعد ٣٨٦/٥ .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ٢٠٧ .

بيانه مهمة الحاكم :

من مواقفه رحمه الله في بيان مهمة الحاكم قوله في إحدى خطبه : أيها الناس إنه ليس بعد نبيكم نبي ، وليس بعد الكتاب الذي أنزل إليكم كتاب ، فما أحل الله تعالى على لسان نبيه ﷺ فهو حلال إلى يوم القيامة ، وما حرم الله على لسان نبيه ﷺ فهو حرام إلى يوم القيامة إلا إني لست بقاض ، وإنما أنا منفذ لله ، ولست بمبتدع ولكني متبع ألا إنه ليس لأحد أن يطاع في معصية الله عز وجل ، لست بخير منكم ، ألا وإني أثقلكم حملا ، يا أيها الناس إن أفضل العبادة أداء الفرائض واجتناب المحارم ، أقول قولي هذا واستغفر الله العظيم لي ولكم (١) .

فقد بين رحمه الله أن مهمة الحاكم أنه منفذ لشريعة الله تعالى في الأرض ، وذلك في أمور سياسة الأمة الداخلية والخارجية وأمور الجهاد لحماية الأمة ولتبليغ الإسلام ، ثم في تنفيذ أحكام الإسلام التي يحكم بها القضاء كإقامة الحدود ورد المظالم ، ثم في الإشراف والرقابة على سائر أمور الأمة .

وفي تحديد مهمة أمير المؤمنين بكونه منفذا لشريعة الله تعالى بيان للخط السياسي الذي يجب أن يسير عليه ، فهو ليس مشرعا مع الله جل وعلا ، ولا يجوز له أن يتأخر في تنفيذ شريعة الله تعالى .
ثم بين أنه - من ناحية المصدر الذي يتلقى منه - متبع للكتاب

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٤١ - ٤٢ ، وانظر تاريخ

دمشق ١٧١/٤٥ .

والسنة ومنهج الخلفاء الراشدين وليس بمبتدع شيئاً لم يسبق إليه ، فإذا استنكر بعض الناس وجوه الإصلاح التي يقوم بها فليس ذلك لأنها أمور مبتدعة وإنما ذلك لكون بعض السنن أُمِّيتْ ، وأُحْيِيَ الناس بدلاً منها البدع ، فصار المعروف منكراً والمنكر معروفاً عند بعض الناس .

ثم بين أن طاعة السلطان ليست مطلقة وإنما هي مقيدة بطاعة الله سبحانه ، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، فإذا أمر الحاكم بأمر يتعارض مع شريعة الإسلام فلا يجوز تنفيذ أمره بل يجب تنبيهه ليرجع إلى الحق ، فينقذ نفسه وينقذ أُمته من مخالفة أمر الله تعالى .

ثم بين أنه لا تلازم بين المسؤولية والخيرية ، فليس كون الإنسان مسئولاً يُخَوِّله أن يكون خيراً ممن هم تحت مسئوليته ، وإنما كلما عظمت المسؤولية كانت التكاليف أشق وأثقل ، فمن كان مسئولاً عن أسرته فقط ليس كمن هو مسئول عن إدارة أو إمارة ، وصاحب الولاية العظمى هو أثقل المسلمين حملاً ، لأن كل مسئول يأتي يوم القيامة فيناقش الحساب عن رعيته التي استرعاه الله إياها ، كما قال النبي ﷺ « مامن وال على عشرة إلا جاء يوم القيامة مغلوله يده إلى عنقه ، فكاه عدله أو أوبقه جوره » أخرجه الإمام أحمد (١) .

ولقد كان عمر بن عبد العزيز بهذا الكلام دقيق الفهم لحقيقة الولاية حيث فهم أنها مغرم وليست بمغنم ، وأنها لا تزيد صاحبها شرفاً ولا رفعة ، وإنما هي ابتلاء بعمل ثقیل متواصل ، إن أداه صاحبه على ما يرضي الله تعالى كان عملاً صالحاً وأصبح نعمة على صاحبه ،

(١) الفتح الرباني ١٤/٢٣ - ورجاله رجال الصحيح .

ودخل في زمرة من قال عنهم رسول الله ﷺ « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله . . وذكر منهم الإمام العادل » (١) ، وإن عمل فيه بما يسخط الله تعالى كان عملاً سيئاً وكان نقمة على صاحبه ودخل في زمرة من قال فيهم رسول الله ﷺ « اللهم من وكي من أمر أمتي شيئاً فشق عليهم فاشقق عليه » (٢) .

ثم ختم خطبته ببيان أن أفضل العبادة فعل الواجبات واجتناب المحرمات ، وذلك مقتبس من قول رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه جل وعلا « وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه » (٣) وذلك يشمل فعل الواجبات واجتناب المحرمات .

وهذه الجملة تدل على عمق فهم عمر لشمول العبادة حيث جعل منها ترك المحرمات ، وعلى فقهه حيث قدم ذلك على فعل النوافل .

(١) صحيح البخاري رقم ١٤٢٣ الزكاة (٣/٢٩٢) ، صحيح مسلم ، زكاة رقم ١٠٣١ (ص ٧١٥) .

(٢) صحيح مسلم رقم ١٨٢٨ ، الإمارة (ص ١٤٥٨) .

(٣) صحيح البخاري ، الرقاق ، رقم ٦٥٠٢ (١١ / ٣٤٠) .

من أخباره في العدل والاهتمام بالمسؤولية

رغبته في التأسّي بجده عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

أخرج الإمام أحمد بن حنبل من خبر جعفر بن برقان قال كتب عمر بن عبد العزيز إلى سالم بن عبد الله بن عمر (١) : أما بعد فإن الله عز وجل ابتلاني بما ابتلاني به من هذا الأمر عن غير مشورة ولا طلب له ولكن كان ما قدر الله عز وجل فأسأل الله الذي ابتلاني بما ابتلاني أن يعينني عليه ، فإذا جاءك كتابي هذا فابعث إلي بكتب عمر ابن الخطاب وقضائه وسيرته في أهل العهد وأهل الذمة فإني متبع أثره وسائر بسيرته إن أعاني الله على ذلك والسلام ، فكتب إليه سالم : جاءني كتابك تذكر أن الله عز وجل ابتلاك بما ابتلاك به من هذا الأمر من غير طلب ولا مشورة كان منك ولكن ما كان قدر الله أن يبتليك ، فأسأل الله الذي ابتلاك بما ابتلاك به أن يعينك عليه فإنك لست في زمان عمر وليس عندك رجال عمر فإن نويت الحق وأردته أعانك الله عليه وأتاح لك عمالا وأتاك بهم من حيث لا تحسب فإن عون الله على قدر النية فمن تمت نيته في الخير تم عون الله له ومن قصرت نيته قصر من العون بقدر ما قصر منه والسلام (٢) .

فهذا طموح من أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز لما أراد التأسّي بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه في أحكام أهل الذمة ،

(١) جاء في كتاب الزهد « سالم بن عمر وصوابه ما أثبت لأن سالما هو ابن عبد الله بن عمر بن الخطاب .

(٢) الزهد / ٣٠١ - ٣٠٢ ، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ١٢٢ .

حيث إنه في عهد قد تقرر هذه الأحكام فيه .

وما جاء في جواب سالم بن عبد الله بن عمر لا يعتبر تئيسا لعمر ابن عبد العزيز ، وإنما هو تذكير له بما يتطلبه ذلك التأسى من التكامل ، حيث إن تطبيق الأحكام الشرعية لا يؤدي مقاصده إلا إذا كان الولاة الذين سيتولون التنفيذ على مستوى هذه الأحكام فهما وقناعة ومقدرة على التنفيذ ، وقد أشار سالم إلى ما يحو هذا التئيس ويفتح باب الأمل ، وذلك بصلاح نية المسئول الأعلى وتوجهه الصادق نحو الإصلاح ، فإن صلاح النية في ذلك يترتب عليه عون الله تعالى وتوفيقه إلى اختيار هؤلاء الولاة المتقين الذين يكونون عوناً لأمير المؤمنين على معرفة الحق وتنفيذه .

تذكيره بالحساب الآخروي :

نقل الحافظ ابن كثير عن الشعبي قال : حج سليمان بن عبد الملك ، فلما رأى الناس بالموسم قال لعمر بن عبد العزيز : ألا ترى هذا الخلق الذي لا يحصي عددهم إلا الله ، ولا يسع رزقهم غيره!! فقال : يا أمير المؤمنين هؤلاء رعيته اليوم وهم خصماؤك عند الله ، فبكى سليمان بكاء شديداً ، ثم قال : بالله أستعين (١) .

فهذا التذکر السريع من عمر بن عبد العزيز لمشاهد يوم القيامة يدل على عمق يقينه ، حيث قارن سريعاً بين مارآه من المشهد الدنيوي وما ينتظر من الحساب الآخروي ، فذكر أمير المؤمنين سليمان بمسؤوليته عن جميع المسلمين .

(١) البداية والنهاية ١٨٧/٩ .

وعظه سليمان بن عبد الملك في رد المظالم :

ذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر مكّي بن إبراهيم قال: كنا عند عبد العزيز بن أبي رواد في المسجد فارتفعت سحابة فجاءت برعد وبرق وصواعق، ففزع القوم فتفرقنا، فلما سكنت عدنا، فقال عبد العزيز: خرج سليمان بن عبد الملك يوما إلى بعض البوادي فأصابهم نحو من هذا ففزع سليمان ونادى يا عمر يا عمر وكانوا- يعني بني أمية- إذا أصابتهم شدة فزعوا إلى عمر بن عبد العزيز، فإذا عمر ينادي ها أنا ذا. قال: ألا ترى؟ قال: يا أمير المؤمنين إنما هذا صوت نعمة فكيف لو سمعت صوت عذاب؟ فقال: خذ هذه المائة ألف درهم وتصدق بها، فقال عمر: أو خير من ذلك يا أمير المؤمنين، قال وما هو؟ قال قوم صحبوك في مظالم لهم لم يصلوا إليك، قال فجلس سليمان فرد المظالم (١).

وهكذا كان سلوك عمر بن عبد العزيز في التذكر والاعتبار عبرة لمن حوله، فقد كان لتذكيره سليمان بن عبد الملك بعذاب الله تعالى أثر في خشيته وإنابته، وقد كان من أثر ذلك أن وصل عمر إلى تذكيره بالعدل ورد الحقوق إلى أصحابها.

إتخاذه رقباء على نفسه ليستقيم على الحق :

أخرج الحافظ أبو نعيم من خبر عمرو بن مهاجر قال قال عمر بن عبد العزيز: إذا رأيتني قد ملت عن الحق فضع يدك في تسبائي ثم هزني، ثم قل: يا عمر مات صنع (٢)؟

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز / ٣٣ .

(٢) حلية الأولياء ٢٩٢/٥ ، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ١٤٦ .

وذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر أبي حازم قال: لما استخلف عمر بن عبد العزيز قال: انظروا رجلين من أفضل من تجدون، فجيء برجلين، فكان إذا جلس مجلس الإمارة ألقى لهما وسادة قبالة فقال لهما: إنه مجلس شرّة وفتنة فلا يكن لكما عمل إلا النظر إلي، فإذا رأيتهما مني شيئا لا يوافق الحق فخوفاني وذكراني بالله عز وجل^(١).

فهذا مثل من تصميمه على الحكم بالحق، وهو لكونه يعرف ضعف بني آدم، وأن الإنسان يسير في هذه الحياة بين أعداء لدودين: نفسه الأمارة بالسوء التي تزين له اتباع الهوى، والشيطان الرجيم الذي يوسوس له ويخادعه ويقلل في عينه مسالك الانحراف، ويضخم في عينه مهابة الناس، وشياطين الإنس الذين مايزالون يفتلون في الذروة والغارب ليسقطوا على مواقع الضعف فيه فينفذوا منها إلى السيطرة عليه وتسخيره لباطلهم، فهو لكونه يعرف ذلك كله لم يعتمد على ما يرى من قوة إيمانه وعزمه الأكيد على تنفيذ الحق ودحر الباطل، بل جعل على نفسه رقباء من أهل التقوى بعيدا عن ساحة المعركة التي يخوضها هو ليدرك ما قد يفوته أو يغلب عليه من مناحي الانحراف عن الطريق المستقيم.

وفي تعبيره عن الطريقة التي أرشد إليها ذلك الأخ في الرواية الأولى في تنبيهه إلى الحق مثل من تواضعه الكبير، وتجرده من حظ النفس، واعتباره تنفيذ الحق أعلى من مراعاة الجاه والمنزلة الاجتماعية.

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز / ١٤٦ - ١٤٧ .

ماقام به من رد المظالم :

قال ابن عبد الحكم - في بيان ما قام به أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز بعد توليه الخلافة - : واحتجب عن الناس ثلاثا لا يدخل عليه أحد ، ووجوه بني مروان وبني أمية وأشراف الجنود والعرب والقواد ببابه ينظرون ما يخرج به عليهم منه ، فجلس للناس بعد ثلاث وحملهم على شريعة من الحق فعرفوها ، فرد المظالم وأحيا الكتاب والسنة وسار بالعدل ، ورفض الدنيا وزهد فيها ، وتجرد لإحياء أمر الله عز وجل ، فلم يزل على ذلك حتى قبضه الله عز وجل ، فرحمه الله (١) .

وهكذا رسم أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز سياسته التي سيسير عليها ، حيث أحصى المظالم فردّها إلى أصحابها ، وكان قويا في فرض الحق ، فلم يخش المعارضين مع كثرتهم وتحزبهم ، ولم يخش أحداً من الظلمة ، لأنه كان يخش الله تعالى وحده ، حيث أصبح قلبه مملوءاً بالإيمان بالله جل وعلا وحبه وخشيته ، ولم يكن لمراكز القوى المحيطة به أي أثر في صده عن تنفيذ الحق ، لأن قلبه قد تجرد للإيمان بالله تعالى وحده فلم يستطع الشيطان أن يغريه بالدنيا ولا أن يخيفه بأصحاب النفوذ ولا من وراءهم من طلاب الدنيا .
بدؤه بنفسه وأهل بيته :

ومن عدالته أنه بدأ بنفسه وأهل بيته ، وفي ذلك يقول أبو بكر بن أبي سبرة : لما رد عمر بن عبد العزيز المظالم قال : إنه لينبغي أن لا أبدأ

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٤٠ .

بأول من نفسي ، فنظر إلى مافي يديه من أرض أو متاع فخرج منه ،
حتى نظر إلى فص خاتم فقال : هذا مما كان الوليد بن عبد الملك
أعطانيه مما جاءه من أرض المغرب ، فخرج منه (١) .

ومن ذلك ماجاء في قول عبد المجيد بن سهيل : رأيت عمر بن
عبد العزيز بدأ بأهل بيته فرد ماكان بأيديهم من المظالم ثم فعل بالناس
بعد (٢) .

ولقد سهل على الناس وصول حقوقهم إليهم ، وفي ذلك يقول
أبو الزناد : وكان عمر يرد المظالم على أهلها بغير البينة القاطعة ، كان
يكتفي بأيسر من ذلك ، إذا عرف وجهها من مظلمة الرجل ردها عليه
ولم يكلفه تحقيق البينة لما كان يعرف من غشم الولاة (٣) .

من كتاباته في رد المظالم :

ومن كتاباته إلى الولاة في رد المظالم مارواه عبد الرحمن بن أبي
الزناد عن أبيه قال : كتب إلينا عمر بن عبد العزيز بالعراق في رد
المظالم إلى أهلها ، فرددناها حتى أنفدنا ما في بيت مال العراق ، وحتى
حمل إلينا عمر المال من الشام (٤) .

وكذلك ماجاء في خبر أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم :
والي المدينة قال : كتب إلي عمر بن عبد العزيز : أن استبرئ

(١) طبقات ابن سعد ٣٤١/٥ .

(٢) المرجع السابق ٣٤١/٥ .

(٣) المرجع السابق ٣٤٢/٥ .

(٤) طبقات ابن سعد ٣٤٢/٥ .

الدواوين فانظر إلى كل جور جاره من قبلي من حق مسلم أو معاهد فرده عليه ، فإن كان أهل تلك المظلمة قد ماتوا فادفعه إلى ورثتهم .

وجاء في هذا الكتاب - كما ذكر موسى بن عبيدة - وإياك والجلوس في بيتك ، اخرج للناس فأس بينهم في المجلس والمنظر ، ولا يكن أحد من الناس أثر عندك من أحد ، ولاتقولن هؤلاء من أهل بيت أمير المؤمنين ، فإن أهل بيت أمير المؤمنين وغيرهم عندي اليوم سواء ، بل أنا أحرى أن أظن بأهل بيت أمير المؤمنين أنهم يقهرون من نازعهم ، وإذا أشكل عليك شيء فاكتب إلي فيه (١) .

وهذا من كمال عدله ومساواته بين المسلمين ، وذلك يدل على قوة إيمانه ورجاحة عقله .

ولقد كان رد المظالم عملاً كبيراً استغرق خلافة عمر بن عبدالعزيز كلها كما جاء في خبر سليمان بن موسى قال : ما زال عمر بن عبدالعزيز يرد المظالم منذ يوم استخلف إلى يوم مات (٢) .

حرصه على الإسراع في رد المظالم :

ولقد كان حريصاً على الإسراع برد المظالم إبراء للذمة وخوفاً من حلول الأجل قبل إكمال ذلك ، ومن أخباره في ذلك ما أخرجه محمد بن سعد من خبر أيوب بن موسى قال : كتب عمر بن عبد العزيز إلى عروة عامله على اليمن : أما بعد فإني أكتب إليك أمرك أن ترد على المسلمين مظالمهم فتراجعني ولاتعرف بُعد مسافة ما بيني وبينك ،

(١) طبقات ابن سعد ٣٤٢/٥ - ٣٤٣ .

(٢) المرجع السابق ٣٤١/٥ .

ولاتعرف أحداث الموت، حتى لو كتبت إليك أن اردد على مسلم مظلمة شاة لكتبت : أرددها عفراء أو سوداء ، فانظر أن ترد على المسلمين مظالمهم ولاتراجعني (١) .

وهكذا يبين أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز لواليه على اليمن عروة بن محمد بن عطية السعدي أهمية الإسراع في رد المظالم وأن لا يضيع الوقت بالكتابات الاستفسارية عن أمور واضحة، وفي هذا لفت نظر إلى أن من أسباب نجاح الوالي أن يتصرف باجتهاده في الأمور التي لاغموض فيها ولا لبس، من باب كسب الوقت والسرعة في الإصلاح .

مثل من صرامته ومالقي من عشيرته :

أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر إسماعيل بن أبي حكيم قال : أتى عمر بن عبد العزيز كتاب من بعض بني مروان فأغضبه ثم قال : إن لله في بني مروان ذبحا، وإيم الله لئن كان الذبح على يدي .. فلما بلغهم ذلك كفوا، وكانوا يعلمون صرامته وأنه إن وقع في أمر مضى فيه (٢) .

وقوله « إن لله في بني مروان ذبحا » لعله أخذه من سنة الله تعالى الجارية في الانتقام من الظالمين، وأن الله سبحانه يمهلهم بعض الوقت ولا يهملهم، فإذا أراد الانتقام منهم أخذهم أخذ عزيز مقتدر .

(١) طبقات ابن سعد ٣٨١/٥ .

(٢) حلية الأولياء ٢٨١/٥ .

مساواته بين عشيرته وسائر المسلمين :

ذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر الإمام الأوزاعي قال : لما قطع عمر بن عبد العزيز على أهل بيته ما كان يجري عليهم من أرزاق الخاصة وأمرهم بالانصراف إلى منازلهم تكلم في ذلك عنبسة بن سعيد فقال : ياأمير المؤمنين إن لنا قرابة ، قال : لن يتسع مالي لكم ، وأما هذا المال فحقكم فيه كحق رجل بأقصى برك الغماد ، فلا يمنع من أخذه حقه إلا بُعد مكانه ، والله إنني لأرى أن الأمور لو استحالت حتى يصبح أهل الأرض يرون مثل رأيكم لنزلت بهم بائقة من عذاب الله (١) .

وهذا مثل من كمال عدله حيث تنزه عن محاباة عشيرته ، وفي إخباره عن نزوله عذاب الله تعالى تصوير لسنة من سنن الله جل وعلا ، وذلك أنه كلما تمحضت الأرض للشر كانت مهددة بنزول عذاب من عند الله تعالى ، ولكنه سبحانه يدرأ عنها العذاب استجابة لدعاء الصالحين ، ولذلك فإن المؤمن الحق يستأنس بكثرة الصالحين ، ويستوحش من كثرة الفاسقين والمفسدين في الأرض .

وذكر الحافظ أبو نعيم من خبر عمر بن مقدم قال : قال ابن سليمان بن عبد الملك لمزاحم : إن لي حاجة إلى أمير المؤمنين عمر ، قال فاستأذنت له فقال : أدخله ، فأدخلته على عمر فقال ابن سليمان : ياأمير المؤمنين علام ترد قطيعتي ؟ قال : معاذ الله أن أرد قطيعة صحت في الإسلام . قال فهذا كتابي وأخرج كتابا من كفه ، فقرأه عمر فقال :

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز / ٩٥ .

لمن كانت هذه الأرض ؟ قال للفاسق ابن الحجاج . قال عمر : فهو أولى بماله ، قال : فإنها من بيت مال المسلمين ، قال فالمسلمون أولى بها قال : يا أمير المؤمنين رد علي كتابي ، قال : لو لم تأتني به لم أسألكه ، فأما إذ جئتني به فلا ندعك تطلب بباطل ، قال : فبكى ابن سليمان ، قال مزاحم : فقلت : يا أمير المؤمنين ابن سليمان اللاتط الحب (١) اللازق بالقلب تصنع به هذا ؟ قال : ويحك يامزاحم إنها نفسي أحاول عنها ، وإني لأجد له من اللوط ما أجد لولدي (٢) .

وهكذا كان أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز في تجاذب نفسي بين مقام العدل بعدم تخصيص أفراد عشيرته بشيء دون أفراد الأمة وبين مقام الرحمة بمن يحبهم من أفراد عشيرته ممن يشعرون بأنهم قد تضرروا بحكمه ، ولكن ليس هناك مجال للموازنة بين الأمرين لوضوح وجوب العدل وعدم الالتفات إلى عاطفة النفس لأن عاقبة ترك الواجب خضوعا للعاطفة هي الهلاك في الآخرة ، ولا يمكن عقد مقارنة بين الدنيا والآخرة .

خبر روح بن الوليد وخصمائه :

قال أبو محمد ابن عبد الحكم : وكان للوليد بن عبد الملك ابن يقال له روح وكان نشأ في البادية فكأنه أعرابي ، فأتى ناس من المسلمين إلى عمر بن عبد العزيز يخاصمون روحاً في حوانيت بحمص - وكانت لهم أقطعه إياها أبوه الوليد بن عبد الملك - فقال له

(١) أي الشديد الحب من لاط يلو ط لوطا .

(٢) حلية الأولياء ٢٨١/٥ - ٢٨٢ ، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي/ ٩٨ .

عمر: اردد عليهم حوانيتهم. قال له رَوْحٌ: هذا معي بسجل الوليد. قال: وما يغني عنك سجل الوليد والحوانيت حوانيتهم قد قامت لهم البينة عليها؟ خَلَّ لهم حوانيتهم. فقام روح والحمصي منصرفين فتوعد روح الحمصي فرجع الحمصي إلى عمر فقال: هو والله متوعدني يأمر المؤمنين فقال عمر لكعب بن حامد-وهو على حرسه-: اخرج إلى روح ياكعب فإن سلم إليه حوانيته فذلك وإن لم يفعل فائتني برأسه. فخرج بعض من سمع ذلك ممن يعنيه أمر روح بن الوليد، فذكر له الذي أمر عمر فخلع فؤاده، وخرج إليه كعب وقد سلَّ من السيف شبراً فقال له: قم فخلَّ له حوانيته قال: نعم نعم فخلَّ له حوانيته (١).

إنصافه الرجل الحمصي من العباس بن الوليد :

ذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز قال : لما دفن عمر سليمان صعد إلى المنبر فقال « إني قد خلعت مافي أعناقكم من بيعتي فاختراروا لأنفسكم ، فصاح الناس صيحة واحدة : قد اخترناك » فنزل فدخل فأمر بالسُّور فهتكت ، والياب التي كانت تبسط للخلفاء فحملت وأمر ببيعها وإدخالها - أو قال إدخال ثمنها - بيت المال ، ثم ذهب يتبواً مقيلاً ، فقال ابنه عبد الملك ثقيل ولا ترد المظالم ؟ قال أي بني قد سهرت البارحة في أمر عمك سليمان ، فإذا صليت الظهر رددت المظالم ، قال من لك أن تعيش إلى الظهر ؟ فخرج ولم يَقُلْ ، فأمر مناديه أن ينادي : ألا من كانت له مظلمة فليرفعها ، فقام إليه رجل ذمي من أهل حمص أبيض

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز / ٦٠ - ٦١ .

الرأس واللحية ، فقال يأمر المؤمنين أسألك كتاب الله ، قال وماذا؟
قال : العباس بن الوليد بن عبد الملك اغتصبني أرضي-والعباس
جالس- فقال له : يا عباس ماتقول ؟ قال أقطعنيها أمير المؤمنين الوليد بن
عبد الملك وكتب لي بها سجلا ، فقال ماتقول يا ذمي ؟ قال يأمر
المؤمنين أسألك كتاب الله عز وجل ، فقال عمر كتاب أحق أن يتبع
من كتاب الوليد بن عبد الملك ، اردد عليه يا عباس ضيعته ، فرد عليه ،
فجعل لا يدع شيئا مما كان في يده وفي يد أهل بيته من المظالم إلا ردها
مظلمة مظلمة (١) .

فهذان مثلان من صرامة عمر بن عبد العزيز وحزمه في تطبيق
الأحكام الشرعية ، فهو لين رحيم فيما يتعلق بنفسه ولكنه قوي شديد
فيما يتعلق بأحكام الله تعالى .

وفي هذين الخبرين مثل من انقلاب المفاهيم عند أهل الدنيا ،
فالحق عند هذين الرجلين المعتدين هو ماقرره أبوهما الوليد وإن كان
ظالما معتديا من غير نظر فيما ينجيها من المسؤولية أمام الله تعالى يوم
القيامة ، وما أعظم خسارة هؤلاء الذين يعتدون على أموال الناس
ولا يردعهم من ذلك إلا قوة السلطان !! فإنهم قد خسروا دنياهم
لانتراعها منهم بالقوة وخسروا آخرتهم لأنهم ليس لهم نية في إنصاف
المظلومين ورد حقوقهم إليهم .

نزع إقطاع أحد الرجال :

أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر إبراهيم بن هشام بن

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز / ٨٦ .

يحيى الغساني : حدثني أبي عن جدي قال : كنت عند هشام بن عبد الملك جالسا ، فأتاه رجل فقال ياأمير المؤمنين إن عبد الملك أقطع جدي قطيعة فأقرأها الوليد وسليمان حتى إذا استخلف عمر رحمه الله نزعها ، فقال له هشام أعد مقاتلك فقال : ياأمير المؤمنين إن عبد الملك أقطع جدي قطيعة فأقرأها الوليد وسليمان ، حتى إذا استخلف عمر رحمه الله نزعها ، فقال والله إن فيك لعجبا ، إنك تذكر من أقطع جدك قطيعة ومن أقرأها فلا تترحم عليهم وتذكر من نزعها فسترحم عليه ، وإنا قد أمضينا ما صنع عمر رحمه الله (١) .

في هذا الخبر موقفان أحدهما لأمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى حيث رد ذلك الإقطاع الذي أعطيه ذلك الرجل بغير حق إلى بيت مال المسلمين .

والثاني موقف لأمير المؤمنين هشام بن عبد الملك رحمه الله تعالى ، حيث حكم بالحق ولم تأخذه العصبية لأبيه عبد الملك وأخويه الوليد وسليمان فأقرحكم عمر بن عبد العزيز ، وقد تعجب من ذلك الرجل المتظلم حيث ترحم على عمر بن عبد العزيز الذي نزع منه القطيعة ولم يترحم على عبد الملك الذي أقطع جده تلك القطيعة ولا على الوليد وسليمان اللذين أقرأها ، وهذا يعني أن هناك إحساسا لدى أفراد الأمة بعدالة عمر بن عبد العزيز وصلاحه حتى بالنسبة لمن تضرروا منه في دنياهم .

(١) حلية الأولياء ٢٤٥/٥ .

مثل من حكمته وموقف لابنه عبد الملك :

أخرج الحافظ أبو نعيم من خبر جويرية بن أسماء . قال : قال عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز لأبيه عمر : ما يمنعك أن تنفذ لرأيك في هذا الأمر ؟ فو الله ما كنت أبالي أن تغلى بي وبك القدور في إنفاذ هذا الأمر ، فقال عمر : إني أروض الناس رياضة الصعب ، فإن أبقاني الله مضيت لرأيي ، وإن عجلت علي منية فقد علم الله نيتي ، إني أخاف إن بادht الناس بالتي تقول أن يلجئوني إلى السيف ، ولا خير في خير لا يجيء إلا بالسيف (١) .

وأخرج الحافظ أبو نعيم من طريقين : أن عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز دخل على عمر فقال : يا أمير المؤمنين إن لي إليك حاجة فأخطني - وعنده مسلمة بن عبد الملك - فقال له عمر : أسر دون عمك ؟ فقال نعم ، فقام مسلمة وخرج ، وجلس بين يديه فقال له : يا أمير المؤمنين ما أنت قائل لربك غدا إذا سألك فقال رأيت بدعة فلم تمتها ، أو سنة لم تحيها ؟ فقال : له يا بني أشيء حملتكه الرعية إلي ، أم رأي رأيته من قبل نفسك ؟ قال : لا والله ولكن رأي رأيته من قبل نفسي ، وعرفت أنك مستول فمأنت قائل ؟ فقال له أبوه : رحمك الله وجزاك من ولد خيرا ، فو الله إني لأرجو أن تكون من الأعوان على الخير يا بني إن قومك قد شدوا هذا الأمر عقدة وعروة عروة ، ومتى ما أريد مكابرتهم على انتزاع ما في أيديهم لم آمن أن يفتقوا علي فتقا تكثر فيه الدماء والله لزوال الدنيا أهون على من أن

(١) حلية الأولياء ٢٨١/٥ .

يهراق في سببي محجمة من دم، أو ما ترضى أن لا يأتي على أبيك يوم من أيام الدنيا إلا وهو يميت فيه بدعة ويحيى فيه سنة، حتى يحكم الله بيننا وبين قومنا بالحق وهو خير الحاكمين (١).

وهكذا كان أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز حكيما يوازن بين المصالح والمفاسد ، فلا يتجه إلى تغيير منكر يترتب عليه منكر أكبر منه ، لأن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح ، فبقاء الناس على ما هم فيه من بعض الظلم أولى من سفك دماء المسلمين إذا كان رد المظالم بسرعة سيترتب عليه ذلك ، ولكن الحكمة تقتضي التمهّل في ذلك وسياسة الناس بالتدرج حتى ترجع الحقوق إلى أصحابها ويرتدع الظالمون دون حدوث فتنة دموية .

ولقد كان ابنه عبد الملك شديد التحمس لرد المظالم دفعة واحدة فهو شاب قوي الإيمان ، لكنه لم يكن في مستوى أبيه من الحكمة والفقه في تطبيق الأحكام الشرعية .

حواره مع هشام بن عبد الملك وسعيد بن خالد :

أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر بشر بن عبد الله بن عمر عن بعض آل عمر أن هشام بن عبد الملك قال لعمر بن عبد العزيز : يا أمير المؤمنين إني رسول قومك إليك، وإن في أنفسهم ما أكلمك به ، إنهم يقولون استأنف العمل برأيك فيما تحت يديك، وخل بين من سبقك وبين ماولوا ثمن كانوا يلون أمره بما عليهم ولهم فقال له عمر : أرايت لو أُنيتُ بسجلين أحدهما من معاوية والآخر

(١) حلية الأولياء ٥ / ٢٨١ - ٢٨٣ .

من عبد الملك بأمر واحد فبأي السجلين كنت آخذ؟ قال بالأقدم ولا أعدل به شيئاً ، قال عمر : فإنني وجدت كتاب الله الأقدم فأنا حامل عليه من أتانني ممن تحت يدي في مالي وفيما سبقتني .

فقال له سعيد بن خالد بن عمرو بن عثمان : يا أمير المؤمنين امض لرأيك فيما وليت بالحق والعدل، وخل عمن سبقك وعما ولي خيره وشره، فإنك مكتف بذلك . فقال له عمر : أنشدك الله الذي إليه تعود أرأيت لو أن رجلاً هلك وترك بنين صغاراً وكباراً فعز الأكارب الأصاغر بقوتهم فأكلوا أموالهم ، فأدرك الأصاغر فجاءوك بهم وبما صنعوا في أموالهم ماكنت صانعاً ؟ قال : كنت أرد عليهم حقوقهم حتى يستوفوها . قال : فإنني قد وجدت كثيراً ممن قبلي من الولاة عزوا الناس بقوتهم وسلطانهم . وعزهم بها أتباعهم . فلما وليت أتوني بذلك ، فلم يسعني إلا الرد على الضعيف من القوي، وعلى المستضعف من الشريف . فقال : وفقك الله يا أمير المؤمنين (١) .

فهذان جوابان جليلان من أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز استطاع بهما أن يسكت هشام بن عبد الملك وسعيد بن خالد بن عمرو بن عثمان اللذين حاوراه فيما قام به من رد المظالم، فقد سكبت هشام ووافق سعيد بن خالد ودعا لعمر بن عبد العزيز، وهذا دليل على أن أولئك القوم الذين ورثوا الظلم يدركون أن ما تقدم به الولاة السابقون كان ظلماً، ويريدون من عمر بن عبد العزيز أن يترك الناس على مظالمهم فإنه ليس مسئولاً عن ظلم من سبقه وأن يهتم فقط بتنزيه نفسه

(١) حلية الأولياء ٢٨٢/٥ .

عن مباشرة الظلم ، ولكنه أفهمهم بأنه لو أقر ظلم من سبقوه يكون شريكا لهم في ظلمهم .
خطبته أمام الغرباء :

من مواقفه في العدل قوله في خطبة خاطب بها الغرباء فقال :
ياأيها الناس الحقوا ببلادكم فإنني أنساكم عندي وأذكركم ببلادكم ،
وإني قد استعملت عليكم رجالا لا أقول هم خياركم ، ولكنهم خير
ممن هم شر منهم ، ألا فمن ظلمه إمامه مظلمة فلا إذن له عليّ ،
ومن لا فلا أريته ، ألا وإني منعت نفسي وأهل بيتي هذا المال ، فإن
ضننت به عنكم إني إذا لضمنين ، والله لولا أن أنعش سنة أو أسير
بحق ما أحببت أن أعيش فيكم فواقا (١) .

وقول عمر بن عبد العزيز للغرباء : « فإنني أنساكم عندي
وأذكركم ببلادكم » دليل على ضبطه لأمر رعيته ، وذلك بتولية
الولاة الأكفاء الذين يتفقدون أحوال الرعية ويرفعون حوائجهم لأمر
المؤمنين مع متابعتهم لهم .

وقد بقي الغرباء في عاصمة الدولة ظلًا منهم أن الولاة سينسونهم
كما نسيهم الولاة السابقون ، وقد بين لهم عمر أنه لم يأل جهدا في
اختيار الولاة الأكفاء الذين على يدهم يتم صلاح الرعية .

ثم ذكر أن بابه مفتوح لسماع شكوى المظلومين الذين لم يستطع
الولاة أن يرفعوا عنهم الظلم، أو وقع الظلم عليهم من الولاة أنفسهم .

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٤٢ ، والفواق قدر حلب الناقة ، وانظر
سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ٤٤ ، ٥٨ ، وتاريخ دمشق ٤٥ / ٢٠٠ .

أما من ليس له مظلمة وليس لديه مشورة أو إصلاح يهمل الأمة فليس من المصلحة أن يتردد على المسئول ، لأن في ذلك إضاعة وقت عليه وعلى المسئول ، وذلك يترتب عليه إضاعة مصلحة المسلمين العامة ، إضافة إلى أن المسلم مسئول عن كل دقيقة تمر عليه بغير فائدة، ومن ذلك مراجعة المراجعين في قضايا يعلمون سلفاً أنهم لن يحصلوا فيها على شيء فإن ذلك لافائدة فيه بل فيه ضرر إضاعة الوقت عليهم وعلى المسئولين .

ثم يتحدث عن المال الذي هو عصب الحياة، والذي من أجله يقتتل المتنافسون على الدنيا ، فيطمئن الرعية إلى أنه ليس من المعقول أن يحرم منه نفسه وعشيرته ثم يحبسها عن الأمة .

إن الذي كان يحرم بعض الأمة من مال الدولة قبل عهد عمر كون المسئولين على مختلف مستوياتهم ومن حولهم من المستفيدين منهم قد تمتعوا بنصيب كبير من ذلك المال إلى حد الإسراف والتبذير، فحينما جعل أمير المؤمنين عمر نفسه وعشيرته كأي فرد من أفراد الرعية فإن بقية المسئولين سيسيروا على سنته ، وبالتالي سيتوفر مال كثير يعود على المحتاجين من الأمة ، وقد حصل ذلك فعلاً حيث كان الأغنياء يدورون بصدقاتهم في عهد عمر يبحثون عن الفقراء فلا يجدونهم، قد أغنى عمر الناس ، كما جاءت الرواية بذلك .

ثم بين أنه ليس حريصاً على البقاء في الحكم إلا لهدفين: إحياء السنن بعدما أُميتت ، والحكم بالحق بعدما عم الباطل كثيراً من أرجاء الأرض ، وهكذا يفهم عمر الولاية على أنها عمل صالح يتقرب به

إلى الله عز وجل ، ومن فهم هذا الفهم فإنه بعيد منه أن يظلم أو أن ينحرف عن طريق الحق ، لأنه لو فعل ذلك لحصل له نقيض قصده ، حيث سيكسب بالولاية أعمالا سيئة ، فيخسر في الوقت الذي يكون هدفه أن يربح ويفلح .

رده منحة عنبسة بن سعيد :

من مواقفه الجريئة رحمه الله عدله في توزيع مال المسلمين ورفضه تخصيص أفراد عشيرته بشيء من ذلك ، ومن أخبار ذلك ما ذكره ابن عبد الحكم في أخباره عن شيوخه قال : ولما ولي عمر بن عبد العزيز رد المظالم والقطائع ، وكان سليمان بن عبد الملك قد أمر لعنبسة بن سعيد بن العاص بعشرين ألف دينار فدارت في الدواوين حتى انتهت إلى ديوان الختم فلم يبق إلا قبضها فتوفي سليمان قبل أن يقبضها وكان عنبسة صديقا لعمر بن عبد العزيز ، فغدا عنبسة يريد كلام عمر فيما أمر له به سليمان ، فوجد بني أمية حضورا بباب عمر يريدون الإذن عليه ليكلموه في أمورهم ، فلما رأوا عنبسة قالوا : ننظر ما يصنع به قبل أن نكلمه . فقالوا له : أعلم أمير المؤمنين مكاننا ، وأعلمنا ما يصنع بك في أمورك ، فدخل عنبسة على عمر فقال له : يا أمير المؤمنين إن أمير المؤمنين سليمان قد كان أمر لي بعشرين ألف دينار حتى انتهت إلى ديوان الختم ، ولم يبق إلا قبضها ، فتوفي على ذلك ، وأمير المؤمنين أولى باستتمام الصنيعة عندي ، وما بيني وبينه أعظم مما كان بيني وبين أمير المؤمنين سليمان ، قال له عمر : كم ذلك ؟ قال : عشرون ألف دينار ، قال عمر : عشرون ألف دينار تُغني أربعة آلاف بيت من المسلمين ، وأدفعها إلى رجل واحد ! والله مالي إلى ذلك

من سبيل ، قال : فرميت بالكتاب الذي فيه الصك ، فقال لي عمر : لا عليك أن يكون معك فلعله أن يأتيك من هو أجراً على هذا المال مني فيأمر لك بها .

قال : عنيسة : فأخذته تبركا برأيه ، وقلت له : ياأمير المؤمنين فما بال جبل الورس ؟ وكان جبل الورس قطيعة لعمر بن عبد العزيز ، فقال عمر : ذكرتني الطعن وكنت ناسيا ، ياغلام هلم ذلك القفص فأتي بقفص من جريد فيه قطائع بني عبد العزيز فقال : ياغلام اقرأ علي ، فكلما قرأ قطيعة قال : شقّها ، حتى لم يبق في القفص شيء إلا شقه ، قال عنيسة : فخرجت إلى بني أمية وهم وقوف بالباب فأعلمتهم ماكان من ذلك فقالوا : ليس بعد هذا شيء ، ارجع إليه فاسأله أن يأذن لنا أن نلحق بالبلدان ، فرجعت إليه فقلت : ياأمير المؤمنين إن قومك بالباب يسألونك أن تجري عليهم ماكان من قبلك يُجرى عليهم ، فقال عمر : والله ماهذا المال لي ومالي إلى ذلك من سبيل ، قلت : يا أمير المؤمنين : فيسألونك أن تأذن لهم يضربون في البلدان ، قال : ماشاؤوا ذلك لهم ، وقد أذنت لهم ، قال قلت : وأنا أيضاً ، قال : وأنت أيضاً قد أذنت لك ، ولكن أرى لك أن تقيم فإنك رجل كثير النقد وأنا أبيع تركة سليمان فلعلك أن تشتري منها ما يكون لك في ربحه عوض مما فاتك ، قال : فأقمت تبركا برأيه فابتعت من تركة سليمان بمائة ألف فخرجت بها إلى العراق فبعتها بمِئتي ألف ، وحسبت الصك فلما توفي عمر وولي يزيد ابن عبد الملك أتيته بكتاب سليمان فأنفذ لي ماكان فيه (١) .

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٥٨ .

في هذا الخبر بيان جرأة الولاة قبل عمر بن عبد العزيز وبعده على أموال المسلمين، فكان الولاة يختصون عشائهم وكبار أهل الدنيا الذين يخشون منهم بكثير من هذا المال ، ومن ذلك ما أمر به سليمان لعنبة بن سعيد ولكن عمر رد تلك المنحة وبين أنها تكفي لأربعة آلاف بيت من المسلمين ، فكيف يعطيها لرجل واحد ؟

إن إعطاء القلة من ذوي النفوذ تلك العطايا الكبيرة على حساب بقاء أفراد الأمة في حاجة ومسغبة يعتبر ظلما وإجحافا كبيرا ، وهذا هو أهم الأمور التي نذر عمر نفسه للقضاء عليها .

لقد كان يدور في الأوساط السياسية آنذاك بأنه لا يصلح لسياسة الأمة إلا من كان نهابا وهابا ، حيث يقوم بنهب أموال الأمة العامة ليستميل بها بعض الأكابر الذين يقومون بحماية الدولة وفرض سيطرتها ولكن عمر بن عبد العزيز نجح في سياسته الإسلامية نجاحا كبيرا ، وقد كان عفيفا وهابا ، كان عفيفا عن أموال الأمة العامة، وهابا للمال للمحتاجين من الأمة ومن يقومون بأمرها بالقصد والاعتدال، ومع أنه قد منع الأقوياء وأصحاب النفوذ من الخصوصيات التي كانت تمنح لهم فإنهم لم يستطيعوا أن يصنعوا شيئا ضد دولته مع حرصهم على ذلك ، لأن دولته أصبحت محمية من جميع أفراد الأمة الذين رجعت لهم حقوقهم ، وتحسنت أحوالهم المعيشية .

وحينما ذكره عنبة بن سعيد بجبل الورد وهو أحد الإقطاعات التي آلت إليه من ولاة العهد السابق تمثل بالمثل المشهور : « ذكرّرتني الطعن وكنت ناسيا » فدعا من فوره بأوراق الإقطاعات التي تخص بني عبد العزيز بن مروان فشقها جميعها .

وهو بهذا يبين للمستفيدين من الوضع السابق أنه أول من يطبق السياسة الإسلامية على نفسه وأسرته .

ولهذا يثس بنو قومه من عودتهم إلى ماكانوا عليه من خصوصيات مالية ، واستأذنوه في السفر ليعملوا في التجارة كما يعمل غيرهم من أبناء الأمة .

إنصافه أحد الرعية من عامله عروة :

قال أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم : واستعمل عمر بن عبد العزيز عروة بن عياض بن عدي على مكة ، فخرج عمر من مكة ، وخرج معه من خرج يشيعه حتى نزل بمر^(١) ومعه عروة ، فجاء رجل فقال : أصلح الله أمير المؤمنين ، ظلمت ولا أستطيع أن أتكلم ، فقال عمر : ويحه أخذت عليه يمين ثم قال : إن كنت صادقاً فتكلم فقال : أصلحك الله ، هذا - وأشار إلى عروة - سامني بمال لي وأعطاني به ستة آلاف درهم ، فأبيت أن أبيعته فاستعداه علي غريم لي فحبسني فلم يخرجني حتى بعته مالي بثلاثة آلاف درهم ، واستحلقتني بالطلاق إن خاصمته أبداً ، فنظر عمر إلى عروة ثم نكت بالخيزران بين عينيه في سجدته وقال هذه غرتني منك ثم قال للرجل : اذهب فقد رددت عليك مالك ولاحت عليك^(٢) .

وهكذا ابتلى أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ببعض الولاة الذين انخدع بمظهرهم الديني ، فكانت سرائرهم تختلف عن علانيتهم ، فهذا

(١) يعني مرَّ الظهران وهو مكان قرب مكة .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز / ١٣٤ .

الوالي الذي ولاه عمر على مكة كان يظن أنه من العابدين ، ومن كانوا كذلك فلا يتوقع منهم أن يرتكبوا شيئا من ظلم العباد ، ولكنه وقع في الظلم المذكور في الخبر وأحاط ظلمه بما يكفل له عدم وصول خبره إلى أمير المؤمنين ، ولكن ذلك المظلوم وصل إليه وقدم له شكواه فأنصفه ، ولم يكن أمير المؤمنين بحاجة إلي استفتاء العلماء في موضوع الطلاق المذكور لأنه كان من أبرز علماء عصره ، فلذلك أفتاه في الحال بعدم وقوع الطلاق عليه لأنه مكره ، ولا يقع الطلاق مع الإكراه .

إنصافه أهل سمرقند :

أخرج الإمام ابن جرير الطبري من خبر طفيل بن مرداس قال : كتب عمر إلى سليمان بن أبي السري : أن اعمل خانات في بلادك فمن مريبك من المسلمين فاقروهم يوما وليلة ، وتعهدوا دوابهم ، فمن كانت به علة فاقروهم يومين وليلتين ، فإن كان منقطعا به فقروه بما يصل به إلى بلده .

فلما أتاه كتاب عمر قال أهل سمرقند لسليمان : إن قتيبة غدر بنا وظلمنا وأخذ بلادنا ، وقد أظهر الله العدل والإنصاف فأذن لنا فليفد منا وفد إلى أمير المؤمنين يشكون ظلامتنا ، فإن كان لنا حق أعطيناه ، فإن بنا إلى ذلك حاجة ، فأذن لهم ، فوجهوا منهم قوما فقدموا على عمر ، فكتب لهم عمر إلى سليمان بن السري : إن أهل سمرقند قد شكوا إلي ظلما أصابهم ، وتحاملا من قتيبة عليهم حتى أخرجهم من أرضهم ، فإذا أتاك كتابي فأجلس لهم القاضي فلينظر في أمرهم ، فإن

قضى لهم فأخرجهم^(١) إلى معسكرهم كما كانوا وكنتم قبل أن ظهر عليهم قتيبة .

قال : فأجلس لهم سليمان جُمَيْعَ بن حاصر القاضي الناجي ، فقضى أن يخرج عرب سمرقند إلى معسكرهم وينابذوهم على سواء ، فيكون صلحا جديدا أو ظفراً عنوة ، فقال أهل السُّغْد^(٢) : بل نرضى بما كان ولا نجد حربا ، وتراضوا بذلك ، فقال أهل الرأي : قد خالطنا هؤلاء القوم وأقمنا معهم ، وأمنونا وأمنّاهم ، فإن حكم لنا عدنا إلى الحرب ولاندرى لمن يكون الظفر ، وإن لم يكن لنا كنا اجتلبنا عداوة في المنازعة ، فتركوا الأمر على ماكان ورضوا ولم ينارعوا^(٣) .

فهذا مثل من عدل عمر بن عبد العزيز واهتمامه بأمور الأمة ، وإننا لنلاحظ في هذا الخبر عدة أمور :

أولها : أن الناس يُقبلون على التظلم والشكوى والمطالبة بالحقوق حينما يكون الحكام عادلين ، لأنهم يعلمون أن دعواهم ستؤخذ مأخذ الجِدِّ وسيُنظر فيها بعدل ، فهؤلاء المتظلمون قد سكتوا على ما هم فيه من الشعور بالظلم طيلة ولاية الوليد وسليمان ، فلما رأوا عدل عمر ابن عبد العزيز رفعوا قضيتهم .

ثانيها : أن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز لم يهمل قضيتهم وإنما أحالها إلى القضاء الشرعي ، وهذا مثل من الخضوع للإسلام

(١) يعني المسلمين الغزاة .

(٢) السغد قوم يسكنون بعض بلاد ما وراء النهر .

(٣) تاريخ الطبري ٦/ ٥٦٧ - ٥٦٨ .

والتجرد من هوى النفس ، وكان باستطاعته أن يعمل كما يعمل كثير من المسؤولين ، من إرسال خطابات الوعيد والتهديد ، والبحث عن رؤوس القوم وإجراء العقوبات المناسبة عليهم ، ولكنه قد نذر نفسه لرفع المظالم وإقرار العدالة ، وذلك لا يكون إلا بحكم الشرع والتحاكم إليه .

ثالثها : أن أولئك القوم قد أسقط في أيديهم لما اطلعوا على كتاب أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ورأى أهل الرأي منهم أنهم خاسرون في كلا الحالين ، سواء حكم لهم أو عليهم ، وأن مصلحتهم في بقائهم على ما هم عليه ، وبهذا زال تظلمهم وشعروا بعدالة الحكم الإسلامي .

كتابه إلى عمر بن الوليد :

قال أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم رحمه الله تعالى : وقال سليمان بن داود الخولاني : إن عمر بن عبد العزيز كان يقول : ياليتني قد عملت فيكم بكتاب الله ، وعملت به ، فكلما عملت فيكم بسنة وقع مني عضو ، حتى يكون آخر شيء منها خروج نفسي .

ولما أقبل عمر على ردّ المظالم وقطع عن بني أمية جوائزهم وأرزاق أحراسهم ، ورد ضياعهم إلى الخراج ، وأبطل قطائعهم فأفقرهم ضجّوا من ذلك فاجتمعوا إليه فقالوا : إنك قد أخليت بيت مال المسلمين ، وأفقرت بني أبيك فيما تردّ من هذه المظالم ، وهذا أمرٌ قد وليه غيرك قبلك ، فدعهم وما كان منهم ، واشتغل أنت وشأنك واعمل بما رأيت . قال لهم : هذا رأيكم ؟ قالوا : نعم . قال : ولكن لا أرى ذلك ، والله لو ددت أن لا تبقى في الأرض مظلمة إلا رددتها ،

على أن لا أرد مظلمة إلا سقط لها عضوٌ من أعضائي أجد ألمه ، ثم يعود كما كان حيًا ، فإذا لم يبق مظلمة إلا رددتها سألت نفسي عندها . قال : فخرجوا من عنده فدخلوا على بعض ولد الوليد - وكان كبيرهم وشيخهم (١) - فسألوه أن يكتب إلى عمر يوبّخه لعله أن يردّه عن مساءتهم فكتب إليه .

أما بعد فإنك أزرّيت بمن كان قبلك من الخلفاء ، وسرت بغير سيرتهم وسميتها المظالم تنقصاً لهم ، وعيباً لأعمالهم ، وشنائاً لمن كان بعدهم من أولادهم . ولم يكن ذلك لك ، فقطعت ما أمر الله به أن يوصل ، وعملت بغير الحق في قرابتك ، وعمدت إلى أموال قريش ومواريتهم وحقوقهم ، فأدخلتها بيت مالك ظلماً وجوراً وعدواناً فاتق الله يا بن عبد العزيز وراقبه فإنك قد شططت ، لم تطمئن على منبرك ، حتى خصصت ذوي قرابتك بالقطيعة والظلم ، فو الله الذي خصّ محمداً ﷺ بما خصه به من الكرامة ، لقد ازدادت من الله بعداً في ولايتك هذه التي تزعم أنها بلاءٌ عليك وهي كذلك . فاقصد في بعض ميلك وتحاملك . اللهم فاسأل سليمان بن عبد الملك عما صنع بأمة محمد ﷺ حين استخلفك عليهم .

قال فكتب عمر بن عبد العزيز إليه ، من عمر أمير المؤمنين إلى فلان بن الوليد . سلامٌ على من اتبع الهدى ، أما بعد فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، وأما بعد فإن أول أمرك يا فلان أن أمك بنانة أمة السكوني كانت تدخل دور حمص وتطوف حوانيتها والله

(١) هو عمر بن الوليد بن عبد الملك كما جاء في رواية ابن الجوري .

أعلم بها فاشتراها دينار بن دينار من فيء المسلمين فأهداها إلى أبيك فحملت بك فبئس المحمول وبئس الجنين ثم نشأت فكنت جباراً شقياً كتبت إليَّ تُظلمني وزعمت أن حُرمتك وأهل بيتك في مال المسلمين الذي فيه حق القرابة والضعيف والمسكين وابن السبيل ، وإنما أنت كأحد منهم لك مالهم وعليك ماعليهم ، وإن أظلم مني وأترك لعهد الله الذي استعملك صبيّاً سفيهاً تحكم في دماء المسلمين وأموالهم برأيك لم تحضره نية ، ولم يكن يحمله عليه إلا حب الولد ولم يكن ذلك له ، ولا حق له فيه ، فويلك وويل أبيك ماأكثر طلابكما وخصماءكما يوم القيامة ! وكيف النجاة لمن كثر خصماؤه ؟ وإنَّ أظلم مني وأترك لعهد الله من جعل لفلانة البربرية سهماً في فيء المسلمين وصدقاتهم . أهاجرت ثكلتك أمك أم بايعت بيعة الرضوان فتستوجب سهام المقاتلين ؟ وإنَّ أظلم مني وأترك لعهد الله من استعمل قرّة بن شريك أعرابياً جلفاً جافياً على مصر ، وأذن له في المعازف والبرابط والخمر ، وإنَّ أظلم مني وأترك لعهد الله من وليَّ يزيد بن أبي مسلم على جميع المغرب يجبي المال الحرام ويسفك الدم الحرام . رويدك فإنه لو قد التقت علينا حلقتا البطان ، وطالت بي حياةٌ ، وردَّ الله الحق إلى أهله تفرغت لك ولأهل بيتك ، فأقمتمكم على المحجة البيضاء فطال ماأخذتم بُنيّات الطريق ، وتركتم الحق وراءكم ، ومما وراء هذا ماأرجو أن يكون خير رأي أبنته بيع رقبتك فإن لكل مسلم فيك سهماً في كتاب الله ، والسلام على من اتبع الهدى ، ولا ينال سلام الله الظالمين (١) .

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ١٤٧ - ١٥١ ، وانظر سيرة عمر بن عبدالعزيز لابن الجوزي / ٩٣ .

في هذا الخبر مثل من قوة أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز في تنفيذ الحق، وأنه لا يخشى في الله لومة لائم .

وفيه مقارنة واضحة بين أعماله التي أنجزها في العدل وإنصاف عامة المسلمين من كبرائهم ، وبين أعمال بعض من سبقه من الولاة في ظلم العامة ومداهنة الكبراء .

وفيه مثل من تدنّى مستوى الفهم وعمى البصيرة عند من استمرّ الجبروت والطغيان ، حيث قلب ابن الوليد الحقائق، فجعل العدل ظلماً واعتبر الظلم عدلاً ، لأن العدل في نظره أن يأخذ هو وأمثاله حريتهم الكاملة في التصرف بأموال العامة ، واعتبر تطبيق العدالة عليهم نوعاً من قطيعة الرحم ، ولو أدرك وعقل لعرف أن أعظم صلة الرحم أن يمنع الإنسان أقاربه من المعاصي ، وأن يدلهم على طاعة الله تعالى .

وهذا الخلط في المفاهيم والموازين ناتج من غلبة النظر إلى الدنيا على النظر إلى الآخرة ، وحينما تكون الآخرة حاكمة على الدنيا يصفو الفكر ويستقيم السلوك .

ولقد كان أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز شديداً في رده على هذا الرجل لأنه في نظر عمر قد بلغ من الجفاء والتجبر حداً لا يجدي معه خطاب العقل ونداء الحس الإيماني .

جوابه لعنسة حينما سأله :

قال أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم : قال عمر بن عبدالعزيز لعنسة بن سعيد - وسأله حاجة - يا عنسة إن كان مالك الذي أصبح

عندك حلالا فهو كافيك ، وإن كان حراماً فلا تزيدنَّ إليه حراماً ، ألا تخبرني أحتاج أنت ؟ قال : لا ، قال : أفعليك دين ؟ قال : لا ، قال : أتأمرني أن أعتمدَ إلى مال الله فأعطيكهُ من غير حاجة بك إليه وأدعَ فقراء المسلمين ؟ لو كنت غارماً أديت غُرمك ، أو محتاجاً أمرت لك بما يصلحك ، فعليك بمالك الذي عندك فكلهُ وأتقَ الله ، وانظر أولاً من أين جمعته ، وانظر لنفسك قبل أن ينظر إليك من ليس لك عنده هَواةٌ ولامراجعة (١) .

في هذا الحوار الذي جرى بين أمير المؤمنين عمر بن العزيز وعنبسة بن سعيد يتبين لنا دقة عمر في التحري في اكتساب المال ، بحيث لا يكون من طريق حرام أو مشتبهِ فيه .

كما يظهر لنا مثل من عدالته في توزيع المال العام ، حيث بين أن عنبسة ليس بأحق بهذا المال من فقراء المسلمين .

وهذا مثل من أمثلة كثيرة وضح فيها عمر حرمة مال المسلمين العام ، وأن الأخذ منه بغير حق كالأخذ من أموال الناس الخاصة ، وقد كان كثير من الناس يعتقدون بأن ولاية الأمر لهم حرية التصرف بأموال المسلمين كما يؤدي إليه نظرهم ، وأن ذلك المال يصير حلالاً لمن أعطي له بمجرد صرفه من ولي الأمر ، فبين لهم عمر بأقوال وأفعال كثيرة أن هذا المال لا يجوز صرفه إلا لمستحقه ، وأنه إذا صُرف في غير وجهه فإنه يجب على من صُرف له أن يردّه لبيت مال المسلمين .

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ١٥٤ - ١٥٥ .

مثالان من حكمته وحزمه :

لما ولي الخلافة قال له ابنه عبد الملك : إني لأراك يابئاه قد أخرت أموراً كثيرة كنت أحسبك لو وليت ساعة من النهار عجلتها ، ولوددت أنك قد فعلت ذلك ولو فارت بي وبك القدور ، قال له عمر : أي بني إنك على حُسْنِ قَسْمِ الله لك ، وفيك بعض رأي أهل الحداثة ، والله ما استطيع أن أخرج لهم شيئاً من الدين إلا ومعه طرف من الدنيا ، أستلين به قلوبهم ، خوفاً أن ينخرق عليّ منهم مالا طاقة لي به (١) .

وهكذا لم يأخذ عمر برأي ابنه عبد الملك الذي لا يزال حديث السن لا يقدر عواقب الأمور ، بالرغم من كون رأيه حق ، ولكن ليس كل حق ينفذ حال معرفة أنه حق من غير نظر في عواقب التغيير ، فربما أدى ذلك في بعض الصور إلى منكر أكبر من المنكر الذي يروم إزالته المصلحون ، ولكن يبقى في ذهن المصلح وفي عزمه إزالة جميع المنكرات ، وإنما يسلك في سبيل ذلك طريق الحكمة ، ولذلك كان عمر يستلين قلوب أهل الدنيا بشيء من المال ليتوصل بذلك إلى ما يريده من الإصلاح حتى لا ينخرق عليه من أمورهم ما لا يستطيع مقاومته إلا بالقوة ، وهو لا يريد إراقة الدماء ، لأن شأن الأموال أهون بكثير من شأن الدماء .

ولكن حينما يكون لا بد من القوة فإن من الحزم استعمالها ، ومن

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٦٠ ، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز

لابن الجوزي / ٤٣ ، ٨٧ .

أمثلة ذلك ما ذكره ابن عبد الحكم قال: وكان للوليد بن عبد الملك ابن يقال له « رَوْح » وكان نشأ في البادية فكأنه أعرابي ، فأتى ناس من المسلمين إلى عمر بن عبد العزيز يخاصمون رَوْحًا في حوانيت بحمص وكانت لهم أقطعهُ إياها أبوه الوليد بن عبد الملك ، فقال له عمر : اردد عليهم حوانيتهم ، قال له روح : هذا معي بسجل الوليد ، قال : وما يغني عنك سجل الوليد والحوانيت حوانيتهم قد قامت لهم البيئة عليها ؟ خَلَّ لهم حوانيتهم ، فقام روح والحمصي منصرفين ، فتوعد روح الحمصي ، فرجع الحمصي إلى عمر فقال : هو والله متوعدني يأمر المؤمنين ، فقال عمر لكعب بن حامد - وهو على حرسه - : اخرج إلى روح ياكعب فإن سلَّم إليه حوانيته فذلك ، وإن لم يفعل فأت برأسه ، فخرج بعض من سمع ذلك ممن يعنيه أمر روح بن الوليد فذكر له الذي أمر عمر فخلع فؤاده ، وخرج إليه كعب وقد سل من السيف شبراً فقال له : قم فخلَّ له حوانيته ، قال نعم نعم ، فخلَّ له حوانيته (١) .

وهكذا ظهر حزم عمر حينما استهان روح بن الوليد بحكم الشرع وأمر السلطان ، فكان لابد من تهديده بالقوة ليدعن لحكم الحق ، وهذا المثل يدلنا على أن استسلام الجبابة لأوامره وسكوتهم على سياسته لم يكن عن قناعة ، وإنما كان خوفاً من سلطانه .

إنصافه رجلا من عدي بن أرطاة :

رُوي عن ابن عياش قال : خرج عمر ذات يوم من منزله على

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٦٠ .

بغلة له شهباء ، وعليه قميص له وملاءة ممشقه ، إذ جاء رجل على راحلة له فأناخها ، فسأل عن عمر ، فقيل له : خرج علينا وهو راجع الآن ، قال : فأقبل عمر ومعه رجل يسايره ، فقيل للرجل : هذا عمر أمير المؤمنين ، فقام إليه فشكى إليه عدي بن أرطاة في أرض له^(١) ، فقال عمر : أما والله ماغرنا منه إلا بعمامته السوداء ، أما إني قد كتبت إليه - فضل عن وصيتي - : إنه من أتاك ببينة على حق هو له فسلّمه إليه ، ثم قد عنّاك إلي ، فأمر عمر برد أرضه إليه ، ثم قال له : كم أنفقت في مجيئك إلي ؟ فقال : يا أمير المؤمنين تسألني عن نفقتي وأنت قد رددت عليّ أرضي وهي خير من مائة ألف ! قال عمر : إنما رددت عليك حقك ، فأخبرني كم أنفقت ؟ قال : ما أدري ، قال : احزره ، قال ستين درهما ، فأمر له بها من بيت المال ، فلما ولّى صاح به عمر ، فرجع فقال له : خذ هذه خمسة دراهم من مالي فكل بها لحما حتى ترجع إلى أهلك إن شاء الله^(٢) .

فهذا مثل على اهتمام أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز برد الحقوق إلى أهلها ، وهو من أمثلة كثيرة ، مر علينا بعضها ، ولكن الذي يلفت النظر في هذا الخبر هو ما قام به عمر من تعويض ذلك الرجل عما أنفقه في سفره ، حيث إنه كان من حقه أن يُقضى له في بلده من غير سفر .

وفي هذا لفت نظر إلى أمر مهم وهو أن من حق كل إنسان أن

(١) وكان عاملا لعمر على الكوفة .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ١٤٦

يأخذ حقه دون أن يكلف بالإنفاق من ماله في سبيل ذلك .

وهذا التعويض من فقه عمر حيث رأى أن إلجاء ذلك الرجل إلى السفر من أجل رفع قضيته يعتبر من تقصير المسئول في بلده ، وليس من تقصير ذلك الرجل ، ولذلك فإنه ليس من العدل أن يُحمّل تلك التكاليف .

خبره مع فرتونة مولاة ذي أصبح :

ومن الأمثلة الجيدة على شعور أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز بالمسئولية واهتمامه بأمور الأمة دقيقتها وجليلها ما جاء في سياق الروايات التي رواها ابن عبد الحكم عن شيوخه قال : وكان بريد عمر بن عبد العزيز لا يعطيه أحد من الناس إذا خرج كتابا إلا حملة ، فخرج بريد من مصر فدفعته إليه فرتونة السوداء مولاة ذي أصبح كتابا تذكر فيه أن لها حائطا قصيرا ، وأنه يُقتحم عليها فيُسرق دجاجها فكتب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله أمير المؤمنين إلى فرتونة السوداء مولاة ذي أصبح ، بلغني كتابك وما ذكرت من قصر حائطك وأنه يدخل عليك فيه فيُسرق دجاجك ، فقد كتبت كتابا إلى أيوب بن شرحبيل - وكان أيوب عامله على صلاة مصر وحربها - أمره أن يبني لك ذلك حتى يحصنه لك مما تخافين إن شاء الله ، والسلام .

وكتب إلى أيوب بن شرحبيل « من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى ابن شرحبيل ، أما بعد : فإن فرتونة مولاة ذي أصبح كتبت تذكر قصر حائطها ، وأنه يُسرق منه دجاجها ، وتسأل تحصينه لها ، فإذا جاءك كتابي هذا فاركب أنت بنفسك إليه حتى تحصنه لها .

فلما جاء الكتاب إلى أيوب ركب ببدنه حتى أتى الجيزة يسأل عن فرتونة حتى وقع عليها ، وإذا هي سوداء مسكينة ، فأعلمها بما كتب به أمير المؤمنين فيها وحصنه لها (١) .

فهذا الكتاب الذي رُفع من تلك المرأة المسكينة المغمورة ، إنما هو أثر من آثار العدل الذي شمل البلاد الإسلامية في عهد عمر بن عبدالعزيز ، فما كانت هذه المرأة المسكينة لترفع حاجتها إلى أمير المؤمنين لو كانت تتوقع أن كتابها سيكون طي الإهمال والنسيان ، ولكن لما استقر في ضميرها أن أمير المؤمنين يهتم بكل أمر من أمور الرعية كبيرها وصغيرها ، وأن كبار الأمور لا تشغله عن صغارها وجدت من نفسها نشاطا وهمة في الكتابة إليه بأمرها .

وما أن وصل كتابها حتى كتب أمير المؤمنين في جواب ذلك كتابا إليها يخبرها بما أمر به الوالي في مصر من قضاء حاجتها ، وكتاباً إلى ذلك الوالي ليذهب بنفسه لقضاء حاجتها .

إنه لم يكتف بكتابه للوالي لخوفه من أن يتأخر في ذلك أو يعتريه النسيان ، بل كتب كتاباً آخر لصاحبة الحاجة لتراجع الوالي فيما إذا لم يسارع إلى قضاء حاجتها .

إن هذا الاهتمام من أمير المؤمنين يعتبر مثلاً عالياً في الشعور بالمسئولية ، ويعتبر مصداقاً للرؤيا التي رآها فيه جده أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضي الله عنه ، من أنه يسير بسيرته ، فإن من صفات عمر بن الخطاب أنه كان في منتهى العدل والشعور بالمسئولية ، وأنه لم تكن كبار الأمور تشغله عن صغارها .

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٦٦ .

إنصافه رجلا اشتكى من أحد أقاربه :

قال ابن عبد الحكم رحمه الله تعالى : وأتاه رجل فقال : ياأمير المؤمنين مظلمةٌ دخلتُ عليّ ، قال عمر : ومن يك ؟ قال : فلا والله مااستطاع أن يقول : فلان ، لبعض أهله ، مرتين أو ثلاثا ، فقال : فلان بن فلان عمد إلى مال لي بكذا وكذا فأخذه فقال : ياغلام اتني بدواة وقرطاس فكتب إلى عامله : إن فلانا ذكر لي كذا وكذا فإن كان الذي ذكر لي على ماذكر فلا تراجعني فيه وارده عليه ، ثم ضرب بإحدى يديه على الأخرى وقال : إن هذا لهو البلاء المبين (١) .

فهذا مثل من حزمه رحمه الله في تطبيق العدالة حتى مع أقاربه حيث أمر عامله بأن يرد الحق على صاحبه وإن كان المدعى عليه من أقاربه . .

وفي هذا الخبر مثل من الذل الذي تتربى عليه النفوس في حال تسلط الجبروت والطغيان ، حيث تلثم صاحب الحق في رفع قضيته مع أنه أمام حاكم عادل ، ولكن الخلفيات السابقة لحكم الظلم والتسلط جعلته يتردد ويتتعتع ، ولو لم يكن على رأس الحكم حاكم عادل لما فكر أساساً في رفع قضيته لأنه - والحال هذه - يخشى أن يناله أذى فيما إذا رفع قضيته ضد أحد أقارب الحاكم .

تسويته بين الناس في مجلس الحكم :

ذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر الحكم بن عمر الرعيني قال : شهدت مسلمة بن عبد الملك يخاصم أهل دير إسحاق عند عمر بن

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٦٣ .

عبد العزيز بالناعورة ، فقال عمر لمسلمة : لا تجلس على الوسائد وخصماؤك بين يدي ، ولكن وكل بخصومتك من شئت وإلا فجاث القوم بين يدي ، فوكل مولى له بخصومته ففضى عليه بالناعورة (١) .

فهذا موقف جليل من أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى في إقرار قواعد العدل في مجالس الحكم ، وقد كان أحد الخصمين ابن عمه القائد الكبير مسلمة بن عبد الملك ، ومع رفعة منزلته وكونه ممن يحبهم عمر بن عبد العزيز ويقدرهم كثيرا فإنه لم يحابه في الحكم ، بل ألزمه بأن يسوي نفسه مع خصومه ثم حكم عليه لصالح خصومه .

أمره بوضع الضرائب :

ومن أمثلة عدله ما جاء في كتابه الذي بعثه إلى عروة بن محمد عامله على اليمن وجاء فيه : أما بعد فقد جاء كتابك تذكر أن من كان قبلك من العمال قد وضعوا على أهل اليمن صدقاتهم وظائف ، إن افتقروا لم يُتَقَصَّوا ، وإن استغنوا زيدَ عليهم ، وتؤامرنِي في ذلك ، ولعمري إن هذا لِلْجورِ حقُّ الجور ، فإذا جاءك كتابي هذا فخذهم بما ترى عليهم من الحق ، ثم اقسِم ذلك على فقرائهم ، وأَقْعِد على طريق الحاج قوما ترضاهم ، وترضى دينهم وأماناتهم يقوون الضعيف ، ويغنون الفقير ، فوالله لو لم يأتني من قبلك إلا كفُّ لرأيت من الله قسما عظيما والسلام (٢) .

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ٥٩ ، والناعورة موضع بين حلب وبالس فيه

قصر لمسلمة بن عبد الملك ، بينه وبين حلب ثمانية أميال .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٦٥ .

ففي هذا الكتاب دلالة على أن بعض الولاة السابقين قد حولوا الزكاة إلى ضريبة تؤخذ من المسلمين بقدر محدد، يثبت على حاله عند فقرهم ، ويزيد عند غناهم ، وفي هذا مخالفة واضحة لشرعية الإسلام ، حيث إن الزكاة لها مقادير وأحكام حُدِّثت في الشريعة، ورُوعي فيها حال دافعها من الفقر والغنى ، كما روعي فيها أنها ليست ضريبة تُجبى لتدخل في مال المسلمين العام ، وإنما تؤخذ من أغنياء كل بلد لتُدفع إلى فقرائهم ، كما جاء في حديث معاذ لما بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن ، وفيه « فَأَعْلَمَهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةَ فِي أَمْوَالِهِمْ تَأْخُذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ وَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ » (١) .

ولهذه المخالفات التي ذكرها والي اليمن نجد أن عمر بن عبدالعزيز رحمه الله يغضب من ذلك الوضع ، ويصفه بأنه الجور حق الجور، ثم يوجه ذلك العامل إلى أن يأخذ من الناس الحق الشرعي في زكاة أموالهم ، وأن يردّها على فقرائهم .

كما يأمره فوق ذلك بأن يجعل على طريق الحجاج رجالاً أمناء يقومون بخدمة الحجاج ، وتموينهم بما يكفي ضعفاءهم ومحتاجيهم .

وبهذا صار عطاء دولته لأمنته أكثر من جبايته، فسعدت الأمة به، وزال الفقر عن فقرائها في مدة وجيزة ، وفاض المال عند الولاة حتى أصبحوا يستشيرون أمير المؤمنين في صرف هذا المال الفائض .

ومن أمثلة ذلك ماكتب به عمر بن عبد العزيز إلى زيد بن عبدالرحمن بن عمر بن الخطاب - وكان على الكوفة - يقول: كتبت

(١) صحيح البخاري ، الزكاة ، رقم ١٣٩٥ (٣/٢٦١) .

تذكر أنه قد اجتمعت عندك أموال بعد أعطية الجند ، فأعط منهم من كان عليه دين في غير فساد، أو تزوج فلم يقدر على نقد . والسلام .
ثم كتب إليه زيد : إنه قد بقي عندنا بعد ذلك ، فكتب إليه عمر: أن قوَّ أهل الذمة ، فإننا لا نريدهم لسنة ولا لستين (١) .

وفي هذا الخبر نظرة رحمة ومواساة لصنفين من الناس في غاية الحاجة والاضطرار ، وهما المدينون ، فما أشد احتياجهم ، وما أبلغ همهم ! والذين عزموا على الزواج وليس لديهم ما يكفي لتكاليفه ، فما أعظم فرحتهم ، وما أبلغ سعادتهم حينما يُقدَّم لهم ما يسد حاجتهم !
وأخيراً لفئة مهمة من أمير المؤمنين عمر حينما أوصى عامله بالاهتمام بتقوية أهل الذمة وإصلاح بلادهم ، فإنهم يعتبرون مصدراً مهماً من مصادر بيت مال المسلمين ، فوصيته هذه نظرة مستقبلية جيدة لتقوية هذا المصدر .

فلله در أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ما أسمى تفكيره ، وما أبعد نظره !!

مكافأته من رفع إليه مظلمة :

نجد من كمال عدل عمر رحمه الله أنه لم يكتف برّد المظالم التي يعلمها بل تقدم إلى المسلمين وأعلن لهم في المواسم ليرفعوا إليه ما علموا من ذلك وأعطى الجوائز لمن تقدم بشيء من ذلك كما جاء في رواية لابن عبد الحكم قال : وكتب عمر بن عبد العزيز إلى أهل المواسم : أما بعد فأما رجل قدم علينا في رد مظلمة أو أمر يصلح الله

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٦٨ .

به خاصا أو عاما من أمر الدين فله مائين مائة دينار إلى ثلاثمائة دينار،
بقدر ما يرى من الحسبة وبعد الشقة ، رحم الله امرءاً لم يتكأده بعدُ
سفر ، لعل الله يُحيى به حقاً ، أو يميت به باطلاً ، أو يفتح به من
ورائه خيراً ، ولولا أن أطيل عليكم وأطنب فيشغلکم ذلك عن
مناسککم لَسُمْتُ أموراً من الحق أظهرها الله ، وأموراً من الباطل أماتها
الله ، وكان الله هو المتوحد لكم في ذلك ، لاتجدون غيره ، فإنه لو
وكلني إلى نفسي لكنت كغيري . والسلام (١) .

فهذا مثل على شدة اهتمام عمر رحمه الله بإقامة العدل ورد
المظالم ، وهذا القرار الذي أصدره عمر قلَّ أن يوجد له نظير في
التاريخ ، فقد توقع أنه لاتزال توجد بعض المظالم ، وأن العارفين بها
يشق عليهم إبلاغها لما يترتب على ذلك من تكاليف مالية فأعطى
مكافأة لكل من يسعى في رد مظلمة أو نصح للأمة .

ثم لفتة إلى التوحيد في نهاية هذا الكتاب ، حيث ذكّر عمر
المسلمين بأن ما حصل من الإصلاح على يديه ، والنعمة التي سعدت
بها الأمة إنما هي من الله تعالى ، ومن فضله وكرمه ، وأنه لو وكله إلى
نفسه لم يستطع القيام بذلك .

اهتمامه بفداء الأسرى والقضاء عن الغارمين :

من ذلك أنه كتب إلى الأسارى بالقسطنطينية : أما بعد : فإنكم
تعدون أنفسكم أسارى ، معاذ الله بسل أنتم الحبساء في سبيل الله ،
واعلموا أنني لست أقسم شيئاً بين رعيتي إلا خصصت أهليكم بأوفر

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ١٣٧ .

نصيب وأطيه ، وإنني قد بعثت إليكم خمسة دنانير خمسة دنانير ،
ولولا أنني خشيت إن زدتكم أن يجسه طاغية الروم عنكم لزدتكم ،
وقد بعثت إليكم فلان ابن فلان يفادي صغيركم وكبيركم ، ذكركم
وأثناكم ، حرَّكم ومملوكم بما سئل به ، فأبشروا ثم أبشروا . والسلام
عليكم .

وكتب أيضاً إلى عماله : أن اقضوا عن الغارمين ، فكتب إليه :
إنا نجد الرجل له المسكن والخادم ، وله الفرس ، وله الأثاث في بيته ،
فكتب عمر : لا بد للرجل من المسلمين من مسكن يأوي رأسه ، وخادم
يكفيه مهنته ، وفرس يجاهد عليه عدوه ، وأثاث في بيته ، ومع ذلك
فهو غارم فاقضوا عنه ما عليه من الدين ^(١) .

ففي الكتاب الأول يواسي عمر بن عبد العزيز أسرى المسلمين
لدى الروم ، حيث شبههم بالمرابطين الذين حبسوا أنفسهم في سبيل
الله تعالى ، فهم بهذا ينالون أجر المرابطين .

وإلى جانب هذه المواساة المعنوية فإنه قد واساهم بالمال الذي
أمدهم به ، وبما أخبرهم به من كفالة أسرهم في حال غيبتهم ، كما أنه
وعدهم جميعاً بمفاداتهم لفك أسرهم .

وهذه معاملة كريمة يستحقها هؤلاء الأسرى الذين خرجوا بأنفسهم
لحماية الإسلام ونصره .

وفي الخبر الثاني يأمر أمير المؤمنين عمر بقضاء الديون عن
الغارمين وإن كانوا يملكون المسكن والأثاث والخادم والفرس ، وهو

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ١٦٣ - ١٦٤ .

مظهر عظيم من مظاهر الرحمة والمواساة ، والاهتمام بشئون الرعية .
وهكذا يتصرف الأئمة العادلون بأموال الأمة ، حيث يُغنون به
فقيرها ، ويجبرون به كسيرها ، ويفكُّون به أسيرها ، ويقضون به عن
معسرها ، ويسدُّون به خلَّةَ معوزها .
خبره مع الأسير الأعمى :

ومن الأمثلة الرائعة لرحمة عمر بن عبد العزيز رحمه الله
ما أخرجه ابن عبد الحكم قال : وأرسل عمر بن عبد العزيز إلى صاحب
الروم رسولا ، فأتاه وخرج من عنده يدور ، فمر بموضع فسمع فيه
رجلا يقرأ القرآن ويطحن ، فأتاه فسلم عليه فلم يرد عليه السلام -
مرتين أو ثلاثا - ثم سلم عليه ، فقال له : وأنى بالسلام في هذا
البلد ! فأعلمه أنه رسول عمر إلى صاحب الروم ، فقال له :
ما شأنك ؟ فقال : إني أسرت من موضع كذا وكذا ، فأُتي بي إلى
صاحب الروم ، فعرض عليَّ النصرانية فأبيت ، فقال لي : إن لم
تفعل سَمَلْتُ عَيْنَيْكَ ، فاخترت ديني على بصري ، فسَمَلْتُ عَيْنِي
وصيرني إلى هذا الموضع ، يرسل إلي كل يوم بحنطة أطحنها وبخبزة
أكلها .

فسار الرسول إلى عمر بن عبد العزيز فأخبره خبر الرجل قال :
فما فرغت من الخبر حتى رأيت دموع عمر قد بَلَّتْ ما بين يديه .

ثم أمر فكتب إلى صاحب الروم : أما بعد فقد بلغني خبر فلان
ابن فلان فوصف له صفته ، وأنا أقسم بالله لئن لم ترسله إلي لأبعثن
إليك من الجنود جنوداً يكون أولها عندك وآخرها عندي .

فلما رجع إليه الرسول قال : ماأسرع مارجعت ! فدفع إليه كتاب عمر بن عبد العزيز ، فلما قرأه قال : ماكننا لنحمل الرجل الصالح على هذا ، بل نبعث إليه به .

قال : فأقمت انتظر متى يخرج به ، فأتيته ذات يوم فإذا هو قاعد قد نزل عن سريره أعرف في وجهه الكآبة ، فقال : تدري لما فعلت هذا؟ فقلت : لا - وقد أنكرت مارأيت - فقال : إنه قد أتاني من بعض أطرافي أن الرجل الصالح قد مات ، فلذلك فعلت ما فعلت ، ثم قال : إن الرجل الصالح إذا كان بين القوم السوء لم يترك بينهم إلا قليلا حتى يخرج من بين أظهرهم .

فقلت له : أتأذن لي أن أنصرف - وأيست من بعثه الرجل معي - فقال : ماكننا لنجيبه إلى ما أمر في حياته ثم نرجع فيه بعد مماته ، فأرسل معه الرجل (١) .

هذا وإن في هذا الخبر ثلاثة أمور مهمة :

أ - موقف هذا الرجل المسلم الذي فضّل البقاء على دينه ، وتحمل سمل عينيه بالحديد المحمي بالنار حتى فقد بصره ، وهنا يقف المتأمل مندهشا من هذا المشهد المثير ، الذي يدل على قوة الإيمان بالإسلام والقناعة به ، حيث فضل هذا الرجل دينه على صحته وحياته ، لأنه يعتبر هذا الدين هو حياته الحقيقية ، ويعتبر أن مفارقة الإسلام موت لايدانيه موت .

ولاشك أنه كان لهذا الموقف العالي وأمثاله الأثر البالغ في الدعوة

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ١٦٨ .

إلى الإسلام، لأن العقل السليم يدل على أن المبدأ الذي يفضلُه صاحبه على حياته لا يمكن أن يكون عادياً كمبادئ البشر المعروفه، لأن المبادئ تُستخدم عادة لرفع قيمة الإنسان في هذه الحياة، فلا يمكن أن يضحّي الإنسان بحياته من أجلها، وهو إنما يستخدمها للحياة، فلا بد أن المبدأ الذي يبذل صاحبه حياته من أجله وراءه دافع أقوى من مستقبل هذه الحياة، ولا يمكن أن يوجد ذلك إلا في الإسلام الذي كرم الله تعالى فيه الشهداء والذين أودوا في سبيل هذا الدين، ورفعهم درجات عليا في الجنة .

هذا الرجل المسلم المغفور الذي لم يذكر اسمه مثل هذا الموقف الكبير! فكم في هذه الأمة الإسلامية من المغفورين الذين يزن إيمانهم الجبال الراسيات !

وإذا كان هذا في المغفورين فكيف الحال بالمشاهير الذين لمعت أسماؤهم في مجال التضحية والفداء ١٩

ب - وفي هذا الخبر مثل من رحمة عمر بن عبد العزيز البالغة وإشفاقه على المسلمين حيث بكى ذلك البكاء الشديد من خبر ذلك الأسير .

ومثل من اهتمامه العظيم بأمور المسلمين حيث كتب إلى ملك الروم يهدده ذلك التهديد القوي إن لم يُفْرَج عن ذلك الأسير .

ج - كما أن في هذا الخبر بياناً لأثر العدل في الحكم حتى على الأعداء المحاربين، فحينما جاء كتاب عمر الذي بلغ حداً عالياً في التهديد لملك الروم ما كان من هذا الملك إلا أن قال : ما كنا لنحمل الرجل الصالح على هذا .

وحينما بلغه موت عمر تأثر بذلك وظهرت الكآبة على وجهه ،
وذلك لأنه حتى الأعداء ينعمون بعدل الأمراء من أعدائهم ، لأنهم
يؤمنون خيانتهم وظلمهم لهم ولا تباع دينهم الذين يعيشون في بلاد
هؤلاء الأمراء .

وقد بلغ بملك الروم التأثير بعدل عمر إلى حد أنه وفى بما وعد به
حتى بعد موته وقال : ما كنا لنجيبه إلى ما أمر في حياته ثم نرجع فيه
بعد مماته .

اهتمامه بأمر الرعية :

قال أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم : وخرج عمر بن عبد
العزیز يوماً في ولايته الخلافة بالشام فركب هو ومزاحم - وكان كثيراً
ما يركب فيلقى الركبان يتجسس الأخبار عن القرى - فلقىهما راكباً من
أهل المدينة ، وسألاه عن الناس وما وراءه وهو الأمر الذي خرجا من
أجله . فقال لهما : إن شئتما جمعت لكما خبري ، وإن شئتما بعضته
تبعيضاً . فقالا : بل اجمعه فقال : إنني تركت المدينة و الظالم بها
مقهور ، والمظلوم بها منصور ، والغني موفور ، والعائل مجبور . فسرى
بذلك عمر وقال ، والله لأن تكون البلدان كلها على هذه الصفة أحب
إليّ مما طلعت عليه الشمس (١) .

مثل من اختياره الولاية :

قال الإمام أبو جعفر الطبري : ثم إن عمر لما أراد استعمال عاملٍ
على خراسان . قال فيما ذكر علي بن محمد بن خازجة بن مصعب

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز / ١٣١ .

الضبيّ وعبد الله بن المبارك وغيرهما: ابغوني رجلاً صدوقاً أسأله عن خراسان، فقليل له : أبو مجلز لاحق بن حميد. فكتب فيه، فقدم عليه - وكان رجلاً لاتأخذه العين^(١) فدخل أبو مجلز على عمر في جفة الناس^(٢)، فلم يثبتته^(٣) عمر، وخرج مع الناس فسأل عنه فقليل: دخل مع الناس ثم خرج، فدعا به عمر فقال: يا أبا مجلز، لم أعرفك، قال: فهلا أنكرتني إذ لم تعرفني! قال: أخبرني عن عبد الرحمن بن عبد الله، قال: يكافئ الأكفاء، ويعادي الأعداء، وهو أمير يفعل مايشاء، ويقدم إن وجد من يساعده. قال: عبد الرحمن بن نعيم، قال: ضعيف لئِنْ يحب العافية، وتأتي له، قال: الذي يحب العافية وتأتي له أحب إلي، فولاه الصلاة والحرب، وولّى عبد الرحمن القشيري، ثم أحد بني الأعور بن قشير الخراج، وكتب إلى أهل خراسان: إني استعملتُ عبد الرحمن على حربكم وعبد الرحمن بن عبد الله على خراجكم عن غير معرفة مني بهما ولا اختيار، إلا ماأخبرتُ عنهما، فإن كانا على ماتحبون فاحمدوا الله، وإن كانا على غير ذلك فاستعينوا بالله، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

قال عليّ: وحدثنا أبو السريّ الأزديّ، عن إبراهيم الصائغ، أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى عبد الرحمن بن نعيم: أما بعد، فكن عبدًا ناصحًا لله في عبادته، ولا يأخذك في الله

(١) يعني أن جسمه لا يلفت النظر.

(٢) جفة الناس: جماعتهم.

(٣) لم يثبتته: لم يعرفه حق المعرفة.

لومة لائم، فإنّ الله أولى بك من الناس، وحقه عليك أعظم، فلا تولّين شيئاً من أمر المسلمين إلا المعروف بالنصيحة لهم والتوفير عليهم، وأداء الأمانة فيما استُرعي، وإياك أن يكون ميلك ميلاً إلى غير الحق، فإن الله لا تخفى عليه خافية، ولا تذهبن عن الله مذهباً، فإنه لا ملجأ من الله إلا إليه (١) .

مثل من احتياطه في اختيار الولاية :

ذكر الشيخ أبو حفص عمر بن محمد الخضر الملاء : أن بلال بن أبي بردة دخل على عمر بن عبد العزيز وعليه قميص قد شمّرهُ فوق كعبيه وعليه عمامة له حزقانية قد سدّكها بين كتفيه وقد أثر السجود في وجهه . قال : فاستنطقه عمر فوجده رجلاً سديداً العقل . فقال له : قم يا بلال ارجع إلى منزلك . ثم دعا عمر بن عبد العزيز مزاحماً فقال : يا مزاحم ! اختبر لي هذا الرجل - يعني بلالاً - فليس لي غناء عنه إن كان له ورع . فلما خرج مزاحم أرسل إلى بلال فجاء فقال له مزاحم : يا بلال . قال : ماتشاء أصلحك الله . فقال مزاحم : أنا والله أحب الخير لنفسي فماذا لي إن رميت بك على أحد العراقيين؟ فقال : إذا كان ذلك فلك علي ثلاثون ألفاً ، والله أنقذك إياها الساعة ، وأربعون ألفاً إذا قدمت البلد . ثم قال : الأمر أمرك لا يخالف ولا يعصى . فقال مزاحم : ارجع إلى منزلك . قال : وخرج مزاحم حتى دخل على أمير المؤمنين عمر وقال له : عدو الله لص . وأخبره الخبر . فقال عمر : والله إن كاد ليغرني بسجدة وعمامته . والله

(١) تاريخ الطبري ٥٦١/٦ - ٥٦٢ .

لايمسين في عسكري . انخسوا به . ثم كتب : من عبد الله عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن أرطاة سلام عليك . أما بعد ، فإياك وبلايا بلال السوء ، وعيينة بن أسماء ، وحوشب بن يزيد ، فإنهم من بقايا السوء فلا تستعين بهم على شيء من عملك والسلام عليك (١) .

ففي هذا الخبر ظهر لنا تطبيق أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز لعلمه ، حيث كان يعلم أن الشرطين الأساسيين للولاية هما اتصاف الوالي بالكفاءة والأمانة ، وقد عرف اتصاف هذا الرجل بالكفاءة من منطقته ومجالسته إياه ، ثم كلف مولاه مزاحما باختباره لمعرفة أمانته ، لكنه لم ينجح في الاختبار فكان ماكان من استبعاده والتحذير منه .

وهذا الاهتمام الشديد من عمر بن عبد العزيز يدل على حرصه الكبير في التحري في اختيار الولاة ، لأن ذلك يضمن له بنسبة كبيرة أن تسير الأمور في البلاد الإسلامية على مايريد من العدل والإصلاح .
حرصه على تولية الأكفاء :

أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر الإمام الأوزاعي قال : أراد عمر بن عبد العزيز أن يستعمل رجلا على عمل فأبى ، فقال له عمر : عزمت عليك لتفعلن ، فقال الرجل وأنا أعزم على نفسي أن لا أفعل ، فقال عمر أتعصيني ؟ فقال : يا أمير المؤمنين إن الله تعالى يقول ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ

(١) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز / ٢٤٦ ، وأخرجه ابن سعد مختصرا / ٣٩٥/٥١ .

يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿١﴾
[الأحزاب: ٧٢] . أفعصية كان ذلك منهن ؟ فأعفاه عمر (١) .

مثل من نباهة عمر وفطنته :

قال أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم : وولى عمر بن عبدالعزيز الوليد بن هشام المَعِيطِي على جند قنسرين - والفُراتُ بن مسلم على خراجها - فتباغيا، حتى بلغ الأمر بالوليد أن هياً أربعة نفر من كهول قنسرين يشهدون على فرات أنه يدع الصلاة، ويُفطر شهر رمضان مقيماً صحيحاً ، ولا يغتسل من الجنابة، ويأتي أهله وهي طامث . فقدموا على عمر بن عبد العزيز فشهدوا بهذه الشهادة، وهم مختضبون بالحناء ، فقال عمر هذا رمقتموه في صلاته فلم يُصلِّها، إما تركها متعمداً وإما ساهياً، ورأيتموه يفطر في ظهر رمضان ولا ترون به سقماً ، ما علمكم أنه لا يغتسل من الجنابة وغشيانه أهله؟ والله ما هذا مما يشتم به ولا سيما فرات في مثل عفافه وأمانته، يا غلام انطلق بهؤلاء المشيخة السوء إلى صاحب الشرط ، فمره فليضرب كل واحد منهم عشرين سوطاً على مفرق رأسه، وليرفق في ضربه لمكان أسنانهم، وبحسبهم من الفضيحة ما هم صائرون إليه، إن لم يتغمد الله ما كان منهم بعفوه، ثم استوثق منهم بالكفلاء حتى يكون فرات هو الآخذ بحقه منهم ، أو العافي عنهم، والعفو أقرب للتقوى وأقرب إلى الله عز وجل . ثم أصلح بين الوليد وفرات .

قال : ولما قدم قنابل ، وقدم الوليد و معه رؤوس أنباط قنسرين

(١) حلية الأولياء ٣١٢/٥ .

كتب عمر بن عبد العزيز إلى الفرات أن اقدم فقدم، وإنه لقاعد خلف سرير عمر إذ دخل الأنباط، فقال لهم عمر : ماذا أعددتُم لأمرِكُم في نزله لمسيره إليَّ قالوا: وهل قدم ياأمير المؤمنين ؟ قال : ما علمتُم به؟ قالوا : لا والله ياأمير المؤمنين ، فأقبل عمر بوجهه على الوليد فقال : ياوليد إن رجلاً ملك قنَّسرين وأرضها خرج يسير في سلطانه وأرضه، حتى انتهى إليَّ لا يعلم به أحد، ولا ينقُر أحدًا ولا يروعه، لخلق أن يكون متواضعًا عفيفًا ، قال الوليد: أجل والله ياأمير المؤمنين إنه لعفيف وإني له لظالم ، وأستغفر الله وأتوب إليه . فقال عمر : ما أحسن الاعتراف ، وأبين فضله على الإصرار، وردَّهما عمر على عملهما فكتب إليه الوليد - وكان مرئيًّا - خديعة منه لعمر، وتزيّنًا بما هو ليس عليه : إني قدَّرت نفقتي لشهر فوجدتها كذا وكذا درهمًا، ورزقي يزيد على ما أحتاج إليه، فإن رأى أمير المؤمنين أن يحطَّ فضل ذلك ، فقال عمر : أراد الوليد أن يتزيّن عندنا بما لا أظنه عليه، ولو كنت عازلاً أحدًا على ظنِّ لعزلته، ثم أمر بحطِّ رزقه إلى الذي سألَه، ثم أمر بالكتاب إلى يزيد بن عبد الملك وهو ولي عهده، إن الوليد بن هشام كتب إليَّ كتابًا أكثر ظني أنه تزيّن بما ليس هو عليه، ولو أمضيت شيئًا على ظني ما عمل لي أبدًا ، ولكنني آخذ بالظاهر وعند الله علم الغيوب، فأنا أقسم عليك إن حدث بي حادث وأفضى هذا الأمر إليك، فسألك أن تردَّ إليه رزقه، وذكر أني نقصته فلا يظفر منك بهذا أبدًا فإنما خادع به الله والله خادعه ، فلما مات عمر، واستُخلف يزيد كتب إليه الوليد : إن عمر نقصني وظلمني، فغضب يزيد وبعث

إليه فعزله وأغرمه كل رزق جرى عليه في ولاية عمر ويزيد كلها، فلم يل له عملاً حتى هلك (١).

في هذا الخبر مثل من الحسد المذموم وما يترتب عليه من الكيد للزملاء في العمل ، وهذا ينتج عادة من تضخم شرف الدنيا في النفس وتضاؤل شرف الآخرة فيها، فيعمل الحاسد على تقويض مركز من ينافسونه على شرف الدنيا، ويرتكب من أجل ذلك موبقات منها الكذب والتزوير ، ولو أن هذا الحاسد استعمل عقله السليم فأعطى الدنيا حجمها الملائم لها لتواضع بدلاً من أن يتكبر، ولأراح عقله من التفكير الطويل في ملاحقة شرف الدنيا والكيد للمنافسين ، ولَعَفَّ لسانه عن قول الكذب والزور، ولعاش قرير العين سعيد النفس بما قسم الله له من مال الدنيا وشرفها، ولَطَلَب بفكره وعمله شرف الآخرة الذي لا يترتب عليه حسد مذموم ولا كبر وبطر ولا إشغال للفكر بتدبير المكائد والمؤمرات .

ولما كان أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز خبيراً بأدواء النفوس وتجاوزاتها فإنه قد أدرك على الفور أن وراء الأكمة ما وراءها، وأن مجيء أولئك الشيوخ وتصريحهم بما أدلوا به من قدح مشين بأميرهم فرات بن مسلم ماهو إلا حلقة من حلقات مؤامرة مدبرة لإيغار صدره عليه وعزله عن منصبه، فهداه الله تعالى إلى استعمال فكره السليم في نقض تلك الدعاوي، ووضع أصحابها في قفص الاتهام حتى تتضح الرؤية ويتبين الحق، ولقد كان واثقاً من كذب تلك الدعاوى

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز / ١٥١ - ١٥٣ .

حيث أمر بإجراء العقوبة على أصحابها ، ثم لم يكن بحاجة إلى إكمال التحقيق في القضية لأن الأمر من الوضوح بحيث حمل صاحب المؤامرة على الاعتراف بخطئه والحكم على نفسه بالظلم لزميله في العمل والثناء عليه بما يستحقه من صفات الكمال ، ثم لما كان هذا الاعتراف بالخطأ برزت أخلاق عمر بن عبد العزيز المتمثلة بالعفو والرحمة وتقدير المواقف الإيمانية .

وحينما طلب منه الوليد بن هشام المعيطي أن ينقص من راتبه أدرك خداعه في اختلاف سريره مع علانيته ، حيث أظهر العفة والزهد ليصل إلى كسب الثقة وعلو المنزلة عند عمر بن عبد العزيز الذي يعظم هذا الاتجاه ، ولكن أمير المؤمنين أدرك ذلك فحقق له مطلبه ، وفي الوقت نفسه فوّت عليه الفرصة في نيل مقاصده ، ولقد كان أمير المؤمنين عظيم الورع حينما لم يحكم عليه بمجرد ظنه ، وإنما قاده هذا الظن إلى عمل الاحتياطات اللازمة لتفادي ماقد يكون من ذلك الوالي من جنوح في المستقبل .

فما أعظم عمر بن عبد العزيز في فطنته وفراسته وحزمه !!

وما أعظمه في رحمته وعفوه وورعه !!

موقفه في رفع الظلم عن زيد بن حسن :

قال أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم : وكتب الوليد بن عبد الملك إلى زيد بن حسن بن علي بن أبي طالب ، يسأله أن يبايع لعبد العزيز بن الوليد ، ويخلع سليمان بن عبد الملك ، ففرّق زيد من الوليد فأجابه ، فلما استخلف سليمان وجد كتاب زيد إلى الوليد بذلك

فكتب إلى أبي بكر بن حزم - وهو أمير المدينة - ادع زيد بن حسن فأقرئه هذا الكتاب فإن عرفه فاكتب إلي بذلك ، وإن نكل فقدّمه فأظهر يمينه على منبر رسول الله ﷺ : ماكتب هذا الكتاب ولا أمر ، فأرسل إليه أبو بكر بن حزم فأقرأه الكتاب ، فقال : أنظرني ما بيني وبين العشاء أستخير الله . قال : فأرسل زيد بن حسن إلى القاسم بن محمد ، وسالم بن عبد الله يستشيرهما . قال : فأقاما معهما ربيعة فذكر لهما ذلك ، وقال : إني لم أكن آمن الوليد على دمي لو لم أجبه ، فقد كتبت هذا الكتاب ، أفترّون أن أحلف ؟ فقالوا : لا تحلف ولا تبارز الله عز وجل عند منبر رسول الله ﷺ ، فإننا نرجو أن يُنجيك الله بالصدق ، فأقرّ بالكتاب ولم يحلف . فكتب بذلك أبو بكر بن حزم إلى سليمان ، فكتب سليمان إلى أبي بكر أن يضربه مائة سوط ، ويُدْرعه عباءة ، ويُمشيه حافياً ، فتشكى سليمان . فقال عمر بن عبد العزيز للرسول : لاتخرج حتى نكلم أمير المؤمنين فيما كتب إلى زيد بن حسن ، لعلني أستطيب نفسه فيترك هذا الكتاب . قال : فحبس الرسول والكتاب ، ومرض سليمان فقال عمر : لاتخرج فإن أمير المؤمنين مريض ، إلى أن رُمي في جنازة سليمان ، وأفضى الأمر إلى عمر بن عبد العزيز فدعا بالكتاب فخرقه (١) .

وهكذا نجى الله تعالى زيد بن حسن من بأس سليمان بن عبد الملك ويطشه بذلك السلوك الحكيم من عمر بن عبد العزيز ، وإنه لعجيب من أولئك الأمراء أن يخرجوا كبراء الأمة وفضلاءها بإدخالهم في تجاوزاتهم السياسية وجعلهم معرضين لنقمة الحاكم الحالي إن لم

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ١١٩ - ١٢٠ .

يوافقوا على تحقيق مراده أو نقمة الحاكم القادم إن وافقوا على ذلك ، فكان زيد بن حسن قد فضل درء الشر الحاضر على أمل أن لا يكون الشر المستقبل ، ولكنه وقع وكاد أن يتعرض للتعذيب المذكور لولا أن انقذه الله تعالى بما فعله عمر بن عبد العزيز .

شكوى عمته باسم بني أمية :

أخرج محمد بن سعد من خبر عبيد الله بن محمد التيمي قال : سمعتُ أبي وغيره يحدث أن عمر بن عبد العزيز لما ولي منع قرابته ما كان يجري عليهم وأخذ منهم القطائع التي كانت في أيديهم ، قال فشكوه إلى عمتّه أم عمر ، قال فدخلتُ عليه فقالت : إنَّ قرابتك يشكونك ويزعمون ويذكرون أنك أخذت منهم خير غيرك ، قال : مامنعُهم حقًا أو شيئًا كان لهم ولاأخذت منهم حقًا أو شيئًا كان لهم . فقالت : إني رأيُتهم يتكلمون وإني أخاف أن يهيجوا عليك يومًا عصيًّا . فقال : كل يوم أخافه دون يوم القيامة فلا وقاني اللهُ شره . قال فدعا بدينار وجَنَّب ومجمره فألقى ذلك الدينار في النار وجعل ينفخ على الدينار حتى إذا احمر تناوله بشيء فألقاه على الجنب فنشَّ وقرَّ فقال : أيُّ عمة أما تأوين لابن أخيك من مثل هذا ؟ قال فقامت فخرجت على قرابته فقالت : تزوجون إلى عمر فإذا نزعوا الشبهه جزعتم ، اصبروا له (١) .

ففي هذا الخبر بيان زهد أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز بهذه الحياة الدنيا وعدم مبالاته بما يجري عليه فيها من مصائب ، فإن الشيء

(١) طبقات ابن سعد ٣٧٣/٥ ، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ٩٦ .

الوحيد الذي يهتم له هو ماسيكون عليه مآله بعد الموت ، فكل تهديد يوجه إليه في هذه الحياة الدنيا فإنه لا يثير خوفه ولا يحسب له حسابا ، وهذا فيه تئيس لمن سيعملون ضده لأنه لا يجذبه طمع ولا يخيفه فزع ، ومن أجل أن يكون تصور أهوال الآخرة أبلغ فإنه قام بتمثيل مصغر لعذاب النار أمام عمته لتأثر بذلك الموقف ولتنقل الصورة إلى بني أمية لعلهم يتذكرون ويعتبرون .

تأديبه لمن سخر أهل الذمة :

أخرج محمد بن سعد من خبر سهل بن شعيب أن ربيعة الشعوزي حدثهم قال : ركبْتُ البريدُ إلى عمر بن عبد العزيز فانقطع في بعض أرض الشام فركبت السُّخْرَةَ (١) حتى أتيتَه وهو بخناصره فقال : ما فعل جناح المسلمين ؟ قال قلت : وما جناح المسلمين يا أمير المؤمنين ؟ قال : البريد . قال قلت : انقطع في أرض أو مكان كذا وكذا . قال : فعلى أي شيء أتيتنا ؟ قال قلت : على السخرة تسخرتُ دوابَّ النبط . قال : تسخرون في سلطاني ؟ قال فأمر بي فضربتُ أربعين سوطاً ، رحمه الله (٢) .

فهذا من أبلغ أمثلة العدل ، حيث يأمر أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز بضرب أحد عماله لكونه سخر أهل الذمة لحمله على دوابهم ، فهو يرى أن ذلك ظلم لهم ، فما أسمى أحكام الإسلام التي يصل بها أهل الذمة من الكفار إلى حقوقهم الكاملة ويتمتعون بها

(١) يعني سخر من مر بهم من أهل الذمة ليحملوه على دوابهم .

(٢) طبقات ابن سعد ٣٧٤/٥ .

بالعدل والأمن !! ولكن هذه الأحكام تحتاج إلى حكام عادلين لتمثل
في واقع الحياة فيشاهدها الناس أجمعون ، ويكون لها الأثر الكبير في
تعظيم الإسلام والانجذاب إليه .
مثل من بركة الحكم بالعدل :

أخرج الحافظ أبو نعيم من خبر إبراهيم بن هشام بن يحيى
الغساني حدثني أبي عن جدي . قال : لما ولاني عمر بن عبد العزيز
الموصل ، قدمتها فوجدتها من أكبر البلاد سرقا ونقبا ، فكتبت إلى عمر
أعلمه حال البلد وأسأله : آخذ من الناس بالمظنة وأضربهم على التهمة
أو آخذهم بالبينه وماجرت عليه عادة الناس ؟ فكتب إلي أن آخذ
الناس بالبينة وماجرت عليه السنة ، فإن لم يصلحهم الحق فلا
أصلحهم الله . قال يحيى : ففعلت ذلك فما خرجت من الموصل
حتى كانت من أصلح البلاد وأقلها سرقا ونقبا (١) .

فهذا مثال على أن البركة والسعادة والأمن تتوفر في تطبيق شريعة
الإسلام ، فإن عصاة المسلمين وإن جرت منهم جنوحات إجرامية
فإنهم مؤمنون بالله تعالى واليوم الآخر ، فإذا شعروا بأنهم يُحكمون
بالدين وأن الحاكم صادق ومخلص في تطبيق الإسلام فإنهم يرتدعون
بأقل الروادع ، ويصبح من يلومهم على إجرامهم يتكلم باسم الدين
فيرعوي من في قلبه بقية من جذوة الإيمان ويقظة الضمير ، ولا يصير
على الإجرام إلا من قست قلوبهم وغلظت طباعهم ، وهؤلاء
لا يرتدعون إلا بتطبيق الحدود الشرعية ، ولكن عددهم في المجتمع

(١) حلية الأولياء ٥ / ٢٧١ .

الإسلامي محدود ، فالقضاء على الجرائم - والحال هذه - متيسر للحاكم العادل الذي يطبق الحق على كل المسلمين ، ومن هذا المنطلق نجح هذا الحاكم في إقرار الأمن والقضاء على الجرائم .

أما إذا كان الحاكم يأخذ الناس بالظن ولا يتقيد بأحكام الشريعة فإن من عندهم ميل للجرائم يغالبون الحاكم بالتحدي ، ولا ينشط المتقون للإنكار على المجرمين لأن القضية تكون بينهم وبين سلطان متجبر ، فيكون موقف المتقين ضعيفا حينما يقاومون أصحاب الجرائم لأن موقفهم قد اقترن بموقف الحاكم المتسلط .

إنصافه الأعراب من بعض بني أمية :

أخرج عبد الله ابن الإمام أحمد من خبر سليمان بن موسى أنه بلغه أن قوما من الأعراب خاصموا إلى عمر بن عبد العزيز قوما من بني مروان في أرض كانت الأعراب أحيوها ، فأخذها الوليد بن عبد الملك فأعطاه بعض أهله ، فقال عمر بن عبد العزيز : قال رسول الله ﷺ : « البلاد بلاد الله والعباد عباد الله من أحيى أرضا ميتة فهي له » ، فردها على الأعراب (١) .

فهذا مثل من عدل أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى ، حيث أنصف الأبعاد عنه من المقربين إليه ، وفي الخبر دلالة على أهمية العلم الشرعي للحاكم وأثر ذلك في سلوك الطريق المستقيم والسلامة من الزلل .

(١) الزهد للإمام أحمد بن حنبل / ٢٩٠ / ، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ٨٥ .

وصيته عماله بالتقوى والعدل :

قال ابن عبد الحكم : وكتب عمر بن عبد العزيز : من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى العمال^(١) ، أما بعد : فإن هذا الأمر الذي ولاني الله لو كنت إنما أصبحت ورغبتي فيه مطعم أو ملبس أو مركب أو اتخاذ أزواج أو اعتقاد أموال لكنت قد بلغ الله بي من ذلك قبل ما ولاني من أفضل ما بلغ بعباده ، ولكنني أصبحت له خائفاً ، أعلم أنه فيه أمراً عظيماً وحساباً شديداً ومسألة غليظة^(٢) عند مجاهدة الخصوم بين يدي الله إلا ما عافى الله ورحم ودفع ، وإني آمرُك فيما وليتك من عملي وأفضيت إليك من أمري بتقوى الله ، وأداء الأمانة واتباع ما أمر الله به واجتناب ما نهى الله عنه ، وقلة الالتفات إلى شيء خالف ذلك ، ليكون الذي آمرُك به في سيرتك والنظر في نفسك وفي عملك وما تفضي به إلى ربك وما تعمل به فيما بينك وبين الرعية قبلك ، وأنت تعلم علماً يقينا أنه ليس نجاة ولا حرز إلا أن تنزل بذلك المنزل من طاعة الله ، ودع أن ترصد شيئاً ليوم ترجوه أو تخافه سوى ما ترجوه غداً من الله تعالى وتخاف منه ، فإنك قد رأيت عبيراً في نفسك وعبيراً مامثلها وعُظ مثلنا ، وكفى ومثلها أصابك إلى حظك من الله ، والسلام^(٣) .

(١) في تاريخ الطبري أن هذا الخطاب موجه إلى يزيد بن المهلب .

(٢) في كتاب ابن عبد الحكم «لطيفة» واثبت ما في تاريخ الطبري لأنه أنسب لسياق الكلام .

(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٩٢ ، تاريخ الطبري ٦ / ٥٦٦-٥٦٧ .

فهذا الخطاب يبين عظمة شعور أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز بالمسئولية ، حيث فهم وبين أن الولاية مغرم لامغم ، فهي جدُّ وعمل وهمُّ متواصل ، وإنما يدفع إلى فهم حقيقتها ، والنجاة من مزالقها شعور صاحبها بالوقوف بين يدي الله تعالى للحساب ، وأن يُعدَّ لكل قضية جوابا ، فإذا لم يستطع إعداد الجواب في الدنيا فإنه أعجز عنه في الآخرة ، وإنما يكون إعداد الجواب بتنقية السيرة وتطهير السريرة ، وبذل الجهد في الإصلاح ، فإن العامل لأيّلام بعد بذل الجهد على ماكان منه من تقصير أو خطأ لايعلمه ، أما إذا كان هدف العامل اكتساب مجد الدنيا ومتاعها وتجنب خسارتها فإنه قد حكم على نفسه بالهلاك ، وضع باختياره سبيل النجاة ، فلا يلومنَّ إلا نفسه المفرطة ، ولا يتقصنَّ إلا فكره المنحرف .

ومن ذلك ماذكره أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم رحمه الله تعالى قال : وكتب عمر بن عبد العزيز : من عبد الله عمر بن عبد العزيز أمير المؤمنين إلى أمير الأجناد : أما بعد فإنه من بلي بالسلطان تحضره مكاره كثيرة وبلايا عظام ، إن غابت عنه يوما فهي حرية أن تحضره في اليوم الآخر ، وإنه ليس أحد بأشغل عن نفسه ولا أكثر تعرضا لزيغ من ولي السلطان ، إلا ما عافى الله ورحم ، فاتق الله ما استطعت ، واذكر منزلك الذي أنت به والذي حُمِلت به وقاتل هواك كما تقاتل عدوك ، واصبر نفسك عما كرهت ابتغاء ما عند الله من حسن ثوابه الذي وعد به المتقين فيما بعد الموت ، والذي وعدكم على التقوى والصبر من النجاة في عاجل الأمر وآجله ، فإذا حضرك الخصم الجاهل الحرق من قدر الله أن يوليكَ أمره وأن تبلى به فرأيت منه

سوء رِعةً وسوء سيرة في الحق الذي عليه والحظ الذي له فسدَّده ما استطعت وبصره ، وارفق به وعلمه ، فإن اهتدى وأبصر وعلم كانت نعمة من الله وفضلاً ، وإن هو لم يبصر ولم يعلم كانت حجة اتخذت بها عليه ، فإن رأيت أنه أتى ذنباً استحق فيه عقوبة فلا تعاقبه بغضب من نفسك عليه ، ولكن عاقبه وأنت تتحرى الحق في قدر ذنبه بالغاً ما بلغ ، وإن لم يبلغ ذلك إلا قدر جُلدة واحدة تجلده إياها ، وإن كان ذنبه فوق ذلك ، ورأيت عليه من العقوبة في ذلك قتلاً فما دونه فأرجعه إلى السجن ، ولا يسرعن بك إلى عقوبته حضور من يحضرُك ، فإنه لعمرى ربما عاقب الإمام لمحضر جلسائه ، ولتأديب أهل بلده ولتغامزهم به ، وما من إمام له جلساء إلا سيكون ذلك فيهم وما من قوم يسمعون بقضاء إمام إلا سيختلفون فيه على أهوائهم ، إلا من رحم الله ، فإن من رحم الله لا يختلفون في قضاء ، فإنه قال ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ (١) .

وإذا استجهلت فتثبت ، وإذا نظر إليك من حولك ماأنت فاعل بسفيه من رعيَّتكَ إن سفه أو أخطأ خطيئة فاعمد في ذلك للذي ترى أنه أبرُّ وأتقى وخيرٌ لك غداً فيما بعد الموت ، ولا يطرِبك نظرهم إليك ولا حديثهم عنك فإنهم لا يبقى في أنفسهم حديثٌ أحبُّوه أو كرهوه إلا قليلاً إلا أبدؤهُ . فاغتنم كل يومٍ أخرجك الله فيه سالماً ، وكل ليلة مضت عليك وأنت فيها كذلك وأكثر من دعاء الله بالعافية لنفسك ، ولن ولأَك الله أمره ، فإن لك في صلاحهم ماليس لأحد منهم وإن عليك في فساد الرجل الواحد فما فوق ذلك ماليس على أحد منهم .

(١) سورة هود الآية ١١٨ - ١١٩ .

ولا تبغ منهم جزاء خير أحسنه إليهم ، ولا بتسديد سددهم ،
ولا تطلب بعمل صالح عملته فيهم جزاءً ولا ثواباً ولا مدحاً ولا حظوة ،
وليكن ذلك لمن لا يعطي الخير ولا يصرف السوء غيره ، ثم تعاهد
صاحب بابك وصاحب حرسك وعاملك المقيم عندك والذين تبعث ،
فلا يعملون في شيء مما تحت يدك بغشهم ولا بظلم ، وأكثر المسألة
عنهم ، فمن كان منهم محسناً نفعه ذلك ، ومن كان مسيئاً استبدلت به
من هو خير منه .

نسأل الله ربنا برحمته وقدرته على خلقه أن يغفر لنا ذنوبنا وأن
يسر لنا أمورنا ، وأن يشرح لنا صدورنا بالبر والتقوى ، والعمل فيما
يحب ويرضى ، وأن يعصمنا من المكارها كلها ، وأن يجعلنا من الذين
لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً ، ومن المتقين الذين لهم العاقبة ،
والسلام عليكم ورحمة الله (١) .

ففي هذا الكتاب بيان خطورة الولاية وأنها مزلة قدم ، ولا يسلم
من زلاتها إلا من رحمه الله تعالى ، فالولاية إما عمل صالح عظيم
الدرجات لمن عف وعدل واستقام ، وإما عمل سيء يؤدي إلى الهلاك
لمن رتع وجار وانحرف ، ولولا أنها في بعض صورها عمل صالح لما
أقدم عليها من يخشى الله ويتقيه .

وإذا تقلد الإنسان ولاية برز هوى نفسه الأمانة بالسوء لكثرة
المغريات ، فإذا لم يتصور الإنسان نفسه التي بين جنبيه عدواً له في
بعض الأحيان فإنه سالك سبيل الهلاك ، لأنه لن يعمل على كبح

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٨١ - ٨٣ .

جماح النفس وتقويمها، وقد تكره النفس الاستقامة على منهج الإسلام الكامل فلا بد من إكراهها على سلوك هذا السبيل ، وسيتحول الأمر بعد شيء من المعاناة - تقصر أو تطول - إلى منهل عذب وسبيل رحب، تهواه النفس المطمئنة وتنافس عليه .

والمسئول يبتلى بمعاملة الناس على مختلف أذواقهم ومشاربهم، وقد تتحول هذه المعاملة إلى معاناة ومكابدة، فلا يغتر المسئول بكونه أقدر على أفراد رعيته منهم عليه فيعاملهم بشيء من العنف والقسوة وإن ساءت معه أخلاقهم وغلظت معه طباعهم، بل عليه أن يبذل جهده في تعليم الجاهل الأدب وحسن المعاملة ، فإن التعليم من الأعلى له دوره المؤثر ، حيث إنه يملك هبة المسئولية ، فإذا تحول عما ينتظر منه عادة من محاولة فرض السيطرة إلى محاولة تعليم الناس وتهذيب أخلاقهم فإن النفوس تكبر ذلك فيه وتقبل على توجيهه .

وإذا أخطأ أحد أفراد الرعية خطأ يستحق عليه العقوبة فمن واجب الوالي أن يتأنى في إجراء العقوبة ، وأن لا يحكم عليه وهو غضبان، فإن مع الغضب شيطاننا ، والقوة الغضبية أميل إلى الجور والعسف، ولذلك أمر النبي ﷺ من غضب بالوضوء أو بالقعود إن كان قائماً ليزول غضبه قبل أن يتصرف ، وليندحر شيطانه .

وإن من فضائل بعض الأنظمة الإدارية المعاصرة أن المسئول لا يجري العقوبة وحده ، وإنما يحيل الأمر إلى لجنة مختصة بدراسة القضايا وتحديد العقوبات المناسبة ، فإن هذا النظام يبعد حالة التصرف مع الغضب تماما ، ويتيح الفرصة لدراسة الأمور بتؤدة وروية ومشورة

بين عدد من الأفراد ، فهو أدنى إلى التثبت والعدالة ، وأبعد من المجازفة والجور .

وإن مما يحمل المسئول أحياناً على القسوة والحيث محاولة الإبقاء على هيئة السلطة والظهور أمام جلسائه ومن تحت إدارته بمظهر القوة ، وقد يداهنه من حوله بتحريضه على المخالف لظنهم بأن ذلك يكسبهم رضاه ، فيسهمون بذلك في حمله على الظلم .

وقد يحصل ما هو ضد ذلك إذا كان لبعض الجلساء أو الإداريين غرض في التخفيف عن المخالف فيحاولون أن يؤثروا على المسئول ليعفو عن المخالف ، وقد يترتب على ذلك تضييع بعض الحقوق أو الجراءة على المخالفة .

ولذلك فإن من أقوى العواصم من الانحراف في الحكم أن تحال القضايا إلى لجان متخصصة لدراستها وتقدير العقوبة المناسبة مع حسن اختيار أعضائها ومراقبتهم .

وإن مما أوصى به عمر بن عبد العزيز في هذا الخطاب أن لا يستجلب المسئول بما يقدمه من خير وإصلاح ثناء الناس ولا جزاءهم ، وإنما يطلب من الله تعالى الأجر والثواب على عمله ليكون خالصاً ، وإذا كان كذلك فإنه أدعى للنجاح في الدنيا والفلاح في الآخرة .

خبره مع المرأة التي فرض لبناتها من بيت المال :

أخرج ابن عبد الحكم رحمه الله ، قال : وقدمت امرأة من العراق على عمر بن عبد العزيز ، فلما صارت إلى بابه قالت : هل على أمير المؤمنين حاجب ؟ فقالوا : لا فلجي إن أحببت ، فدخلت

المرأة على فاطمة وهي جالسة في بيتها ، وفي يدها قطن تعالجه ،
فسلمت فردت عليها السلام وقالت لها : ادخلي ، فلما جلست المرأة
رفعت بصرها فلم تر في البيت شيئاً له بال ، فقالت : إنما جئت
لأعمر بيتي من هذا البيت الخرب ، فقالت لها فاطمة : إنما خرب هذا
البيت عمارة بيوت أمثالك .

قال : فأقبل عمر حتى دخل الدار ، فمال إلى بئر في ناحية الدار
فانتزع منها دلاء فصبها على طين كان بحضرة البيت - وهو يكثر
النظر إلى فاطمة - فقالت لها المرأة : استتري من هذا السطيان
فإنني أراه يديم النظر إليك ، فقالت : ليس هو بطيان ، هو أمير
المؤمنين .

قال : ثم أقبل عمر فسلم ودخل بيته ، فمال إلى مصلى كان له
في البيت يصلي فيه ، فسأل فاطمة عن المرأة ، فقالت : هي هذه ،
فأخذ مكتلاً له فيه شيء من عنب فجعل يتخير لها خيره يناولها إياه ،
ثم أقبل عليها فقال : ما حاجتك ؟ فقالت : امرأة من أهل العراق لي
خمس بنات كُسلٌ كُسد ، فجئتك أبتغي حسن نظرك لهن ، فجعل
يقول : كسل كسد ، ويبيكي ، فأخذ الدواة والقرطاس فكتب إلى والي
العراق ، فقال سمّي كبراهن ، فسمتها ففرض لها ، فقالت المرأة :
الحمد لله ، ثم سأل عن الثانية والثالثة والرابعة ، والمرأة تحمد الله
ففرض لها ، فلما فرض للأربع استفزها الفرح فدعت له فجزته خيراً ،
فرفع يده وقال : كنا نفرض لهن حيث كنت تؤلين الحمد أهله ، فَمُرِّي
هؤلاء الأربع يُفَضَّن على هذه الخامسة .

فخرجت بالكتاب حتى أتت به العراق ، فدفعته إلى والي

العراق، فلما ذهبت إليه بالكتاب بكى واشتد بكاءه، وقال : رحم الله صاحب هذا الكتاب ، فقالت : أمات ؟ قال : نعم ، فصاحت وولولت ، فقال : لا بأس عليك ، ماكنت لأرد كتابه في شيء ، ففضى حاجتها وفرض لبناتها (١) .

في هذا الخبر عدة مواقف :

الأول : شهادة تلك المرأة على زهد عمر بن عبد العزيز ، حيث لم تجد في بيته شيئاً يُذكر من الأثاث ، فيئست من الحصول على ما يصلح شأنها من صاحب ذلك البيت الخرب، ولكن زوجة عمر فاطمة بنت عبد الملك طمأنتها ، حيث بينت لها أن خراب بيت أمير المؤمنين ، إنما هو بسبب عمارته بيوت الرعية، حيث اقتصد في الإنفاق على أسرته وأقاربه ، ووسع في الإنفاق على الرعية .

الموقف الثاني : في تواضع عمر بن عبد العزيز البالغ، وقد ظهر ذلك في قيامه بإصلاح ما خرب من بيته بنفسه، حيث صار يخلط الطين ويصلح به ماتهديم من بيته ، حتى ظنته تلك المرأة طيَّاناً، وحيث قام بعد ذلك بانتقاء جيد الفاكهة ومناولته تلك المرأة المسكينة .

ولاشك أن تواضع الكبار وقيامهم بمثل هذا العمل المدهش، يعتبر من أهم أسباب تقوية المحبة وتثبيت الولاء كما أنه من أبلغ الوسائل لتربية الأمة على التواضع، لأن من في قلبه ميل إلى الكبر سيجد في نفسه صدوداً عن ذلك، وقناعةً بالاعتدال في السلوك، تأسيّاً بأولئك الأكابر .

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ١٦٩ .

والموقف الثالث : في اهتمامه بأمر تلك المرأة المسكينة حيث فرض لها ولبناتها ما يكفيهم من بيت مال المسلمين ، بينما نجده قويًا متصلبًا في معاملة الأكابر ، الذين يريدون أن يأخذوا من مال المسلمين ما لا يحل لهم ، فهو لين متواضع لطلاب الحق ، شديد قوي على طلاب الباطل .

الموقف الرابع : في جواب عمر لتلك المرأة حينما شكرته لما فرض لبنتها الرابعة بعد أن كانت تشكر الله تعالى ، حيث أوقف فرض العطاء لبنتها الخامسة وأمرها بأن تُفيض عليها من عطاء أخواتها ، وهذا الموقف يبين عظمة فهم عمر لتوحيد الله تعالى ، ومبلغ تذكره لعظمته ، وحمده لنعمته ، وقد قام بما قام به من هذا التصرف ليعطي تلك المرأة وغيرها درسًا عمليًا في التوحيد هو أبلغ من الدروس النظرية .

وليس معنى هذا أن شكر المحسنين والدعاء لهم يتنافى مع التوحيد فإن النبي ﷺ يقول « من لم يشكر الناس لم يشكر الله » (١) ، ويقول « من صنع إليكم معروفاً فكافئوه فإن لم تجدوا ماتكافئونه فادعوا له حتى تُروا أنكم قد كافأتموه » (٢) ، وعمر بن عبد العزيز من أعلم المسلمين بالسنة ولكن لما بدأت تلك المرأة بحمد الله تعالى ثم قطعت ذلك وتحولت إلى شكره وهو الدعاء له أحس بأن ذلك مخلٌ بالتوحيد لأن فيه إشعاراً بتقديم شكر المخلوق على شكر الخالق جل وعلا .

(١) مسند أحمد ٢/ ٢٥٨ .

(٢) سنن أبي داود ، رقم ١٦٧٢ ، الزكاة ١/ ٣١٠ ، مسند أحمد ٢/ ٦٨ .

إنصافه الذميين من أهل نجران :

أخرج المؤرخ أبو العباس أحمد بن يحيى البلاذري من خبر الحسن البصري قال : جاء راهبا نجران إلى النبي ﷺ فعرض عليهما الإسلام فقالا : إنا قد أسلمنا قبلك ، فقال ، كذبتما يمنعهما من الإسلام ثلاث ، أكلكما الخنزير ، وعبادتكما الصليب ، وقولكما لله ولد . قالا ، فمن أبو عيسى قال الحسن : وكان ﷺ لا يعجل حتى يأمره ربه فأنزل الله تعالى ﴿ ذَلِكْ تَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴾ (٥٨) إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿ (١) .

فقرأها رسول الله ﷺ عليهما ثم دعاهما إلى المباهلة (٢) وأخذ بيد فاطمة والحسن والحسين فقال أحدهما لصاحبه : اصعد الجبل ولا تباهله فإنك إن باهلتَهُ بُرْتُ بِاللَّعْنَةِ ، قال : فما ترى قال : أرى أن نعطيه الخراج ولا نباهله .

ثم ذكر كتاب النبي ﷺ إليهم وفيه أنه وضع عليهم ألفي حلة في كل عام .

ثم ذكر أن أبا بكر رضي الله عنه أمضى ذلك عليهم .

ثم ذكر رواية من خبر سالم بن أبي الجعد قال : كان أهل نجران قد بلغوا أربعين ألفا فتحاسدوا بينهم فأتوا عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقالوا : أجُلْنَا ، وكان عمر قد خافهم على المسلمين فاغتنمها

(١) سورة آل عمران / ٥٨ - ٥٩ .

(٢) المباهلة الملاعة وهي أن يجتمع القوم إذا اختلفوا في شيء فيقولوا لعنة الله على الظالم منا .

فأجلاهم ، فندموا بعد ذلك وأتوه فقالوا : أقلنا ، فأبى ذلك ، فلما قام علي بن أبي طالب رضي الله عنه أتوه فقالوا : ننشدك خطك يمينك ^(١) وشفاعتك لنا عند نبيك إلا أقلتنا ، فقال : إن عمر كان رشيد الأمر وأنا أكره خلافه .

وذكر أن بعضهم جلا إلى الشام وبعضهم إلى الكوفة ونزلوا في ناحية سُميت النجرانية باسمهم .

وذكر أنهم أتوا إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه وأنه كتب إلى عامله على الكوفة الوليد بن عقبة بأن يضع من جزيتهم مائتي حلة لوجه الله تعالى وعُقْبَى لهم من أرضهم وقال : وإني أوصيك بهم فإنهم قوم لهم ذمة .

وذكر أنهم لما ولي معاوية رضي الله عنه أو يزيد بن معاوية شكوا إليه تفرقهم وموت من مات منهم وإسلام من أسلم منهم وأنهم أحضروا كتاب عثمان بن عفان رضي الله عنه بما حطَّ عنهم من الخلل ، وقالوا : إنما ازددنا نقصانا وضعفا فوضع عنهم مائتي حلة تنمة أربعمئة حلة .

قال : فلما ولي الحجاج بن يوسف العراق وخرج ابن الأشعث عليه اتهم الدهاقين بموالاته واتهمهم معهم فردهم إلى ألف وثمانمئة حلة ، وألزمهم بنوع جيد منها .

قال : فلما ولي عمر بن عبد العزيز شكوا إليه فناءهم ونقصانهم وإلحاق الأعراب بالغارة عليهم وتحميلهم إياهم المؤن المجحفة بهم

(١) يعني أنه هو الذي كتب لهم الكتاب في عهد رسول الله ﷺ .

وظلم الحجاج إياهم ، فأمر فأحصوا فوجدوا على العشر من عدّتهم الأولى ، فقال : أرى هذا الصلح جزية على رؤوسهم وليس هو بصلح على أرضيهم ، وجزية الميت والمسلم ساقطة فالزمهم مائتي حلة قيمتها ثمانية آلاف درهم (١) .

فهذا الخبر يبين لنا شيئاً من علم أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز وعدله ورحمته ، فهو قد أدرك بأن جزية الذميين من أهل نجران على رؤوسهم وليست على أراضيهم ، والأفراد ليس عددهم ثابتاً بل يزيدون وينقصون ، ولما كان عددهم قد أصبح على العشر من عددهم أيام رسول الله ﷺ فإن جزيتهم ينبغي أن تنقص إلى العشر ، وهذا من الفقه في معرفة السنة النبوية ، وقد كلّل فهمه هذا بالعدل والرحمة ، حيث أنقص جزيتهم إلى العشر ، وهو بهذا يكون قد طبق سنة النبي ﷺ في تقدير جزيتهم .

إنصافه الذميين من أهل قبرص :

أخرج البلاذري من طريق محمد بن سعد عن الواقدي بإسناده قال : لم يزل أهل قبرص على صلح معاوية حتى ولي عبد الملك بن مروان فزاد عليهم ألف دينار ، فجرى ذلك إلى خلافة عمر بن عبد العزيز فحطها عنهم ، ثم لما ولي هشام بن عبد الملك ردها ، فجرى ذلك إلى خلافة أبي جعفر المنصور فقال : نحن أحق من أنصفهم ولم نتكثر بظلمهم فردهم إلى صلح معاوية (٢) .

(١) فتوح البلدان / ٨٦ - ٩١ .

(٢) فتوح البلدان / ٢١٠ - ٢١١ .

فهذا أيضا مثل من إنصاف أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز في
معاملة الذميين من أهل قبرص حيث وضع عنهم الزيادة التي رآها
ظلما لهم، وقد تأسى به أمير المؤمنين أبو جعفر المنصور في هذه
العدالة رحمهما الله تعالى .

إنصافه أحد المظلومين من اليمن :

ذكر أبو الحسن علي بن محمد الماوردي أن عمر بن عبد العزيز
رحمه الله خرج ذات يوم إلى الصلاة فصادفه رجل ورد من اليمن
متظلما فقال :

تدعون حيران مظلوما ببابكم فقد أتاك بعيد الدار مظلوم

فقال ماظلامتك ؟ فقال غصبني الوليد بن عبد الملك ضيعتي ،
فقال : يامزاحم اتني بدفتر الصوافي فوجد فيه : أصفى عبد الله
الوليد بن عبد الملك ضيعة فلان، فقال أخرجها من الدفتر وليكتب برد
ضيعته إليه ويطلق له ضِعْف نفقته (١) .

وهكذا طمع في عدل أمير المؤمنين أبناء البلاد البعيدة ، فجاء هذا
الرجل من اليمن يطلب حقه الذي اغتصب منه، فأعاد إليه عمر أرضه
وأعطاه ضِعْف نفقته التي صرفها في سفره، ليكون ذلك تعويضا عما
صرفه في قدومه وماسيصره في عودته، لأن من حقه أن تعود إليه
أرضه المغتصبة وهو في بلده من غير أن يخسر شيئا .

سؤال عطاء عن أحوال عمر بن عبد العزيز :

أرسل عطاء بن رباح إلى فاطمة بنت عبد الملك يسألها عن أحوال

(١) الأحكام السلطانية / ١٠٣ .

عمر بعد موته فقالت : أفعلُ ، إن عمر رحمة الله عليه كان قد فرَّغ للمسلمين نفسه ، ولأمورهم ذهنه ، فكان إذا أمسى مساء لم يفرغ فيه من حوائج يومه وصل يومه بليته ، إلى أن أمسى مساءً وقد فرغ من حوائج يومه ، فدعا بسراجَه الذي كان من ماله ، فصلى ركعتين ثم أقعى واضعاً رأسه على يديه ، تسيل دموعه على خديه ، يشهق الشهقة يكاد ينصدع قلبه لها ، وتخرج لها نفسه حتى برق الصبح فأصبح صائماً ، فدنوت منه فقلت : يا أمير المؤمنين أليس كان منك ما كان ؟ قال : أجل فعليك بشأنك وخلّيني وشأني ، قالت : فقلت : إني أرجو أن أتَّعظ ، قال : إذاً أخبرك ، إني نظرت فوجدتني قد وليت أمر هذه الأمة أسودها وأحمرها ، ثم ذكرت الفقير الجائع ، والغريب الضائع ، والأسير المقهور ، وذا المال القليل والعيال الكثير ، وأشبه ذلك في أقاصي البلاد وأطراف الأرض ، فعلمت أن الله سائلني عنهم ، وأن رسول الله ﷺ حجيبي فيهم ، فخفت أن لا يقبل الله تعالى مني معذرة فيهم ، ولا تقوم لي مع رسول الله ﷺ حجة ، فرحمت والله يافاطمة نفسي رحمة دمعت لها عيني ، ووجع لها قلبي ، فأنا كلما ازددت لها ذكراً ازددت منها خوفاً ، فاتَّعظي إن شئت أو ذري (١) .

وهذا تقدير بالغ من عمر رحمه الله للمسئولية التي تحملها ، حيث تذكر ضعفاء المسلمين وأصحاب الحاجات ، بالرغم مما يبذله من جهد متواصل في التعرف على أحوال الأمة ، ولكن لما كان هذا الأمر غير محصور خشي أن يكون قد بقي من المسلمين من لم تُرفع إليه

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ١٧٠ ، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز

لابن الجوزي / ١٦٠ ، وتاريخ دمشق لابن عساكر ١٩٧/٤٥ .

حاجته ، فيكون مسئولا عنه .

وفي تذكره للحساب والجنة والنار دليل على عمق إيمانه بالغيب حتى أصبح أمامه كالمشاهد ، فأصبح ذلك دافعا له إلى العدل والرحمة ، والمبالغة في تفقد أحوال الأمة .

وفي بكائه الشديد دلالة على عظمة خوفه من الله عز وجل ، وقد عصمه الله تعالى بهذا الخوف من الزلل ، فارتفع بفكره وسلوكه عن المغريات ، وقوي أمام جميع التحديات ، فكلما عظم عليه خطب مجابهة الناس تذكر النار والحساب فهان عليه كل خطب عظيم ، وصغر في نظره كل أمر جسيم .

خبره مع الخوارج :

قال المؤرخ أبو الحسن محمد بن الأثير : في هذه السنة - يعني سنة مائة - خرج شذوب - واسمه بسطام - من بني يشكر في جوفي ، وكان في ثمانين رجلا ، فكتب عمر بن عبد العزيز إلى عبد الحميد عامله بالكوفة : أن لا يحركهم حتى يسفكوا دما ويفسدوا في الأرض ، فإن فعلوا وجه إليهم رجلا صليبا حازما في جند ، فبعث عبد الحميد محمد بن جرير البجلي في ألفين ، وأمره بما كتب به عمر .

وكتب عمر إلى بسطام يسأله عن مخرجه ، فقدم كتاب عمر عليه وقد قدم عليه محمد بن جرير ، فقام بإزائه لا يتحرك ، فكان في كتاب عمر : بلغني أنك خرجت غضبا لله ولرسوله ولست أولى بذلك مني فهلم إلي أناظرك ، فإن كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل فيه الناس ، وإن كان في يدك نظرنا في أمرك .

فكتب بسطام إلى عمر : قد أنصفت وقد بعثت إليك رجلين يدارسانك ويناظرانك ، وأرسل إلى عمر مولى لبني شيبان حبشياً اسمه عاصم ورجلا من بني يشكر ، فقدموا على عمر بخنصرة فدخلوا إليه فقال لهما : ما الذي أخرجكما هذا المخرج وما الذي نقمتم ؟ فقال عاصم : مانقمتنا سيرتك إنك لتتحرى العدل والإحسان فأخبرنا عن قيامك بهذا الأمر أعن رضى من الناس ومشورة أم ابتزرتهم أمرهم ؟ فقال عمر : ما سألتهم الولاية عليهم ولا غلبتهم عليها ، وعهد إلي رجل كان قبلي فقامت ولم ينكره علي أحد ولم يكرهه غيركم ، وأنتم ترون الرضى بكل من عدل وأنصف من كان من الناس ، فاتركوني ذلك الرجل فإن خالفت الحق ورغبت عنه فإطاعة لي عليكم .

فقالا : بيننا وبينك أمر واحد قال : ماهو ؟ قال : رأيك خالفت أعمال أهل بيتك وسميتها مظالم فإن كنت على هدى وهم على الضلالة فالعنهم وابرأ منهم ، فقال عمر . قد علمت أنكم لم تخرجوا طلبا للدنيا ولكنكم أردتم الآخرة فاخطأتم طريقها إن الله عز وجل لم يبعث رسوله ﷺ لعانا ، وقال إبراهيم عليه السلام ﴿ رَبِّ إِنِّهٖنَّ أَضَلُّنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِیْ فَإِنَّهُ مِنِّیْ وَمَنْ عَصَانِیْ فَإِنَّكَ غَافِرٌ رَّحِیْمٌ ﴾ (١) وقال الله عز وجل : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ اٰقْتَدِهٖ قُلْ لَا اَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ اَجْرًا اِنْ هُوَ اِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِیْنَ ﴾ (٢)

وقد سميت أعمالهم ظلماً وكفى بذلك ذمًا ونقصاً ، وليس لعن الذنوب فريضة لا بد منها فإن قلت : إنها فريضة فأخبرني متى لعنت

(١) إبراهيم / ٣٦ .

(٢) الأنعام / ٩٠ .

فرعون ؟ قال : ما أذكر متى لعنته قال : أفيسعدك أن لاتلعن فرعون وهو أخبث الخلق وشرهم ولايسعني أن لا ألعن أهل بيتي وهم مصلون صائمون ؟

قال : أما هم كفار بظلمهم ؟ قال : لا لأن رسول الله ﷺ دعا الناس إلى الإيمان فكان من أقر به وبشرائه قبل منه فإن أحدث حدثا أقيم عليه الحد ، فقال الخارجي : إن رسول الله ﷺ دعا الناس إلى توحيد الله والإقرار بما نزل من عنده ، قال عمر : فليس أحد منهم يقول : لا أعمل بسنة رسول الله ﷺ ولكن القوم أسرفوا على أنفسهم على علم منهم أنه محرم عليهم ولكن غلب عليهم الشقاء .

قال عاصم : فأبرأ عما خالف عملك ورد أحكامهم قال عمر : أخبرني عن أبي بكر ، وعمر أليسا على حق ؟ قال : بلى قال : أتعلمان أن أبا بكر حين قاتل أهل الردة سفك دماءهم وسبى الذراري وأخذ الأموال ؟ قال : بلى قال : أتعلمون أن عمر رد السبايا بعده إلى عشائريهم بفدية ؟ قال : نعم قال : فهل برئ عمر من أبي بكر؟ قال : لا ، قال : أف تبرؤون أنتم من واحد منهما ؟ قال : لا .

قال : فأخبرني عن أهل النهروان وهم أسلافكم هل تعلمان أن أهل الكوفة خرجوا فلم يفسكوا دما ولم يأخذوا مالا . وأن من خرج إليهم من أهل البصرة قتلوا عبد الله بن خباب وجاريته وهي حامل؟ قال : نعم قال : فهل برئ من لم يقتل ممن قتل واستعرض؟ قال : لا ، قال : أف تبرؤون أنتم من أحد من الطائفتين ؟ قال : لا ، قال : أفيسعدكم أن تتولوا أبا بكر وعمر وأهل البصرة وأهل الكوفة وقد

علمتم اختلاف أعمالهم ولا يسعني إلا البراءة من أهل بيتي والدين واحد؟ فاتقوا الله فإنكم جهال تقبلون من الناس ماردٌ عليهم رسول الله ﷺ وتردُّون عليهم ما قبل ، ويأمن عندكم من خاف عنده ويخاف عندكم من آمن عنده، فإنكم يخاف عندكم من يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وكان من فعل ذلك عند رسول الله آمناً وحقن دمه وماله وأنتم تقتلون ، ويأمن عندكم سائر أهل الأديان فتحرمون دماءهم وأموالهم .

فقال اليشكري : أرأيت رجلاً ولي قوماً وأموالهم فعدل فيها ثم صيرها بعده إلى رجل غير مأمون أترأه أدى الحق الذي يلزمه لله عز وجل أو ترأه قد سلم ؟ قال عمر : لا قال : أفتُسلم هذا الأمر إلى يزيد من بعدك وأنت تعرف أنه لا يقوم فيه بالحق ؟ قال : إنما ولاء غيري والمسلمون أولى بما يكون منهم فيه بعدي ، قال : أفترى ذلك من صنع من ولاء حقا ؟ فبكى عمر وقال : أنظراني ثلاثاً .

فخرجوا من عنده ثم عادوا إليه فقال عاصم : أشهد أنك على حق فقال عمر لليشكري : ماتقول أنت ؟ قال : ما أحسن ما وصفت ولكني لا أفئات على المسلمين بأمر ، أعرض عليهم ما قلت وأعلم ما حاجتهم ، فأما عاصم فأقام عند عمر فأمر له عمر بالعطاء فتوفي بعد خمسة عشر يوماً ، فكان عمر بن عبد العزيز يقول : أهلكني أمر يزيد وخصمت فيه فاستغفر الله (١) .

في هذا الخبر تبين لنا بروز أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز

(١) الكامل في التاريخ ٤/ ١٥٥ - ١٥٦ ، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ١٢٧ - ١٣١ ، وتاريخ الطبري ٦/ ٥٥٥ .

وتفوقه في مجالات عديدة ، منها :

١ - أنه التزم المنهج الإسلامي في معاملة المخالفين، فحينما خرج أولئك الخوارج في عهده لم يسلك معهم طريقة أكثر الولاة الذين سبقوه ، حيث كانوا يعقدون الألوية لقتالهم من غير أن يدخلوا معهم في حوار علمي ، بل أرسل إلى أميرهم وطلب منه أن يحضر لمناظرته، وأبدى استعداداه للرجوع عما هو عليه إذا تبين له أن الحق في غيره ، وهذا التنازل مع الخوارج الذين يعتبرون من أعنف المخالفين يدل على تجرده من هوى النفس ، وأن هدفه الأعلى تطبيق الإسلام كما جاء من عند الله تعالى .

٢ - غزارة علمه بالكتاب والسنة والتاريخ ، حيث دخل في حوار مع قوم قد كانوا فرغوا أنفسهم لقضايا علمية محددة خالفوا فيها السواد الأعظم من المسلمين وتعمقوا فيها واستعدوا للجدل والمناظرة حولها، فأفحمهم وقطع حججهم واستطاع أن يؤثر على الرجلين اللذين أوفدوهما حتى اقتنعا برأيه في أغلب القضايا التي ناظره فيها .

٣ - حينما ناقشه الخارجيَّان في ولاية يزيد بن عبد الملك وظهر له الحق في ذلك لم يكابر ولم يغير الحقائق، ولم يدافع عن الواقع الذي هو فيه وإن كان باطلا ، بل ظهر منه ما يدل على اعترافه بأن ذلك الأمر باطل ، وقوله « أهلكني أمر يزيد وخُصِّمت فيه فأستغفر الله » يدل على أنه كان يرى أن تصحيح ذلك الأمر سيوقع في فتنة كبيرة يترتب عليها سفك دماء المسلمين ، وهو شديد الورع في ذلك .

وذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر الوليد بن مسلم قال، قال الأوزاعي : لما استخلف عمر بن عبد العزيز كتب إليه رجل من

الشراة(١) يقال له عمرو بأبيات :

قل للمولّى على الإسلام مؤتلفا وقد يرى أنه رثُ القوى واهي
إذ رابه معشر عدّوه مأكلة بنخوة الملك والإسراف والباه
إنا شرينا بدين الله أنفسنا نبغي بذاك إليه أعظم الجاه
ينهى الولاة بحد السيف عن سرف كفى بذاك لهم من زاجر ناهي
وإن قصدت سبيل الحق ياعمرا آخاك في الله أمثالي وأشباهي
وإن لحقت بقوم كنت واعظهم في جور سيرتهم فالحكم لله

قال فأجابه عمر بن عبد العزيز :

ياأيها الرجل المهدي نصيحتة إن المحاسن والتوفيق بالله
إن كان أمر من السلطان تنكره فماعرى الدين والإسلام بالواهي
هذا الكتاب كتاب الله نقرؤه مصدق الوحي فينا أمر ناهي
فقد يزُلُّ الذي يبغى الهدى رهقا عند الشريعة وهو العالم الداهي
الملك ياعمرو ملك الله خالقنا والحكم ياعمرو مردود إلى الله

قال فأتاه فبايعه ولم يخرج عليه (٢).

وهذا الخبر يدل على تفوق أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز في
إنشاء الشعر حيث رد بهذه الأبيات الشعرية على البديهة، وهي أبيات
رصينة في معناها ومعناها .

(١) يعني من الخوارج .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز / ١٩٧ .

٤ - جهوده في الدعوة والإصلاح -

من توجيهاته في آداب الصحبة :

إن من مواقف عمر بن عبد العزيز رحمه الله القيام بتوجيه أفراد الأمة نحو السلوك القويم، ومن نماذج ذلك ما جاء في رواية لابن عبد الحكم قال : ولما ولي عمر بن عبد العزيز قام الناس بين يديه ، فقال : يامعشر المسلمين إن تقوموا نقم وإن تقعدوا نقعد ، فإنما يقوم الناس لرب العالمين ، إن الله فرض فرائض وسنن سننا ، من أخذ بها لحق ، ومن تركها مُحق ، ومن أراد أن يصحبنا فليصحبنا بخمس ، يوصل إلينا حاجة من لاتصل إلينا حاجته ، ويدلنا من العدل إلى ما لانهتدي إليه ، ويكون عوناً لنا على الحق ، ويؤدي الأمانة إلينا وإلى الناس ، ولا يغترب عندنا أحداً ، ومن لم يفعل فهو في حرج من صحبتنا والدخول علينا (١) .

ففي هذا الخبر مثل من تواضع عمر ورغبته الأكيدة في القضاء على العادات الموروثة التي أشبه بها الولاة آنذاك الأكاسرة والقياصرة . . وعزم صارم على العودة بالأمة إلى منهج الخلفاء الراشدين .

وعمر بهذا يحجّم دافعَيْن قويين يدفعانه إلى مجاراة عشيرته في مظاهرهم . . أولهما طموح النفس نحو الظهور وفرض السلطة والهيبة في قلوب الناس ، وثانيهما : رغبة عشيرته الملحة في الإبقاء

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٤١ وانظر البداية والنهاية ٢٠٦/٩ ،

وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ٥٢ ، وتاريخ دمشق ١٦٩/٤٥ .

على هذه المظاهر ، وتشنيعهم عليه في مخالفة ما كان عليه أسلافه .
ولكنه تغلب على هذين الدافعين بحزم وإيمان قوي ، وكان الدافع
الذي يدفعه إلى التواضع ورفض المظاهر الدنيوية هو خوفه من الله
تعالى ورغبته فيما عنده ، وطموح فكره نحو الآخرة وتجاوز المستقبل
الدنيوي ، وكان هذا الدافع عنده أقوى بكثير من الجواذب الأرضية ،
فنجح في إجماع نفسه عن هواها ، وإسكات أصحاب المظاهر الخادعة ،
وتصحيح مفاهيم المجتمع فيما يجب أن يكون عليه الولاية والعلاقة
بينهم وبين الرعية .

وفي قوله « إن الله فرض فرائض » بيان لأسباب السعادة
والشقاوة الحقيقية في الدنيا والآخرة ، فمن طبقها لحق بركب المتقين
في الدنيا ، وأكرم به من رفقة صالحة ، وسبق يوم القيامة إلى رضوان
الله تعالى والجنة ، وأكرم به من مآل وعاقبة .

ثم رسم منهجه الذي يريده ممن يريد صحبته في مجالسه حيث
حدد لهم الخصال الخمس التي يريدها منهم ، وكأنه يقول لهم إن عهد
النفعيين الذين يصحبون السلطان لتيسير مصالحهم ومصالح عشائهم
قد انتهى ، فمن كان يريد صحبة الأمير فليصحبه للنظر في حوائج
المسلمين العامة ، والنظر في رفع مستوى الأمة في مجالات الخير ،
وتقريب الصلة بينها وبين ولايتها ، وذلك بإيصال حاجة من لا يستطيع
الوصول بنفسه ، وكم في الأمة من أمثال هؤلاء الذين يموت أحدهم
وحاجته تتلجلج في صدره لا يستطيع أن يجاوز بها محيط أسرته ،
والذين يقومون بذلك هم من روّاد الإصلاح في المجالين : مجال

المسؤولين : حيث يعينونهم على أداء مسئوليتهم في أمور قد لاتصل إليهم وهم مسئولون عنها ، وفي مجال أولئك المغمورين الذين قد لا يصلون إلى قضاء حوائجهم إلا بمثل هؤلاء المصلحين .

إن الذين يبذلون جاههم لوجه الله تعالى قليل ، وإذا فعلوا ذلك فربما بدؤوا وساطة الخير ثم قد لا يكملونها ، وكأنما أرادوا مجاملة صاحب القضية ورأوا أن ما قاموا به يكفي في ذلك ، ولكنهم في الحقيقة لم يصنعوا له شيئاً إذا لم يساعده على نجاح قضيته ، أما الذين يريدون وجه الله تعالى فإن الذي يهمهم هو النظر في إسعاد إخوانهم المسلمين والسعي في إنهاء قضاياهم ليحصلوا على ثواب الله العظيم الذي بذلوا جاههم من أجله .

وفي الخصلة الثانية يوصي عمر من أراد صحبته أن يدلّه من العدل إلى ما لا يهتدي إليه ، وهي رغبة صادقة من عمر رحمه الله في الوصول إلى كمال العدل ، فبالرغم من اجتهاده في ذلك فإنه يدرك أن الحاكم قد تخفّى عليه بعض جوانب العدل ، فإذا كان أصحابه من المهتمين بهذا الجانب ، وقد أدركوا رغبته في ذلك فإن أفكارهم تتفتّق على جوانب من العدل قد لاتخطر ببال ذلك الوالي وإن كان عظيم الاهتمام بالعدل لأنه لا يملك إلا فكراً واحداً ، لكنه حينما يجنّد من حوله لخدمة هذه القضية التي وقف عليها حياته فإنه سيملك نتاج أفكار كثيرة ، تُهدي إليه من درر النصائح ما لا يخطر له على بال .

وهكذا كانت عظمة العظماء من الأمراء والقادة الذين رفعوا في حياتهم قضية كبرى ، ووجهوا كل اهتماماتهم واهتمام من حولهم

نحو هذه القضية ، فإنهم ينجحون في قضيتهم غالبا ، سواء كانت من قضايا الدنيا البحتة أو من قضايا الدنيا والآخرة ، بسبب مشورة الناصحين الذين يجندون عقولهم لخدمة تلك القضية .

وفي الخصلة الثانية يقول « ويكون لنا عوناً على الحق » وعُمر بهذا يفتح المجال واسعا أمام رواد الإصلاح الذين يرون الحق واضحا ويتمنون أن تكون لهم قدرة على تنفيذه ، فقد فُتح الباب أمامهم في عهد عمر من أعلى سلطة في البلاد ، ولاشك أن من لديه أي منهج للإصلاح وتنفيذ الحق سيسارع إلى تلبية هذا النداء ، مستفيداً من ذلك التعاون المتبادل بين الراعي والرعية .

ثم يقول « ويؤدي الأمانة إلينا وإلى الناس » ، فإداء الأمانة دليل على قوة الإيمان وطهارة النفس من الأنانية وحب الدنيا ، وعلى طموحها إلى ابتغاء رضوان الله تعالى والسعادة الأخروية ، وذكر أداء الأمانة إلى الناس لبيان أصالة الأمانة واشتمال صاحبها على الإخلاص ، لأن من يؤدي الأمانة لأصحاب السلطة ولا يؤديها لعامة الناس ، قد يفعل ذلك خوفاً من صاحب السلطة ومراعاة له ، لكن حينما يكون أميناً مع عموم الناس فإن هذا يدل على إخلاصه لله تعالى .

ثم قال « ولا يغتب عندنا أحدا » وهذه الخصلة من الخصال التي أوصى بها العباس ابنه عبد الله رضي الله عنهما في مجالسته لأئمة المؤمنين عمر رضي الله عنه حتى تظل ثقته به قائمة .

وذلك أن من تكلم في الآخرين عند المسئولين فهو رجل وُصولي ، يحاول الوصول إلى كسب ثقة المسئول على حساب تجريحه

لأعراض إخوانه المسلمين ، وهؤلاء الذين يغتابون الناس عند المسئولين هم من النوع الذي يستهويه المجد الدنيوي ويريد الوصول إليه بدون تضحية ولا نصب ، فتلوح لهم أعراض إخوانهم كطريق سهل للوصول ، ويجدون أحياناً آذاناً صاغية ورغبة في الاستزادة فلا يزالون في رمي جثث إخوانهم والتسلق عليها للوصول إلى أهدافهم الدنيوية .

ولقد كان اختيار أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز موفقاً في هذه الشروط التي اشترط توفرها فيمن يريد صحبته ، وختمها بهذا الشرط دليل على فقهه الاجتماعي ، وإدراكه العميق لما للغيبة من آثار سيئة ، خاصة في العلاقة بين الحاكم والمحكومين وهو المجال الذي اهتم به عمر وحدد هذه الشروط من أجله .

من تذكره بالآخرة :

إن من مواقف أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رحمه الله في الدعوة قوله في خطبة له : إني لم أجمعكم لأمر أحدثه ، ولكني نظرت في أمر معادكم وما أنتم إليه صائرون فوجدت المصدق به أحق ، والمكذب به هالكا ، ثم نزل (١) .

وهذه خطبة بليغة على قصرها ، فإنها تذكر حية بمصير الإنسان بعد الموت ، فالذي يؤمن بالبعث بعد الموت وما قبله من عذاب القبر ونعيمه وما بعد ذلك من الحساب والمصير إلى النعيم الدائم أو إلى الشقاء الدائم ، ثم لا يُعدُّ العدة الكافية لذلك اليوم يعتبر حقاً أحق ، حيث لم يستعمل عقله في الإعداد لمستقبله بعد الموت مع إيمانه بما سيكون فيه .

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٤٢ .

أما المكذب به فهو هالك لأن من كذب بالبعث فهو كافر مخلد في النار يوم القيامة .

من جهوده في تصحيح المفاهيم الخاطئة :

إن من مظاهر العظمة في حياة أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز رحمه الله أنه جمع بين السياسة الواعية العادلة والعلم والدعوة فمن مواقفه في الدعوة قوله في إحدى خطبه : أما بعد أيها الناس فلا يطولنَّ عليكم الأمد، ولا يبعدنَّ عليكم يومُ القيامة ، فإن من وافته منيته فقد قامت قيامته، لا يَسْتَعْتَب من سيء ولا يزيد في حسن ، ألا لاسلامة لا مرئ في خلاف السنة ، ولا طاعة لمخلوق في معصية الله ، ألا وإنكم تعدون الهارب من ظلم إمامه عاصيا ، ألا وأن أولاهما بالمعصية الإمام الظالم ، ألا وإنني أعالج أمراً لا يعين عليه إلا الله ، قد فني عليه الكبير ، وكبر عليه الصغير ، وفصح عليه الأعجمي ، وهاجر عليه الأعرابي ، حتى حسبه دينا لا يرون الحق غيره، ثم قال : إنه لحبيب عليّ أن أوفر أموالكم وأعراضكم إلا بحقها ولا قوة إلا بالله (١) .

ففي هذه الخطبة يُذكر عمر بن عبد العزيز المسلمين بقرب يوم القيامة ، فإن من وافته منيته فقد قامت قيامته ، فليُنظر إلى الموت الذي قد يفاجئه في أية لحظة ، وحينها لا يستطيع أن يعتذر من أعماله السيئة التي سودَّ بها صحيفته ، ولا يستطيع أن يستزيد من عمل صالح يبيّض به صحيفته ، ويندم حينما لا ينفع الندم على مافاتاته في حياته يوم أن كان قادراً على التوبة النصوح والتزود بالعمل الصالح .

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٤٣ .

ثم يبين أن السلامة كل السلامة في اتباع سنة رسول الله ﷺ ، وهذا بيان لأحد عنصري العمل الصالح ، وهما الإخلاص لله تعالى ومتابعة السنة ، وهو بهذا يعالج واقعاً لا ينقص العمل فيه الإخلاص وإنما ينقصه اتباع السنة ، حيث فشت البدع بعد انقراض عهد الصحابة رضي الله عنهم ، وفساد بعض الولاة الذين يحاربون بعض السنن التي لا تتفق مع أهوائهم .

ثم يبين أحد العواصم التي تعصم من انتشار البدع وفساد أمور الأمة حيث يقول « ولا طاعة لمخلوق في معصية الله » فإذا كان بعض الولاة قد تسوّل لهم نفوسهم الأمانة بالسوء أو مجاملة الآخرين بأن يأمرؤا الناس بمعصية الله تعالى ، أو يمهّدوا السبل لذلك فإنه لا طاعة لهم ، وبهذا ينقطع سبب مهم من أسباب سريان تلك المخالفات وهو ما لولاة الأمر من طاعة على الأمة ، فإذا تحدّدت هذه الطاعة بطاعة الله تعالى لم يكن لهوى النفوس تأثير على انتشار الفساد في المجتمع وتصبح الكلمة لأهل الإصلاح .

ثم يبين أن ما جرى عليه العرف من اعتبار الهارب من إمامه الظالم عاصياً ليس له اعتبار في النظر الشرعي ، لأن تصرفه هذا هو أحد الأسباب التي يتخذها للخلاص من الظلم ، وأوّلَى من يوصف بالمعصية من وقع منه الظلم .

وكون عمر يبين هذا وهو في أعلى موقع من المسؤولية دليل على تجرده من حظ النفس ومن العصبية للقرابة وإخلاصه لله تعالى .
ثم يصف الواقع الاجتماعي الذي اختلطت فيه العادات بالدين ،

والبدع بالسُنن ، ونشأ عليه أفراد المجتمع ، وتربى على توجيهه من أسلم من العجم ، ومن هاجر من الأعراب حتى حسبه هو الدين ، وحينما يختلط العرف الاجتماعي فيتسرب إلى العرف الإسلامي بعض الأعراف الجاهلية فإن ذلك يؤثر على تربية أفراد المجتمع ، وتتشرب قلوبهم لأن الأعراف الجاهلية تميل إلى تلبية أهواء النفوس وإن كانت منحرفة جائزة ، فيصعب بعد ذلك على المصلحين أن يخلّصوا العرف الاجتماعي الإسلامي من تلك الأخطا المتسرّبة المتراكمة على مر الزمن ، لأن كل انحراف له أنصاره ومؤيدوه ، وليس كل أفراد المجتمع يفهمون الأمور على حقيقتها ، وحينما يقوم المصلحون بمحاولة التنقية يقوم دعاة السوء بتشويه إصلاحيهم ودعوة الناس إلى البقاء على الموروثات ، لأن كونها موروثات يعطيها في نظر بعض الناس شيئاً من القداسة ، ولكن حينما ينبع الإصلاح من أعلى قمة في المسؤولية كما هو الحال في عهد عمر بن عبد العزيز فإن نتائج الإصلاح تكون كبيرة وسريعة المفعول ، لأن معه ماخوّل الله تعالى من طاعة الرعية مادام في طاعة الله تعالى إلى جانب قوة السلطان المعهودة .

إنكاره العصية القبلية :

كتب عمر بن عبد العزيز إلى الضحاك بن عبد الرحمن ، وكان مما جاء في كتابه : إن ما هاجني على كتابي هذا أمر ذكر لي عن رجال من أهل البادية ، ورجال أمروا حديثاً ، ظاهر جفاؤهم ، قليل علمهم بأمر الله اغتروا فيه بالله غرة عظيمة ، ونسوا فيه بلاءه نسياناً عظيماً ،

وغيروا فيه نعمة تغييراً لم يكن يصلح لهم أن يبلغوه، وذكر لي أن رجالاً من أولئك يتحاربون إلى مُضَر وإلى اليمن، يزعمون أنهم ولاية على من سواهم ، وسبحان الله وبحمده ما أبعدهم من شكر نعمة الله، وأقربهم من كل مهلكة ومذلة وصُغُر، قاتلهم الله أية منزلة نزلوا، ومن أي أمان خرجوا، أو بأي أمر لصقوا، ولكن قد عرفت أن الشقي بنيتة يشقى ، وأن النار لم تُخلق باطلاً. أو لم يسمعوا إلى قوله الله في كتابه ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (١) وقوله ﴿ الْيَوْمَ يَأْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٢) وقد ذكر لي مع ذلك أن رجالاً يتداعون إلى الحلف، وقد نهى رسول الله ﷺ عن الحلف وقال لا حلف في الإسلام قال : وما كان من حلف في الجاهلية فلم يزد الإسلام إلا شدة فكان يرجو أحد من الفريقين حفظ حلفه الفاجر الآثم الذي فيه معصية الله ومعصية رسوله، وقد ترك الإسلام حين انخلع منه وأنا أحذر كل من سمع كتابي هذا ومن بلغه أن يتخذ غير الإسلام حصناً، أو دون الله ودون رسوله ودون المؤمنين وليجة، تحذيراً بعد تحذير ، وأذكرهم تذكيراً بعد التذكير وأشهد عليهم الذي هو آخذ بناصية كل دابة ، والذي هو أقرب إلى كل عبد من حبل الوريد، وإني لم ألكم بالذي كتبت به إليكم نصحاً ، مع أنني لو أعلم أن أحداً من الناس

(١) سورة الحجرات الآية ١٠ .

(٢) سورة المائدة الآية ٣ .

يحرك شيئاً ليؤخذ له به . أو ليدفع عنه ، أحرص - والله المستعان -
على مَذَلَّتِهِ مَنْ كَانَ : رجلاً أو عشيرةً أو قبيلةً أو أكثر من ذلك ،
فادعُ إلى نصيحتي وما تقدمت إليكم به ، فإنه هو الرشد ليس له
خفاء ، ثم ليكن أهل البر وأهل الإيمان عوناً بالستهم ، وإن كثيراً من
الناس لا يعلمون . نسأل الله أن يخلف فيما بيننا بخير خلافة في ديننا
وألفتنا وذات بيننا والسلام (١) .

في هذا الكتاب يعالج أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز انحرافاً
خطيراً طرأ على المجتمع الإسلامي آنذاك ، وهو أن طائفة من المسلمين
الذين لم يتمكن الإيمان من قلوبهم ، ولم تعمّر أفكارهم بالعلم
الشرعي ، قد اتخذوا لأنفسهم علاقات من روابط الجاهلية التي تقوم
على القبائل والعشائر ، فيعطي الواحد منهم ولاءه لقبيلته سواء بالحق
أو بالباطل وسواء بالعدل أو بالظلم ، ويجعل من قبيلته قضية يهتم
لها ويدافع عنها ويدعو لها ، وقد أغفلوا بذلك الرابطة الإسلامية التي
شرف الله تعالى العرب بها ، حتى أصبحوا بها إخوة في الله متحابين
بعد أن كانوا أعداء متحاربين ، وسادوا بجماعتهم العالم .

وقد استفحلت هذه القضية حتى أصبح بعض المجاهدين الذين
خرجوا من بلاد العرب للجهاد في سبيل الله تعالى يتحاربون بينهم
بدعوى قبلية ، مما سبب تأخراً في تقدم الجهاد ، وجراً أصحاب البلاد
المفتوحة على الانتفاض على المسلمين مرة بعد مرة ، ووصلت الحال
في بعض البلاد إلى أنه كلما تولى رجل له قبيلة في تلك البلاد قرب

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ١٠٣ - ١٠٦ .

أفراد قبييلته وقواهم وتقوى بهم ، فتحدث الفتنة وتشور القبائل الأخرى ، و ماذاك إلا بسبب طرح رابطة الإسلام التي هي نعمة كبرى على المسلمين ، وإتخاذ الروابط الجاهلية بديلا عنها .
اهتمامه بشكر النعمة :

لقد تفوق عمر بن عبد العزيز بالعلم والاهتمام بالدعوة ، فمن ذلك أن عدي بن أرطاة واليه على البصرة كتب إليه يقول : لقد أصاب الناس من الخير خيراً حتى خشيت أن يبطروا ، قال : فكتب إليه عمر : إن الله تبارك وتعالى حين أدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار رضي من أهل الجنة بأن قالوا ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ (١) فمر من قبلك أن يحمدا الله (٢) .

وهذا يعتبر إدراكاً عالياً من عمر رحمه الله لشكر نعمة الله تعالى ، وهو مثل من فهمه العالي لتوحيد الله جل وعلا ، فإن النعمة مهما كثرت فإنه لا ضرر منها على توحيد المسلم مادام حامدا لله تعالى ، شاكراً لأنعمه ، بل إن زيادة النعمة تقتضي زيادة الحمد والشكر فيزداد العبد التقي إيماناً وعملاً صالحاً .

واستشهد عمر رحمه الله بقول أهل الجنة ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ وقد وفق في ذلك ، فليكن المسلم في الدنيا على سنن

(١) الزمر / ٧٤ .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٦٩ .

أهل الجنة في الحمد والشكر ، حيث إن الله تعالى سيوفق أهل الجنة إلى أعلى المقامات .

اهتمامه بتعليم أهل البادية :

اهتم عمر بن عبد العزيز بدعوة أهل البادية إلى الإسلام وتعليمهم ، ومن أمثلة اهتمامه بهذا الجانب إرساله يزيد بن أبي مالك والحارث بن محمد إلى البادية ليعلِّما الناس السنة ، وأجرى عليهما الرزق ، فقبل يزيد ولم يقبل الحارث وقال : ماكنت لأخذ على علم علمنيه الله أجراً فذكر ذلك لعمر بن عبد العزيز فقال : مانعلم بما صنع يزيد بأساً ، وأكثر الله فينا مثل الحارث (١) .

وهذا دليل على فقه عمر حيث أقر يزيد بن أبي مالك على أخذ المساعدة المادية ، لأنها في مقابل تفرغه لتعليم العلم حتى لا يكون مضطراً إلى العمل في طلب الرزق فيشغله ذلك عن التعليم ، وحيث أثنى على الحارث بن محمد على ورعه وطلبه الكمال في دينه .

وإن موقف الحارث هذا يعتبر مثلاً جيداً من أمثلة الورع وشكر النعمة حيث اعترف بنعمة الله عليه بالعلم وعرف أن من شكر ذلك أن يهب علمه لمن شاء بلا أجر ولا مكافأة من الدولة .

اهتمامه بالدعوة إلى الإسلام :

إضافة إلى ما تقدم ذكره من أن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز / ١٦٠ لابن عبد الحكم ، سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ٦٠ .

قد وضع الجزية عمن أسلم وما كان لذلك من أثر من دخول الكفار في الإسلام فإنه قد كتب إلى ملوك الكفار يدعوهم إلى الإسلام، ومن ذلك ما ذكره المؤرخ ابن الأثير في حوادث سنة مائة للهجرة حيث قال: وفيها كتب عمر بن عبد العزيز إلى ملوك السند يدعوهم إلى الإسلام على أن يملكهم بلادهم ولهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين - وقد كانت سيرته بلغتهم - فأسلم جيسيه بن داهر (١).

وما جاء في هذه الرواية من ذكر ملوك السند المقصود بهم من لم يدخلوا في الإسلام قبل ذلك، والمعروف في فتوح السند أن ملوك السند قد دخلوا في الإسلام ماعدا جيسيه بن داهر الذي فر إلى كشمير، فلعل صواب الرواية أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى ملوك السند والهند.

وقد جاء في خبر ذكره ابن تَغْرِي بَرْدِي ما يؤيد ذلك حيث قال: قال ابن عساكر: كتب ملك الهند إلى عمر بن عبد العزيز: من ملك الهند والسند ملك الأملاك، الذي هو ابن ألف ملك وتحتة ابنة ألف ملك، والذي في مملكته نهران يُنبَتان العود والكافور والأكرسة التي يوجد ريحها من اثني عشر فرسخاً، والذي مربوطه ألف فيل وتحت يده ألف ملك إلى ملك العرب:

أما بعد: فإن الله قد هداني إلى الإسلام فابعث إلي رجلاً يعنسي من السلام والقرآن وشرائع الإسلام، وقد أهديت لك هدية من

(١) الكامل في التاريخ ٤/ ١٦٠، وقد جاء اسم هذا الملك في الكامل جيشبة بن داهر، وهو خطأ والصواب ما أثبتته كما تقدم كثيراً في فتوح السند.

المسك والعنبر والند والكافور فاقبلها ، فإنما أنا أخوك في الإسلام ،
والسلام (١) .

ومن أخبار انتشار الإسلام بين الكفار في عهد عمر بن عبد العزيز
بسبب دعوته مذكره البلاذري في أخبار فتح المغرب والأندلس قال :
ثم لما كانت خلافة عمر بن عبد العزيز رحمه الله ولي المغرب
إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر مولى بني مخزوم ، فسار أحسن
سيرة ، ودعا البربر إلى الإسلام ، وكتب إليهم عمر بن عبد العزيز
كتبا يدعوهم بَعْدُ إلى ذلك ، فقرأها إسماعيل عليهم في النواحي
فغلب الإسلام على المغرب (٢) .

وهكذا استثمر أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز الفتوح الإسلامية
التي سبقته للدعوة إلى الإسلام ، فإن دخول الناس في الإسلام هو
الهدف من تلك الفتوحات ، ولقد كان تجرُّ بعض الولاة السابقين
وظلمهم من أسباب تعويق انتشار الإسلام ، لأن الجهاد ماهو إلا فتح
طرق لنشر الإسلام ، وذلك بإزالة الحكومات الطاغية التي تحول بين
شعوبها والتعرف على الإسلام ، فإذا فتح الطريق وزالت العوائق فإن
الأمم تنجذب إلى الإسلام بقدر ماترى من أخلاق أمة الإسلام وعدالة
حاكميها ، ولقد كان عمر بن عبد العزيز في قمة الأخلاق والعدالة
واختار ولاة اجتهد في انتقائهم ليمثلوا الإسلام ويدعوا الناس إليه
بأقوالهم وأفعالهم ، فكان لذلك نتائج طيبة في إقبال الناس على
الدخول في الإسلام .

(١) النجوم الزاهرة ١ / ٢٤٠ .

(٢) فتوح البلدان / ٣٢٤ .

اهتمامه بإصلاح المجتمع :

لم يقتصر اهتمام عمر بن عبد العزيز على الدعوة ، بل كان اهتمامه كبيراً بإصلاح المجتمع والأمر بإزالة مايتفشى فيه من المنكرات ، وقد كَتَبَ في ذلك إلى أحد ولاته كتاباً طويلاً بليغاً ، نورد بعض فقراته لأهميته وعظيم فائدته ، وفيه يقول : أما بعد فإنه لم يظهر المنكر في قوم قط ثم لم ينههم أهل الصلاح منهم إلا أصابهم الله بعذاب من عنده أو بأيدي من يشاء من عباده، ولا يزال الناس معصومين من العقوبات والنقَمات ما قُمع فيهم أهل الباطل ، واستخفي فيهم بالمحارم ، فلا يَظْهَرُ من أحدٍ منهم محرّمٌ إلا انتقموا ممن فعله، فإذا ظهرت فيهم المحارم فلم ينههم أهل الصلاح نزلت العقوبات من السماء إلى الأرض على أهل المعاصي والمداهنيين لهم، ولعل أهل الإدهان أن يهلكوا معهم وإن كانوا مخالفين لهم ، فإنني لم أسمع الله تبارك وتعالى فيما نزلَ من كتابه عند مُثْلَةِ أَهْلِكَ بها أحداً نَجَّى أحداً من أولئك ، إلا أن يكونوا الناهين عن المنكر ، ويسلط الله على أهل تلك المحارم إن هو لم يُصِبْهُمْ من عنده أو بأيدي من يشاء من عباده من الخوف والذل والنقَم ، فإنه ربما انتقم بالفاجر من الفاجر وبالظالم من الظالم ، ثم صار كلا الفريقين بأعمالهما إلى النار ، فنعوذ بالله أن يجعلنا ظالمين ، أو أن يجعلنا مداهنيين للظالمين .

وإنه قد بلغني أنه قد كثر الفجور فيكم وأمنَ الفسادُ في مدائنكم وجاهرُوا من المحارم بأمر لا يحب الله تعالى مَنْ فعله، ولا يرضى المداهنة فيه ، كان لا يُظْهَرُ مثله علانيةً قوم يرجون لله وقاراً ،

ويخافون منه غيراً ، وهم الأعززون الأكثرون من أهل الفجور ، وليس بذلك مضى أمر سلفكم ، ولا بذلك تمت نعمة الله تعالى عليهم ، بل كانوا كما قال الله تعالى ﴿ أَشَدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رَحِمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ (١) ﴿ أَذَلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ﴾ (٢) ولعمري إن من الجهاد في سبيل الله الغلظة على أهل محارم الله تعالى بالأيدي والألسن والمجاهدة لهم فيه ، وإن كانوا الآباء والأبناء والعشائر ، وإنما سبيل الله طاعته .

ولقد بلغني أنه بطأ بكثير من الناس عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر اتقاء التلاوم أن يقال : فلان حسن الخلق قليل التكلف ، مقبل على نفسه ، وما يجعل الله أولئك أحاسنكم أخلاقاً ، بل أولئك أسوأكم أخلاقاً ، وما أقبل على نفسه من كان كذلك ، بل أدبر عنها ، ولا سلم من الكلفة لها بل وقع فيها ، إذ رضي لنفسه من الحال غير ما أمر الله أن يكون عليه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٣) .

ففي هذا الكتاب المهم يبين عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى سنة الله جل وعلا التي لا تتخلف ، وهي أن أي مجتمع يجاهر فيه أهل الفساد بمعاصيهم ، ثم لا ينهاهم أهل الصلاح ولا ينكرون عليهم فلا بد أن يصيبهم الله تعالى بإحدى ثلاث : أن يصيبهم الله بعذاب من عنده ، أو أن يصيبهم بعذاب على أيدي من يشاء من عباده ، وقد يكون هؤلاء من الظلمة الجبارين فينتقم الله بهم من العصاة الفجار ،

(١) سورة الفتح / ١٩ .

(٢) سورة المائدة / ٥٤ .

(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ١٦٠ .

أو يصيبهم الله بالخوف والذل وأنواع النقم والمصائب .

ويبين عمر في هذا الكتاب أن السكوت عن أهل المعاصي المجاهرين ليس من عمل الصحابة رضي الله عنهم ، بل قد وصفهم الله تعالى بالشدة والغلظة على المخالفين المجاهرين بالمعاصي .

ويذكر أن من الجهاد في سبيل الله تعالى الغلظة على متهمي محارم الله والانكار عليهم بالأيدي والألسن وإن كانوا من أقرب الأقارب ، وهذا التوسع في معنى الجهاد له أدلته الشرعية ، مثل قول الله جل وعلا ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ (١) وإنما يكون جهاد المنافقين بالإنكار عليهم والشدة في معاملتهم ، ومثل ما جاء في قول رسول الله ﷺ «جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم» (٢) .

ويصحح عمر في هذا الكتاب مفهوماً خاطئاً عند بعض الناس ، وهو وصفهم القاعد عن إنكار المنكر بأنه حسن الخلق قليل التكلف مقبل على نفسه ، حيث يبين أن هذا سيء الخلق ، حيث تعامل مع المخالفين بالسلبية وعدم المبالاة مع أنهم بحاجة إلى الشفقة والرحمة ، وإنما يظهر ذلك بمحاولة إصلاحهم ، ويرد على قولهم بأنه قليل التكلف مقبل على نفسه بأنه لم يقبل على نفسه بمحاولة إنقاذها من النار ورفع درجتها في الجنة ، بل أقبل على هلكتها ، حيث إن

(١) سورة التحريم / ٩ .

(٢) ذكره التبريزي في مشكاة المصابيح من رواية أبي داود والنسائي والدارمي ، وصححه

الألباني - ٣٥٥ / ٢ رقم ٣٨٢١ - .

السكوت عن الإنكار معصية يحاسب عليها مرتكبها وقد توردته إلى النار ، وإذا كان في مفهوم الناس أن الساكت قليل التكلف فإنه قد تكلف أمراً عظيماً حيث خالف أمر الله تعالى ورسوله ﷺ بما وجب عليه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وكانت كتب عمر بن عبد العزيز كلها في إصلاح المجتمع كما جاء في خبر إبراهيم بن جعفر عن أبيه قال : ما كان يقدم على أبي بكر ابن محمد بن عمرو بن حزم كتاب من عمر إلا فيه رد مظلمة أو إحياء سنة أو إطفاء بدعة أو قسَم أو تقدير عطاء أو خير ، حتى خرج من الدنيا (١) .

وهذا يبين لنا ضخامة المجهود الإصلاحى الذي قام به أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى .

ويبين رحمه الله شدة اهتمامه بالإصلاح وحماسه له بقوله : فلو كان كل بدعة يميئتها الله تعالى على يدي ، وكل سنة ينعشها الله سبحانه على يدي ببضعة من لحمي حتى يأتي آخر ذلك على نفسي كان في الله يسيراً (٢) .

إباحته المراعى العامة للأمة :

أخرج ابن سعد من خبر إسماعيل بن أبي حكيم : أن عمر بن عبد العزيز لما استخلف أباح الأحماء كلها إلا النقيع (٣) .

(١) طبقات ابن سعد ٣٤٢/٥ .

(٢) المرجع السابق ٣٤٣/٥ .

(٣) طبقات ابن سعد ٣٤٥/٥ .

وأخرج أيضا من خبر عبد الرحمن بن حسن عن أبيه أن عمر بن عبد العزيز كتب : فما حمى من الأرض أن لا يُمنع أحد مواقع القطر، فأبج الأحماء ثم أبجها (١).

والحمى هو جزء من أرض المراعي يُحمى لشخص أو قبيلة أو أي جهة أخرى، وقد كان الحمى في عهد الخلفاء الراشدين لمصالح الأمة العامة كمواشي الصدقة، ثم توسع الناس بعد ذلك في الحمى فصار بعض الأحماء لمصالح خاصة، فلما تولى الخلافة عمر بن عبد العزيز أبطل الأحماء الخاصة ولم يبق إلا ما فيه مصلحة للأمة عامة، وهذا من إصلاحاته الكبيرة حيث أتاح الفرصة لأفراد الأمة للاستفادة من المراعي العامة.

توجيهه إلى الإمساك عما جرى بين الصحابة :

من إصلاحاته الفكرية أنه نهى الناس عن الخوض في الخلاف الذي جرى بين الصحابة رضي الله عنهم، كما أخرج ذلك محمد بن سعد من خبر محمد بن النضر قال : ذكروا اختلاف أصحاب محمد ﷺ عند عمر بن عبد العزيز فقال : أمر أخرج الله أيديكم منه ماتعملون ألسنتكم فيه (٢)!

وهذا الذي وجه إليه أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز هو الذي اعتمده أهل السنة والجماعة من عدم الخوض فيما جرى بين الصحابة رضي الله عنهم من القتال والكف عن الحديث في ذلك .

(١) المرجع السابق ٣٨١/٥ .

(٢) طبقات ابن سعد ٣٨٢/٥ .

إبطاله سب عليّ على المنابر :

أخرج ابن سعد من خبر لوط بن يحيى الغامدي قال : كان الولاة من بني أمية قبل عمر بن عبد العزيز يشتمون عليّاً رحمه الله ، فلما ولي عمر أمسك عن ذلك ، فقال كثيرٌ عزة الخزاعي :

وكَيْتَ فلم تشتم عليّاً ولم تُخَفْ بريّاً ولم تتبع مقالة مجرم
تكلّمتَ بالحق المبين وإنما تَبَيَّنُ آيات الهدى بالتكلّم
فصدّقَ معروف الذي قلت بالذي فعلت فأضحى راضيا كل مسلم^(١)

وذكر المؤرخ ابن الأثير أن عمر بن عبد العزيز قال : وكان أبي إذا خطب فنال من عليّ رضي الله عنه تلجلج فقلت : ياأبت إنك تمضي في خطبتك فإذا أتيت عليّ ذكر علي عرفتك منك تقصيرا ، قال : أوفطنت لذلك ؟ قلت : نعم ، فقال : يا بني إن الذين حولنا لو يعلمون من علي ما نعلم تفرقوا عنا إلى أولاده .

قال : فلما ولي الخلافة لم يكن عنده من الرغبة في الدنيا ما يرتكب هذا الأمر العظيم من أجله فترك ذلك ، وكتب بتركه وقرأ عوضه ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى ﴾ [النحل : ٩٠] فحل هذا الفعل عند الناس محلا حسنا وأكثروا مدحه بسببه^(٢) .

اهتمامه بإلغاء الضرائب والجزية عمن أسلم :

ومن أهم إصلاحات أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز إلغاء

(١) طبقات ابن سعد ٥ / ٣٩٣ - ٣٩٤ .

(٢) الكامل ٤ / ١٥٤ .

الضرائب وإلغاء الجزية عمن دخل في الإسلام ، وقد كان الولاة قبله فرضوا ضرائب على المسلمين في أراضيهم وخیولهم وخدمهم ليزيد دخل بيت المال ، كما فرضوا الجزية على من أسلم بحجة أن الناس يدخلون في الإسلام فرارا من دفع الجزية فوضع ذلك كله عمر بن عبد العزيز ، ومن الأخبار في ذلك ما أخرجه محمد بن سعد من خبر محمد بن قيس قال : لما ولي عمر بن عبد العزيز وضع المكس عن كل أرض ، ووضع الجزية عن كل مسلم (١).

وكذلك ما أخرجه من خبر ميمون بن مهران قال : دخل عامل لعمر بن عبد العزيز فقال : كم جمعت من الصدقة ؟ فقال : كذا وكذا ، قال : فكم جمع الذي كان قبلك ؟ قال : كذا وكذا ، فسمى شيئا أكثر من ذلك ، فقال عمر : من أين ذاك ؟ قال : يا أمير المؤمنين إنه كان يؤخذ من الفرس دينار ومن الخادم دينار ومن الفدان خمسة دراهم ، وإنك طرحت ذلك كله ، قال : لا والله ما ألقيته ولكن الله ألقاه (٢).

وأخرج محمد بن سعد من خبر يعقوب بن عبد الرحمن عن أبيه أن حيان بن شريح عامل عمر بن عبد العزيز على مصر كتب إليه : إن أهل الذمة قد أسرعوا في الإسلام وكسروا الجزية . فكتب إليه عمر : أما بعد فإن الله بعث محمداً داعياً ولم يبعثه جابياً ، فإذا أتاك كتابي هذا فلن كان أهل الذمة أسرعوا في الإسلام وكسروا الجزية فاطو كتابك وأقبل (٣).

(١) طبقات ابن سعد ٣٤٥/٥ .

(٢) المرجع السابق ٣٧٦/٥ .

(٣) المرجع السابق ٣٨٤/٥ .

وأخرج أيضا من خبر عبد الرحمن بن حسن عن أبيه أن عمر بن عبد العزيز كتب وهو خليفة إلى عامله على خراسان الجراح بن عبد الله الحكمي يأمره أن يدعو أهل الجزية إلى الإسلام فإن أسلموا قبل إسلامهم ووضع الجزية عنهم ، وكان لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين ، فقال له رجل من أشرف أهل خراسان : إنّه والله ما يدعوهم إلى الإسلام إلا أن توضع عنهم الجزية ، فامتحنهم بالختان . فقال : أنا أردتهم عن الإسلام بالختان ؟ هم لو قد أسلموا فحسن إسلامهم كانوا إلى الطهرة أسرع . فأسلم على يده نحو من أربعة آلاف (١) .

وهكذا كانت نتيجة وضع الجزية عمن أسلم حيث دخل في الإسلام أربعة آلاف في قطر واحد .

وفي هذا الخبر موقف يذكر للبطل المجاهد الأمير الجراح بن عبد الله الحكمي حيث رفض مشورة ذلك الرجل الخراساني بامتحان من دخل في الإسلام بالختان لأن ذلك يعتبر تنفيرا لهم عن الإسلام .

ومما يبين كثرة دخول الكفار في الإسلام بعد إلغاء ضريبة الجزية عمن أسلم ما ذكره الحافظ ابن الجوزي من خبر جابر بن حنظلة الضبي قال : كتب عدي بن أرطاة إلى عمر بن العزيز : أما بعد فإن الناس قد كثروا في الإسلام ، وخفت أن يقل الخراج ، فكتب إليه عمر : فهمت كتابك ، والله لوددت أن الناس كلهم أسلموا حتى نكون أنا وأنت حراثين نأكل من كسب أيدينا (٢) .

(١) طبقات ابن سعد ٣٨٦/٥ .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ٨١ .

وهذا موقف كبير من مواقف أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز في الدعوة إلى الإسلام ورفع الظلم عن أهل الذمة .

ومما يبين دقة عمر بن عبد العزيز في تطبيق هذا الأمر ما أخرجه ابن سعد من خبر سويد بن حصين : أن عمر بن عبد العزيز كتب : إن أسلم والجزية في كفة الميزان فلا تؤخذ منه .

وكذلك ما أخرجه من خبر عمرو بن المهاجر عن عمر بن عبد العزيز في الذمي يسلم قبل السنة بيوم قال : لا تؤخذ منه الجزية (١) .

ولم يقتصر اهتمام عمر بن عبد العزيز في دخول الكفار في الإسلام على وضع الجزية عمن أسلم، بل تجاوز ذلك إلى رفع مبلغ من المال لبعض زعماء الكفار ليتألفهم على الإسلام، ومن ذلك ما ذكره ابن سعد من خبر عيسى بن أبي عطاء رجل من أهل الشام كان على ديوان أهل المدينة عن عمر بن عبد العزيز أنه ربما أعطى المال من يستألف على الإسلام .

وكذلك ما أخرجه من خبر ابن أبي سبرة عن رجل أخبره عن عمر ابن عبد العزيز أنه أعطى بطريقاً ألف دينار استألفه على الإسلام (٢) .

إحياءه لسنة العطاء :

لقد فرض أمير المؤمنين العطاء السنوي لكل مولود في الإسلام كما جاء في أخبار منها ما أخرجه ابن سعد من خبر سعيد بن مسلم بن بانك قال : سمعت عمر بن عبد العزيز يقول وهو خليفة : إنه لا يحل

(١) طبقات ابن سعد ٣٥٦/٥ .

(٢) طبقات ابن سعد ٣٥٠/٥ .

لكم أن تأخذوا لموتاكم فارفعوهم إلينا، واكتبوا لنا كل منقوس (١)
نفرض له (٢).

وأخرج عن محمد بن عمر الواقدي قال: حدثني أبي قال:
ذهبتُ بي حاضتي إلى أبي بكر بن حزم فوضع في يدي ديناراً وأنا
منقوس ، وولدت سنة مائة ، ثم كان قابل فأعطينا ديناراً آخر فكان
دينارين، قال: وبه (٣) سُميت (٤) .

كما أخرج من خبر الهيثم بن واقد قال : ولدت سنة سبع
وتسعين ، فاستُخلفَ عمر وأنا ابن ثلاث سنين فأصبت من قسمه ثلاثة
دنانير (٥).

حتى أهل السجون كان يصل إليهم عطاؤهم، كما أخرج ابن
سعد من خبر أبي بكر بن حزم قال: كنا نُخرج ديوان أهل السجون
فيخرجون إلى أعطيائهم بكتاب عمر بن عبد العزيز ، وكتب إلي: من
كان غائباً قريب الغيبة فأعط أهل ديوانه، ومن كان منقطع الغيبة
فاعزل عطاءه إلى أن يقدم أو يأتي نعيه، أو يوكل عندك بوكالة بينة
على حياته فادفعه إلى وكيله (٦).

وبهذا أحى عمر بن عبد العزيز سنة العطاء الإسلامي التي كانت

(١) أي مولود في حال نفاس أمه .

(٢) طبقات ابن سعد ٣٤٦/٥ .

(٣) أي بعمر بن عبد العزيز .

(٤) طبقات ابن سعد ٣٤٦/٥ .

(٥) المرجع السابق ٣٤٧/٥ .

(٦) طبقات ابن سعد ٣٤٨/٥ .

في عهد الخلفاء الراشدين وعهد معاوية رضي الله عنهم، ثم اندثرت بعد ذلك واقتصر العطاء على بعض وجهاء الأمة، وكان بنو أمية يأخذون من ذلك الشيء الكثير على مراتبهم، فلما قسم عمر بن عبدالعزيز ذلك على الأمة شمل جميع أفرادهم، وهذا من أبرز مواقفه الإسلامية رحمه الله تعالى .

إغناؤه المحتاجين عن المسألة :

ذكر الشيخ أبو حفص عمر بن محمد الخضر الملاء من خبر يحيى ابن سعيد الأنصاري : أن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه قدم عليه بعض أهل المدينة فجعل يسأله عن أهل المدينة فقال : ما فعل المساكين الذين كانوا يجلسون في مكان كذا كذا ؟ قال : قد قاموا منه يا أمير المؤمنين . قال : ما فعل المساكين الذين كانوا يجلسون في مكان كذا وكذا ؟ قال : قد قاموا منه وأغناهم الله . قال : وكان من أولئك المساكين من يبيع الحَبَطَ للمسافرين ^(١) ، فالتمس ذلك منهم بعدُ، فقالوا : قد أغنانا الله عن بيعه بما يعطينا عمر بن عبد العزيز ^(٢) .

وهذا من نتائج المنهج العادل الذي سلكه عمر بن عبد العزيز في توزيع أموال المسلمين، حيث حُرِّمَت القلة المتمكنة من الإسراف وأصبح ما يصرف لفرد من هذه الفئة يصرف لعشرات من المسلمين، فوصل المال العام إلى فئات لم يكن يصل إليها من قبل فاستغنوا به عن بعض الأعمال الشاقة التي كانت تُدرُّ عليهم مبالغ زهيدة .

(١) الحَبَط نوع من ورق الشجر تأكله الإبل .

(٢) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز / ١٥١ .

اهتمامه بدفع المهور من بيت المال :

كما اهتم أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز بأداء مهور الزواج من بيت المال لمن لم يستطع توفير ذلك ، ومن الأخبار في ذلك ما أخرجه محمد بن سعد من خبر أبي العلاء يباع المشاجب قال : قُرئ علينا كتاب عمر بن عبد العزيز رحمه الله في مسجد الكوفة وأنا أسمع : من كانت عليه أمانة لا يقدر على أدائها فأعطوه من مال الله ، ومن تزوج امرأة لا يقدر أن يسوق إليها صداقها فأعطوه من مال الله (١) .

وهذا قرار مهم في إصلاح المجتمع ، لأن صلاحه يتوقف على تحصين أبنائه بالزواج وظفرهم بالسعادة الزوجية ، وقد يكون المهر عائقا لبعض الفقراء دون الزواج ، خصوصا في حال غلاء المهور ، فإذا كانت الدولة توفر ذلك لمن لا يستطيع ذلك فإنها تسهم في تكوين المجتمع الصالح وحفظه من أسباب الفساد والاضطراب .

جهوده في التقريب بين طبقات المجتمع :

إضافة إلى ما ذكر في هذا المجال من التسوية بين أفراد الأمة في العطاء فإنه سوى بينهم في أحقية الجلوس في المساجد ، ومن الأخبار في ذلك ما أخرجه محمد بن سعد من خبر يونس بن أبي شبيب قال : شهدت عمر بن عبد العزيز في بعض الأعياد وقد جاء أشرف الناس حتى حفوا بالمنبر وبينهم وبين الناس فرجة ، فلما جاء عمر صعد المنبر وسلم عليهم ، فلما رأى الفرجة أومأ إلى الناس : أن تقدموا ، فتقدموا حتى اختلطوا بهم (٢) .

(١) طبقات ابن سعد ٣٧٤/٥ .

(٢) طبقات ابن سعد ٣٨٧/٥ .

لقد دأب الولاة من بعد عهد أمير المؤمنين معاوية رضي الله عنه على رفع طبقات من الناس وتمييزهم على غيرهم بالعطاء والمجالس وغير ذلك ، وسرى ذلك في الأمة حتى أصيب بعض أفرادها بالضعف ، وأصبحوا يرون أنهم ليسوا أهلا للجلوس مع أفراد الطبقات المميزة الذين أصبح الناس يطلقون عليهم اسم « الأشراف » وكان أكثر هؤلاء من بني أمية ، ولقد بلغ الضعف بعامة المجتمع إلى عدم التجاسر على الاقتراب من أفراد الطبقة الخاصة حتى في المساجد التي من المفترض فيها أن يتنافس المصلون على القرب من الإمام لما في ذلك من زيادة الثواب ، فلما تولى الخلافة أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز كان من أجل اهتماماته أن يقارب بين فئات المجتمع وذلك بأن يضع من سمعة الطبقات العالية وأن يزيل كبرياءهم ، وأن يرفع من شأن الطبقات المستضعفة وأن يقوي معنوياتهم ويزيل شعورهم بالضعف ، فكان من جهوده في ذلك المساواة بينهم في العطاء ، ولاشك أن المال له أهمية كبرى في الرفع من شأن الناس وتخفيضهم .

وفي هذا الخبر تبين لنا اهتمامه في هذا المجال بالإشارة إلى عموم الناس ليقربوا من الخاصة ويختلطوا بهم حتى تزول تلك الفجوة التي خلفها ظلم الولاة وسوء إدارتهم .

تجرده من العصبية وإكرامه أهل البيت :

مما خالف فيه أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز من سبقه من ولاة بني أمية تجرده من العصبية لعشيرته ، ومن الأخبار في ذلك ما أخرجه محمد بن سعد من خبر جويرية بن أسماء قال : سمعت فاطمة بنت

علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - ذكرت عمر بن عبد العزيز فأكثر الترحم عليه، وقالت : دخلت عليه وهو أمير المدينة يومئذ فأخرج عني كل خصي وحرسى، حتى لم يبق في البيت غيري وغيره، ثم قال: يا بنت علي والله ما على ظهر الأرض أهل بيت أحب إلي منكم، ولأنتم أحب إلي من أهل بيتي^(١).

وهذا دليل على قوة إيمانه وتجرده من العصبية للعشيرة، حيث فضل قرابة رسول الله ﷺ على قرابته، فإن ذلك يعتبر من إكرام النبي ﷺ في أهل بيته.

وذكر محمد بن سعد في عدة أخبار أن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز أمر والي المدينة أبا بكر بن محمد بن عمرو بن حزم أن يقسم بين بني هاشم بالسوية عشرة آلاف دينار، وذلك من حقهم في خمس ما أفاء الله تعالى يوم خيبر، فشكروه في ذلك، وكان فيمن كتب إليه بالشكر على ذلك فاطمة بنت الحسين، رضي الله عنه، وقد ذكر ابن سعد كتابها في ذلك من رواية يحيى بن أبي يعلى قال: لما قدم المال على أبي بكر بن حزم فقسمه أصاب كل إنسان خمسين ديناراً. قال فدعنتي فاطمة بنت حسين وقالت: اكتب، فكتبت: بسم الله الرحمن الرحيم، لعبد الله عمر أمير المؤمنين من فاطمة بنت حسين، سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد فأصلح الله أمير المؤمنين وأعانه على ما ولاه وعصم له دينه، فإن أمير المؤمنين كتب إلى أبي بكر بن حزم أن يقسم فينا مالاً من الكتيبة^(٢) ويتحرى

(١) طبقات ابن سعد ٣٨٧/٥ - ٣٨٨.

(٢) الكتيبة جزء من خير فيه بساين.

بذلك ما كان يصنع من كان قبله من الأئمة الراشدين المهديين ، فقد بلغنا ذلك وقسم فينا ، فوصل الله أمير المؤمنين وجزاه من وال خير ماجزى أحداً من الولاة ، فقد كانت أصابتنا جفوة واحتجنا إلى أن يُعمل فينا بالحق ، فأقسم لك بالله يا أمير المؤمنين لقد اخدم من آل رسول الله ﷺ من كان لاخلادم له واكتسى من كان عارياً واستنفق من كان لا يجد ما يستنفق . وبعثت إليه رسولاً ، قال : فأخبرني الرسول ، قال : فقدمتُ عليه فقرأ كتابها وإنه ليحمد الله ويشكره وأمر لي بعشرة دنانير ، وبعث إلى فاطمة بخمسمائة دينار وقال : استعيني بها على ما يعُروك . وكتب إليها بكتاب يذكر فضلها وفضل أهل بيتها ويذكر ما أوجب الله لهم من الحق . قال : فقدمت عليها بذلك المال .

قال عبد الملك بن المغيرة : فاجتمع نفر من بني هاشم فكتبوا كتاباً وبعثوا به مع رسول إلى عمر بن عبد العزيز يتشكرون له ما فعله بهم من صلة أرحامهم وأنهم لم يزالوا مجففين منذ كان معاوية . فكتب عمر بن عبد العزيز : قد كان رأيي قبل اليوم هذا ولقد كلمت فيه الوليد بن عبد الملك وسليمان فأبيا عليّ ، فلما وليتُ هذا الأمر تحريتُ به الذي أظنه أوفق إن شاء الله (١) .

اهتمامه بالإصلاح بين الناس :

ومن جهود أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز في الإصلاح ما ذكره ابن عبد الحكم قال : وجاء رجل من أهل المشرق هو وابن أخ له ،

(١) طبقات ابن سعد ٣٩١/٥ .

فاختصما عند عمر بن عبد العزيز ، قال : بينما الشيخ يريد الصلة والصلح إذ غضب فدعته نفسه إلى القطيعة ، فنظر إليه عمر فقال : مارأيت أحلى منك ولا أمرّ ، ولا أبعد ولا أقرب ، بينما أنت تريد الصلة والصلح دعتك نفسك إلى القطيعة والظلم - وله شاربان قد غطّيا فاه - فقال : يامينا - لحجّام له - : أخرج هذا الشيخ من الصف ثم خذ لي من شاربته ثم اتّني به ، ففعل ، فقال عمر : هذا أطيب وأنظف مع الفطرة ، هلم إلى الصلح أيها الشيخ أنت وابن أخيك ، قالوا : نعم ، فأصلح ذات بينهما ، فرفع عمر يديه إلى السماء وقال : الحمد لله (١) .

فهذا مثل من أمثلة نجاح أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز في الإصلاح بين الناس ، والإصلاح بين الناس باب مهم من أبواب الدعوة وفعل الخير ، وأقدر الناس عليه من خولهم الله تعالى مسئولية على المسلمين ، لما لهم من حق الطاعة ، فإذا تم الإصلاح على أيديهم فهي نعمة عظيمة تستحق الشكر والحمد ، ولذلك حمد عمر الله تعالى لما وفقه من الإصلاح بين الرجلين .

وفي اهتمام عمر بالتخفيف من شارب ذلك الرجل دليل على حرصه على تطبيق السنة رحمه الله تعالى .
نماذج من مواعظه وحكمه :

من ذلك ما ذكره أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم رحمه الله

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ١٢١ .

تعالى قال : وكتب عمر بن عبد العزيز إلى القرظي (١) : أما بعد فقد بلغني كتابك تعظني ، وتذكر ما هو لي حظ وعليك حق ، وقد أصبت بذلك أفضل الأجر ، إن الموعظة كالصدقة ، بل هي أعظم أجرا وأبقى نفعاً ، وأحسن ذخراً ، وأوجب على المرء المؤمن حقاً ، لكلمة يعظ بها الرجل المؤمن أخاه ليزداد بها في هدى رغبة خير من مال يتصدق به عليه وإن كان به إليه حاجة ، ولما يدرك أخوك بموعظتك من الهدى خير مما ينال بصدقتك من الدنيا ، ولأن ينجو رجل بموعظتك من هلكة خير من أن ينجو بصدقتك من فقر ، فعظ من تعظه لقضاء حق عليك ، واستعمل كذلك نفسك حين تعظ ، وكن كالطبيب المجرب العالم الذي قد علم أنه إذا وضع الدواء حيث لا ينبغي أعتته وأعتت نفسه ، وإذا أمسكه من حيث ينبغي جهل وظلم ، وإذا أراد أن يداوي مجنوناً لم يداوه وهو مرسل حتى يستوثق منه ويوثق له ، خشية أن لا يبلغ منه من الخير ما يتقي منه من الشر ، وكان طبعه وتجربته مفتاح علمه .

واعلم أنه لم يجعل المفتاح على الباب لكيما يغلق فلا يفتح ، أو ليفتح فلا يغلق ، ولكن ليغلق في حينه ويفتح في حينه (٢) .

في هذا الكتاب توجيه جيد من أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز نحو القيمة الكبرى للوعظ والتذكير ، حيث بين أن إهداء الموعظة للأخ المسلم أفضل من إهداء المال إليه ، ذلك لأن دعوة المسلم إلى

(١) هو أبو حمزة محمد بن كعب القرظي ، من علماء التابعين .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ١٣٢ - ١٣٣ .

الاستقامة على الدين تعني منحه خيري الدنيا والآخرة ، فأما الدنيا فإن الاستقامة تعني صلاح أمور الحياة والحماية من الأضرار التي تنتج عن السير على هدى العقل المجرد ، وأما في الآخرة فإن الاستقامة في الدنيا تعني رفعة الدرجات في الجنة والسلامة من عذاب النار ، فهل هناك هدية تقدم للمسلم من أخيه أعظم من موعظة هادية صادرة من القلب ؟

كما أن في هذا الكتاب توجيهًا نحو المنهج السديد في الدعوة ، حيث بين عمر بن عبد العزيز أن الواعظ كالطبيب ، والموعظة كالدواء ، فلا بد للطبيب الناجح أن يكون عالماً بفنه حاذقاً بتطبيق ذلك العلم ، وأن يحسن اختيار الدواء وطريقة تناوله وما يحذر منه أثناء ذلك ، فكذا الواعظ لا بد أن يكون متزوداً بالعلم النافع وأن يكون مخلصاً في عمله حكيماً في عرض مواعظه .

اهتمامه بسد الذرائع الموصلة إلى الشرك :

ذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر جعفر بن يرقان قال : كتب عمر بن عبد العزيز : إن ناساً يلتمسون الدنيا بعمل الآخرة وإن مصيرهم ومرجعهم إلى الله ، وإن ناساً من هؤلاء القصاص يصلون على خلفائهم وأمرائهم (١) فمروهم فليدعوا للمؤمنين عامة وليلغوا ماسوى ذلك .

قال ، وعن جعفر بن يرقان قال : كتب عمر بن عبد العزيز إلى أمير الجزيرة : أما بعد فإن ناساً من الناس قد التمسوا بعمل الآخرة

(١) يعني يدعون لهم .

الدنيا وإنما مصيرهم و مرجعهم إلى الله بعد الموت ، وقد بلغني أن ناسا من القصاص قد أحدثوا الصلاة على أمرائهم عدل ما يصلون على النبي ﷺ ، فإذا جاءك كتابي هذا فمر القصاص فليجعلوا صلاتهم على النبي ﷺ خاصة ، وليكن دعاؤهم للمؤمنين والمسلمين عامة ، وليدعوا ماسوى ذلك . والسلام .

قال جعفر : أحب أن لا يذكروا مع النبي ﷺ (١) .

هذا الخبر يصحح خطأ حدث بعد عصر الخلفاء الراشدين ، حيث دأب بعض الخطباء على ذكر الأمراء في خطب الجمعة ، إما بالثناء عليهم أو بالدعاء لهم ، وذلك يتضمن تسوية هؤلاء الأمراء برسول الله ﷺ الذي شرعت الصلاة عليه في الخطب ، كما أنه قد يصدر من بعضهم على سبيل التعظيم لأولئك الولاة ، مما قد يترتب عليه وقوع في الشرك ، إضافة إلى أنه قد يصدر من بعضهم على سبيل النفاق والتقرب للولاة للحصول على شرف الدنيا كما جاء في هذا الخبر ، فلذلك أصدر أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز أمره بمنع الخطباء من ذلك حماية لتوحيد الله تعالى وحق النبي ﷺ .

كتابه لبعض عماله :

أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر إسماعيل بن إبراهيم ابن أبي حبيبة . أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى بعض عماله ، أما بعد : فإني أوصيك بتقوى الله ولزوم طاعته ، فإن بتقوى الله نجا أولياء الله من سخطه ، وبها تحقق لهم ولايته . وبها رافقوا أنبياءهم ، وبها

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز / ٢٠٣ .

نضرت وجوههم ، وبها نظروا إلى خالقهم ، وهي عصمة في الدنيا
 من الفتن ، والمخرج من كرب يوم القيامة ، ولم يقبل ممن بقي إلا بمثل
 مارضي عمن مضى ولمن بقي عبرة فيما مضى ، وسنة الله واحدة ،
 فبادر بنفسك قبل أن تؤخذ بكظمك ، ويخلص إليك كما خلاص إلى
 من كان قبلك ، فقد رأيت الناس كيف يموتون وكيف يتفرقون ، ورأيت
 الموت كيف يعجل التائب توبته وذا الأمل أمله ، وذا السلطان سلطانه ،
 وكفى بالموت موعظة بالغة ، وشاغلا عن الدنيا ، ومرغبا في الآخرة ،
 فنعوذ بالله من شر الموت وما بعده ، ونسأل الله خيره وخير ما بعده .
 ولا تطلبن شيئا من عرض الدنيا بقول ولا فعل تخاف أن يضر بآخرتك ،
 فيزرى بدينك ، ويمقتك عليه ربك وأعلم أن القدر سيجري إليك
 برزقك ويوفيك أملك من دنياك بغير مزيد فيه بحول منك ولا قوة ،
 ولا منقوصا منه بضعف . إن ابتلاك الله بفقر فتعفف في فقرك وأخبت
 لقضاء ربك ، واعتبر بما قسم الله لك من الإسلام مازوى منك من
 نعمة الدنيا فإن في الإسلام خلفا من الذهب والفضة من الدنيا الفانية ،
 اعلم أنه لن يضر عبداً صار إلى رضوان الله وإلى الجنة ما أصابه في
 الدنيا من فقر أو بلاء ، وأنه لن ينفع عبداً صار إلى سخط الله وإلى
 النار ما أصاب من الدنيا من نعمة أو رخاء ، ما يجد أهل الجنة من
 مكروه أصابهم في دنياهم ، وما يجد أهل النار طعم لذة نعموا بها في
 دنياهم ، كل شيء من ذلك كأن لم يكن . تشيعون غادياً أو راءحاً إلى
 الله قد قضى نجه ، وانقضى أجله ، وتغيبونه في صدع من الأرض ،
 ثم تدعونه غير متوسد ولا متمهد ، فارق الأحبة ، وخلع الأسلاب ،
 وسكن التراب ، وواجه الحساب ، مرتها بعمله ، فقيرا إلى ما قدم غنيا

عما ترك، فاتقوا الله قبل نزول الموت وانقضاء موافاته، وإيم الله إني لأقول لكم هذه المقالة وما أعلم عند أحد منكم من الذنوب أكثر مما أعلم عندي، وأستغفر الله وأتوب إليه (١).

وصيته للقضاة :

من وصاياه في ذلك ما أخرجه محمد بن سعد من خبر يحيى بن سعيد أن عمر بن عبد العزيز قال: لا ينبغي للقاضي أن يكون قاضيا حتى تكون فيه خمس خصال: عفيف، حليم، عالم بما كان قبله، يستشير ذوي الرأي، لا يبالي ملامة الناس (٢).

فالعفة تُحصّن القاضي من أخذ الرشوة بأي شكل من أشكالها وتحول بينه وبين النفعين الذين يريدون أن يُسخرُوا القاضي لمنافعهم الدنيوية .

والحلم يمنع القاضي من التفوه بما لا يليق من الكلام، ويمنحه الفرصة الكافية لاستيعاب ما يقوله الخصوم .

والعلم بما كان قبله يمنحه الخبرة القضائية، حيث يستفيد من دراسة أحكام القضاة الذين سبقوه ، وهذه أبلغ دراسة يستفيد منها القاضي لأنها دراسة ميدانية .

واستشارة ذوي الرأي مهمة جدا في التوصل إلى أحكام مدروسة من عدة عقول ، فالذي يستشير أهل الرأي يملك عقولا كثيرة بينما الذي لا يستشير لا يملك إلا رأيا واحدا .

(١) الحلية ٢٧٨/٥ - ٢٧٩ .

(٢) طبقات ابن سعد ٣٦٩/٥ - ٣٧٠ .

أما عدم المبالاة بملامة الناس فهو الجئنة الحصينة التي تحمي صاحبها من التأثير بأقوال المخذّلين والمعوّقين الذين يتنفرون من الإصلاح إذا خالف هواهم وهوى أصحاب النفوذ من وجهاء الناس .

ولم يذكر عمر بن عبد العزيز العلم بالشريعة لأنه أمر معلوم حيث لا يصل القاضي إلى منصب القضاء إلا إذا كان من العلماء .
حثه على التقوى :

أخرج الحافظ أبو القاسم ابن عساكر من خبر ميسرة الحضرمي : أن عمر بن عبد العزيز كان يقول : ليس تقوى الله بصيام النهار ولا بقيام الليل والتخليط بين ذلك ، ولكن تقوى الله ترك ما حرم الله وأداء ما افترض الله ، فمن رزق بعد ذلك خيرا فهو خير إلى خير^(١) .

في هذا الخبر بيان لحقيقة التقوى ، فالتقوى هي اتقاء سخط الله تعالى وعذابه ، وإنما يكون ذلك بفعل جميع الواجبات التي فرضها الله سبحانه ، لأن تركها يترتب عليه العذاب ، واجتناب جميع المحرمات التي حرمها لأن فعلها يترتب عليه العذاب ، أما النوافل فإنها يترتب الثواب على فعلها ولا يترتب العذاب على تركها ، فلو أن إنسانا صام أفضل الصيام وهو صيام يوم بعد يوم وقام أكثر الليل ثم ترك واجبا أو فعل محرما لم يكن من المتقين في الظاهر ، وإن كان قد يغفر الله له السيئات الصغيرة بالحسنات ، لكن أمر المغفرة علمه عند الله تعالى ، وفي هذا الخبر تحذير للذين يهتمون بالنوافل ويتساهلون ببعض الواجبات أو المحرمات .

(١) تاريخ دمشق ٤٥ / ٢٣٠ .

كتابه إلى أهل الموسم بالبراءة من الظلم :

أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر جعونة بن الحارث قال : كتب عمر بن عبد العزيز إلى أهل الموسم أما بعد : فإنني أشهد الله وأبرأ إليه في الشهر الحرام والبلد الحرام ويوم الحج الأكبر أنني برئ من ظلم من ظلمكم ، وعدوان من اعتدى عليكم ، أن أكون أمرت بذلك أو رضيت به أو تعمدته ، إلا أن يكون وهما مني ، أو أمراً خفي علي لم أتعلمه ، وأرجو أن يكون ذلك موضوعاً عني مغفوراً لي إذا علم مني الحرص والاجتهاد ، ألا وإنه لا إذن على مظلوم دوني وأنا مُعوّل كل مظلوم ، ألا وأي عامل من عمالي رغب عن الحق ولم يعمل بالكتاب والسنة فلا طاعة له عليكم ، وقد صيرت أمره إليكم حتى يراجع الحق وهو ذميم ، ألا وإنه لأدولة بين أغنيائكم ، ولا أثره على فقرائكم في شيء من فيئكم ، ألا وأيما وارد ورد في أمر يُصلح الله به خاصاً أو عاماً من هذا الدين فله ما بين مائتي دينار إلى ثلاث مائة دينار على قدر مانوى من الحسنة ، وتجشم من المشقة ، رحم الله امرءاً لم يتعاضمه سفر يحيي الله به حقاً لمن وراءه ، ولولا أن أشغلكم عن مناسكتكم لرسمت لكم أموراً من الحق أحيّاها الله لكم ، وأموراً من الباطل أماتها الله عنكم ، وكان الله هو المتوحد بذلك فلا تحمدوا غيره ، فإنه لو وكلني إلى نفسي كنت كغيري والسلام عليكم (١) .

فهذا كتاب عظيم من أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز في محاربة الظلم وإقرار العدل ، فهو قد سعى جاهداً في رد المظالم التي

(١) حلية الأولياء ٥/ ٢٩٢ - ٢٩٣ .

عرف عنها، ولكنه يتوقع أن هناك مظالم لم تصل إليه، فكتب هذا الكتاب وأعلنه في موسم الحج الذي يضم وفوداً من أغلب بلاد المسلمين ، لتبرأ ذمته من مظالم خفية لم تبلغه، وأعلن في هذا الكتاب براءته من الولاة الذين يقع منهم شيء من الظلم، وربط طاعتهم بطاعة الله تعالى ، فهو بهذا يجعل كل فرد من أفراد الأمة رقيباً على أمير بلده، يسمى في تربيته إذا استقام وفي تقويمه إذا انحرف .

وإذا كان المتقون في كل بلد مسئولين عن سير الحكم فيه فلن يستطيع أي حاكم - وإن ضعف إيمانه - أن يحكم بهواه ولأن يحكم بأهواء النفعيين الذين لا يهمهم إلا مصالحهم الخاصة .

ثم يبين أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز أن المال في عهده لن يكون دولة بين الأغنياء ولا مستأثراً به عن الفقراء لأن الفيء يقسم على عامة المسلمين بالتساوي .

ومن أروع ما جاء في هذا الكتاب تخصيص مبلغ من المال لمن يسعى في إصلاح أمور الأمة ، وفي ذلك ضمان النفقة لمن أراد أن يسافر من أجل ذلك حتى لا يقعد به التفكير في تأمين تلك النفقة .

ثم يختم كتابه بشكر المنعم جلا وعلا على ما وفقه إليه من الإصلاح الذي تحقق على يديه، وهذا مثل من الإخلاص القوي لله تعالى ، بحيث يتلاشى حظ النفس ، ولا يكون إلا لطف الله جل وعلا وتوفيقه ومعاونته .

من خطبه في الزهد :

أخرج الحافظ أبو نعيم من خبر الحسين بن محمد الخزاعي عن رجل من ولد عثمان أن عمر بن عبد العزيز قال في بعض خطبه : إن لكل سفر زاداً لا محالة ، فتزودوا لسفركم من الدنيا إلى الآخرة التقوى ، وكونوا كمن عاين ما أعد الله من ثوابه وعقابه ترغبوا وترهبوا ، ولا يطولنَّ عليكم الأمد فتقسي قلوبكم ، وتنقادوا لعدوكم ، فإنه والله ما بسط أمل من لا يدري لعله لا يصبح بعد مسائه ، ولا يمسي بعد صباحه ، ولربما كانت بين ذلك خطفات المنايا ، فكم رأيت ورأيت من كان بالدنيا مغترا ، وإنما تقر عين من وثق بالنجاة من عذاب الله ، وإنما يفرح من أمن من أهوال يوم القيامة ، فأما من لا يداوي كَلْماً^(١) إلا أصابه جرح في ناحية أخرى^(٢) أعوذ بالله أن آمركم بما أنهى عنه نفسي فتخسر صفقتي ، وتظهر غيلتي ، وتبدو مسكنتي ، في يوم يبدو فيه الغنى والفقر ، والموازن منصوبة ، ولقد عنيتم بأمر لو عُنِيتُ به النجوم لانكدرت ، ولو عنيت به الجبال لذابت ، ولو عنيت به الأرض لتشقت ، أما تعلمون أنه ليس بين الجنة والنار منزلة ، وأنكم صائرون إلى إحداهما !^(٣)

ومن ذلك ما ذكره الحافظ ابن الجوزي من خبر عبد الله بن محمد ابن سعد الأنصاري : أن عمر بن عبد العزيز صعد المنبر واجتمع إليه الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد أيها الناس فإنني لم

(١) الكلم بالفتح الجراحة والجمع كلوم .

(٢) يعني فكيف يفرح ؟

(٣) حلية الأولياء / ٢٩١ - ٢٩٢ .

أجمعكم لأمر أحدثه فيكم ، ولكن فكرت في هذا الأمر الذي أنتم إليه صائرون فعلمت أن المصدق بهذا الأمر أحقق والمكذب به هالك ، ثم نزل (١) .

موعظة له في التوكل والعفة :

ذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر إسماعيل بن إبراهيم بن أبي حبيبة قال : كتب عمر بن عبد العزيز إلى أخ من أخوانه في الله عز وجل ، فكان في كتابه : لاتطلبن شيئا من عرض الدنيا بقول ولا فعل تخاف أن يضر بأخرك ويزري بدينك ويمقتك عليه ربك ، واعلم أن القدر سيجري إليك برزقك ويوفيك أكلك من دنياك غير متزيد فيه بحول منك ولا قوة ولا منتقص منه بضعف ، إن ابتلاك الله عز وجل بفقر فتعفف في فقرك وأخبت لقضاء ربك ، واغتر بما قسم الله لك من الإسلام ماروى عنك من نعمة دنياك ، فإن في الإسلام خلفا من الذهب والفضة والدنيا الفانية ، وأعلم أنه لا يضر عبداً صار إلى رضوان الله وإلى الجنة ما أصابه في الدنيا من فقر وبلاء ، وأنه لن ينفع عبداً صار إلى سخط الله وإلى النار ما أصابه من نعمة أو رخاء ، ما يجد أهل الجنة من مكروه أصابهم في دنياهم ، وما يجد أهل النار طعم لذة نعموا بها في دنياهم ، كأن شيئا من ذلك لم يكن (٢) .

خطبة له وجيزة بليغة :

أخرج عبد الله ابن الإمام أحمد من خبر ابن العيزار قال : خطبنا

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز / ١٨٣ - ١٨٤ .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز / ١٨٢ .

عمر بن عبد العزيز بالشام على منبر من طين فحمد الله عز وجل وأثنى عليه ثم تكلم بثلاث كلمات فقال : أيها الناس أصلحوا سرائركم تصلح علانيتكم ، واعلموا لآخرتكم تكفوا دنياكم ، واعلموا أن رجلا ليس بينه وبين آدم أب مُعْرِق له في الموت (١) ، والسلام عليكم (٢) .

فهذه الخطبة الموجزة تشتمل على ثلاث مواضع : الأولى صلاح العمل الظاهر ، فالأعمال التي يمارسها الإنسان في حياته هي الشيء الذي يعلنه ويراه الناس ، وما يُكِنُّه قلبه من النيات والمقاصد هو الشيء الذي يُسِرُّه ، فإذا أصلح الإنسان قلبه وطهره من النوايا السيئة صلحت أعماله الظاهرة ، فالجنايات والأعمال العدوانية مثلا هي نتيجة لما يكنه القلب من الغل والحسد والبغضاء ، والتنافس على مظاهر الحياة من لباس وفراش ومراكب ومساكن هو نتيجة لما يكنه القلب من تعظيم الدنيا وتضخيمها ، والاستقامة على طاعة الله تعالى واجتناب معصيته هما نتيجة لما يكنه القلب من حبه وتعظيمه والخوف منه ، وكذلك كل الأعمال الظاهرة فإنها مبنية على سرائر القلوب .

والثانية : العمل للآخرة على أنها هي المطلب الأعلى والمقصد الأسمى ، فإذا شغل الإنسان فكره بالعمل للآخرة سخر الله تعالى له من الدنيا ما يغنيه ويكفيه من غير أعمال فكر ، وفتح له من أبواب الرزق ما لا يخطر له على بال .

(١) يعني إذا كان أبأوه جميعا إلى آدم قد ماتوا فإنه حتما سيموت .

(٢) الزهد للإمام أحمد / ٢٩٦ ، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ١٨٦ .

والثالثة : التذكير بالموت بأسلوب مؤثر ، فالإنسان إذا تذكر أن جميع آباءه الذين يصلونه بآدم عليه الصلاة والسلام في النسب قد ماتوا فكيف يؤمل بالبقاء ؟! ولماذا لا يحمله ذكر الموت على الاستقامة والعمل لما بعد الموت ؟!

آخر خطبة خطبها :

أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر يعقوب بن عبدالرحمن عن أبيه قال: خطب عمر بن عبد العزيز هذه الخطبة وكانت آخر خطبة خطبها ، حمد الله وأثنى عليه ثم قال: إنكم لم تخلقوا عبثا، ولم تتركوا سدى ، وإن لكم معاداً ينزل الله فيه ليحكم بينكم ويفصل بينكم ، وخاب وخسر من خرج من رحمة الله وحرم جنة عرضها السموات والأرض، ألم تعلموا أن لا يأمن غدا إلا من حذر الله اليوم وخافه وباع نافدا بياق، وقليلًا بكثير، وخوفا بأمان؟ ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين ، وستصير من بعدكم للباقيين، وكذلك حتى تردوا إلى خير الوارثين ، ثم إنكم تشيعون كل يوم غاديا ورائحا، قد قضى نحبه ، وانقضى أجله، حتى تغيبوه في صدع من الأرض، في شق صدع، ثم تتركوه غير ممهد ولا موسد، فارق الأحباب، وباشر التراب، ووجهٌ للحساب، مرتهن بما عمل غني عما ترك ، فقير إلى ما قدم . فاتقوا الله وموافاته وحلول الموت بكم، أما والله إنني لأقول هذا وما أعلم عند أحد من الذنوب أكثر مما عندي واستغفر الله ، وما منكم من أحد يُبلغنا حاجته لا يسع له ما عندنا إلا تمّنت أن يبدأ بي وبخاصتي حتى يكون عيشنا وعيشه واحدا، أما والله لو أردت غير

هذا من غضارة العيش لكان اللسان به ذلولاً ، وكنت بأسبابه عالماً ،
ولكن سبق من الله كتاب ناطق ، وسنة عادلة ، دل فيها على طاعته ،
ونهى فيها عن مغضيته ثم رفع طرف ردائه فبكى وأبكى من حوله (١) .

فهذه خطبة بليغة في التذكير بالموت والعمل للآخرة ، ولقد كان -
رحمه الله - نذيراً للعالم في عصره ، ذلكم العصر الذي غرق أكثر
الناس فيه بالتوجه نحو مظاهر الحياة الدنيا واشتغلوا بذلك عن ذكر
الموت ومابعده ، فما زال يلح على الناس بالتذكير بمختلف الأساليب
والمناسبات حتى أحى الله به قلوباً ميتة وذكر الله به قلوباً غافلة ،
وحكم له بالصلاح ملوك العالم من غير المسلمين فضلاً عن المسلمين ،
ثم مازالت سيرته الزكية بعد موته مادة غزيرة في الدعوة إلى الله
تعالى وإصلاح المجتمعات الإسلامية .

فهمه لشمول العبادة :

أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر علي بن زيد بن
جدعان قال : شهدت عمر بن عبد العزيز يخطب بخصاصة فسمعتة
يقول : ألا إن أفضل العبادة أداء الفرائض واجتناب المحارم (٢) .

وأخرج من خبر عبد العزيز بن أبي رواد قال : قال عمر بن
عبد العزيز : الكلام بذكر الله حسن ، والفكرة في نعم الله أفضل
العبادة (٣) .

(١) حلية الأولياء ٢٩٥/٥ وانظر سيرة عمر لابن الجوزي / ١٩٠ .

(٢) حلية الأولياء ٢٩٦/٥ .

(٣) حلية الأولياء ٣١٤/٥ .

فهذا فهم من أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز لشمول العبادة لكل أمور الدين، فإن إطلاق العبادات على أمور الشعائر التعبدية كالصلاة والصيام والحج إطلاق اصطلاحى لتمييزها عن أمور الدين الأخرى، ولا يعنى ذلك عدم شمول العبادة لسائر أمور الدين، ومن أبرز الأدلة على شمول العبادة قول الله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] فإن العبادة في الآية تشمل جميع أمور الدين. **تعزيتة البليغة لأهل صديقه :**

أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر علي بن الحسين قال: كان لعمر بن عبد العزيز صديق ، فأخبر أنه قد مات ، فجاء إلى أهله يعزيهم فصرخوا في وجهه فقال لهم عمر : إن صاحبكم هذا لم يكن يرزقكم وإن الذي يرزقكم حي لا يموت ، وإن صاحبكم هذا لم يسد شيئاً من حُفركم ، إنما سد حفرة نفسه ، وإن لكل امرئ منكم حفرة لا بدَّ والله أن يسدها ، إن الله تعالى لما خلق الدنيا حكم عليها بالخراب ، وعلى أهلها بالفناء ، ولا امتلأت دار حَبْرَة إلا امتلأت عبْرَة ، ولا اجتمعوا إلا تفرقوا ، حتى يكون الله هو الذي يرث الأرض ومن عليها ، فمن كان منكم باكيًا فليبك على نفسه ، فإن الذي صار إليه صاحبكم اليوم كلكم يصير إليه غدًا ^(١).

فهذا نموذج رائع في التعزية ، أكد فيه أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى على أن الرازق هو الله جل وعلا وحده ، فلا يجوز لأهل الميت أن يشعروا بأنهم قد فقدوا بمفقده مصدر رزقهم ،

(١) حلية الأولياء ٣٢٩/٥ - ٣٣٠ ، وانظر تاريخ دمشق ٢٣٠ / ٤٥ .

وذكرهم بأن ميّتهم قد سار إلى مآل هم صائرون إليه ، وإنما الفرق بينهم وبينه أنه قد سبقهم إلى ذلك المصير ، فليشتغل كل إنسان بالتفكير بالمصير الذي هو صائر إليه عما قريب ، وإن في ذلك لشغلا عن الحزن على الفقيد ، كما ذكرهم بأن الدنيا ليست دار سرور دائما فلا ينبغي للمسلم أن يتألم لما يصيبه فيها من مصائب ، وإنما هي دار ابتلاء وعمل ونصب ، فليس من خلق المسلم أن يكون هلوعا جزوعا عند مواجهة المصائب .

مثل من صبره ويقينه :

أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر سهل بن الربيع بن سبرة حدثني أبي عن أبيه الربيع قال : لما هلك عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز وسهل بن عبد العزيز ومزاحم مولى عمر في أيام متتابعة ، دخل الربيع بن سبرة عليه وقال : أعظم الله أجرك يا أمير المؤمنين ، فما رأيت أحداً أصيب أعظم من مصيبتك في أيام متتابعة ، والله مارأيت مثل ابنك ابنا ، ولا مثل أخيك أخا ، ولا مثل مولاك مولى قط ، فطأطأ عمر رأسه ، فقال لي رجل معي على الوسادة : لقد هيجت عليه ، قال ثم رفع رأسه فقال : كيف قلت الآن ياربيع ؟ فأعدت عليه ماقلت أولا ، قال : لا والذي قضى عليه - أو قال عليهم - بالموت ، ما أحب أن شيئا من ذلك كان لم يكن .

وأخرج أيضا من خبر عثمان بن عبد الحميد حدثني أبي . قال : بلغنا أن ابنا لعمر بن عبد العزيز مات صغيرا ، فدخل عليه الناس يعزونه وهو ساكت لا يتكلم طويلا حتى قال بعضهم إن ذا لمن جزع ،

قال ثم تكلم فقال : الحمد لله دخل ملك الموت حجرتي فذهب ببعض ، وكأنه ذهب بي (١).

فهذا مثال على الرضى بقضاء الله وقدره والصبر على المصائب ، فبالرغم من أن هؤلاء الثلاثة كانوا هم خاصته الذين كان يتقوى بهم ويستشيرهم ، وبالرغم من تتابع المصيبة بفقدهم فإنه قد بدا جميل الصبر راسخ اليقين مؤمنا بأن الأمور كلها بيد الله عز وجل وأن الخير فيما قضاه وقدره .

وفي الخبر الثاني نجده يحمد الله تعالى على أن ملك الموت دخل حجرتة فذهب ببعضه لما مات ابنه فكأنه هو الذي ذهب به ، وفي ذلك توطيئ للنفس على مواجهة الموت واشتغال بانتظاره والاستعداد لما بعده بالعمل عن الحزن على فقد أحد الأقارب وإن كان عزيزا على النفس .
جوابه على من قال أبقاك الله :

أخرج عبد الله ابن الإمام أحمد بن حنبل من خبر طلحة بن يحيى قال : كنت جالسا عند عمر بن عبد العزيز فجاءه رجل فقال له : يا أمير المؤمنين أبقاك الله ما كان البقاء خيرا لك ، فقال : أما ذاك فقد فُرِغَ منه ولكن قل : أحياك الله حياة طيبة وتوفاك مع الأبرار (٢).
فهذا جواب سديد ، لأن الدعاء بالبقاء وطول العمر لاعمى له ،

(١) حلية الأولياء ٥ / ٣٣٠ .

(٢) الزهد للإمام أحمد / ٢٩٧ - ٢٩٨ ، وانظر حلية الأولياء لأبي نعيم ٥ / ٣٣٠ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ٢٠٦ .

حيث إن الإنسان يكتب له أجله وهو في بطن أمه ، وإنما ينبغي أن
يُدعى للمسلم بالسعادة في الدنيا والآخرة .
من مواعظه البليغة :

أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر خالد بن دينار قال قال
عمر لميمون بن مهران : ياميمون لاتدخل على هؤلاء الأمراء وإن قُلْتَ
أمرهم بالمعروف ، ولاتخلون بامرأة وإن قُلْتَ أقرئها القرآن ، ولاتصلن
عاقا فإنه لن يصلك وقد قطع أباه (١) .

فهذه ثلاث مواعظ في غاية الجودة :

فالأولى : النهي عن الدخول على الأمراء ، والمحذور الذي خافه
أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز من ذلك أن يتأثر من دخل عليهم
بشيء من مظاهر الحياة التي يتغالى كثير منهم فيها ، فيكون ذلك سببا
في فتنة من دخل عليهم ، أو يقصر في إنكار المنكرات عليهم أو
يوافقهم في بعض ذلك فيكون آثما ، ولعل عمر بن عبد العزيز رحمه
الله تعالى من واقع تجربته مع الأمراء قد رأى فيمن يدخلون عليهم
خللا في دينهم .

وهذا الأمر لا يؤخذ على إطلاقه في جميع الأحوال ، بل قد
يكون الدخول على الأمراء واجبا لإنكار المنكر فيما إذا كان ذلك متعينا
على فرد أو طائفة من المسلمين ، وقد يكون مستحبا للأمر بالمعروف
والنهي عن المنكر فيما إذا لم يكن متعينا على الشخص ، وقد يكون
محرمًا فيما إذا تأكد الإنسان من ضرورة وقوعه في الإثم ، وقد يكون

(١) حلية الأولياء ٢٤٥/٥ .

مكروها فيما إذا احتمل الأمر ذلك، وقد يتردد الأمر بين الوجوب والتحريم، وذلك فيما إذا تعين عليه إنكار المنكر وعلم أنه سيقع في الإثم، أو يتردد الأمر بين الاستحباب والكراهة، وذلك فيما إذا لم يتعين عليه إنكار المنكر وخشي من الوقوع في الإثم، وفي كلتا الحالتين فالأمر يحتاج إلى اجتهاد العالم في ترجيح مصلحة الإسلام والمسلمين.

والثانية : النهي عن أن يخلو الرجل بالمرأة وهو من غير محارمها، وإن كان الدافع لذلك إقراءها القرآن، وهذا واضح في الشريعة ولا يجوز التساهل فيه لقول رسول الله ﷺ « لا يخلون رجل بامرأة إلا مع ذي محرم » أخرجه الشيخان من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما (١).

والثالثة : عدم وضع الثقة بمن عق والديه ، لأنه قد خان الأمانة ولم يتخلق بخلق الوفاء لمن رعياه وخدماء وبذلا له مهجمها في الصغر وهو في أمس الحاجة إليهما ، فإذا عَقَّ الإنسان والديه أو أحدهما لم يكن أمينا معهما ولاوفيا لهما فأحرى به أن لا يكون أمينا ولاوفيا مع غيرهما .

موعظته لمن سأله شيئا من الدنيا :

قال ابن عبد الحكم : وكان رجل من قريش - وكانت الخلفاء لاترده عن حاجة - فأتى عمر بن عبد العزيز فسأله حاجته فقال عمر

(١) صحيح البخاري ، رقم ٥٢٣٣ ، النكاح (٩/ ٣٣٠) صحيح مسلم ، رقم ١٣٤١ ، الحج (ص ٩٧٨) .

ابن عبد العزيز : لايجوز هذا ، ورده عنها ، فخرج مغضبا فناده
عمر فظن أنه قد بدا له في قضاء حاجته فقال له : ياأبا خالد فرجع
إليه فقال له : إذا رأيت شيئا من الدنيا فأعجبك فاذكر الموت فإنه يقلّله
في نفسك ، وإذا كنت في شيء من أمر الدنيا قد غمّك ونزل بك
فاذكر الموت فإنه يسهّله عليك ، وهذا أفضل من الذي طلبت (١) .

نماذج من أدبه وحكمته :

ذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر المدايني قال : دخل حريث بن
عثمان الدجني مع أبيه على عمر بن عبد العزيز فسأل الأب عن الابن
ثم قال له : علمه الفقه الأكبر ، قال : وما الفقه الأكبر ؟ قال : القناعة
وكف الأذى (٢) .

والفقه الأكبر بمعنى الفهم الأكبر في الدين ، ومن تأمل في هذين
الأمرين اللذين اختارهما عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى يجد
أنهما من أمور الدين المهمة ، فالذي يُرزق القناعة يتورع عن اكتساب
المال من طريق المحرمات والشبهات ، ويعف نفسه عن السؤال والتطلع
إلى ما في أيدي الناس ، ويسلم من أخلاق السوء كالخسد والغل
والحقد ، أما كف الأذى فهو أن يعصم الإنسان جميع جوارحه من
الاعتداء على المسلمين ، ومن أبرر ذلك حفظ اللسان من الغيبة
والنميمة وغير ذلك من فلتات اللسان ، ويكفي في بيان أهمية كف
الأذى عن المسلمين أن النبي ﷺ اعتبر من طبق ذلك هو المسلم حقا

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ١٦٧ - ١٦٨ .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز / ٢٠٥ .

كما جاء في الحديث الذي أخرجه الشيخان عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قالوا : يا رسول الله أي الإسلام أفضل ؟ قال : من سلم المسلمون من لسانه ويده « (١) .

وذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر أمية بن عبد الله بن عمرو بن عثمان قال : كنا عند عمر بن عبد العزيز فقال رجل لرجل : تحت إبطك ، فقال عمر : وما على أحدكم أن يتكلم بأجمل ما يقدر عليه ، قالوا : وما ذاك ؟ قال : لو قال : تحت يدك كان أجمل (٢) .

فهذا توجيه إلى حسن اختيار الألفاظ الذي تؤدي المقصود ولا يتقزز الناس من سماعها ، فذلك من الأدب في الحديث .

وذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر أبي هاشم القرشي قال : قال عبد الملك بن مروان لعمر بن عبد العزيز قد زوجك أمير المؤمنين فاطمة بنت عبد الملك ، فقال وصلك الله يا أمير المؤمنين فقد أجزلت العطية وكفيت المسألة ، فأعجب به عبد الملك ، فقال بعض أولاد عبد الملك هذا كلام تعلمه فأداه ، فدخل على عبد الملك يوما فقال : يا عمر كيف نفقتك ؟ فقال الحسنه بين السيئتين يا أمير المؤمنين ، قال فما هما ؟ قال : « وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا » [الفرقان: ٦٧] فقال عبد الملك : من علمه هذا (٣) .

(١) صحيح البخاري ، رقم ١١ ، الإيمان (١/ ٥٤) ، صحيح مسلم رقم ٤٠ ، الإيمان (ص ٦٥) .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز / ٢٠٧ .

(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز / ٢٢ .

فهذا الخبر يدل على سرعة بديهية عمر بن عبد العزيز ومقدرته على اختيار الألفاظ الجزلة والمعاني العميقة ، وسرعة الاستشهاد بالآيات القرآنية المناسبة ، وقد كان عبد الملك بن مروان معجبا بفكره وحكمته وأدبه .

وذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر علي بن بكار قال قال عمر بن عبد العزيز : إذا رأيتم الرجل يطيل الصمت ويهرب من الناس فاقربوا منه فإنه يُلْقَى الحكمة (١) .

والمقصود بالحكمة وضع الشيء في موضعه من قول أو عمل ، وهي تنتج عن التفكير السوي الذي يأتي نتيجة التأمل الطويل العميق ، وهذا التأمل لا يحصل غالبا إلا بشيء من العزلة والجو الهادئ البعيد عن الضجيج والارتباطات الاجتماعية التي تشغل الفكر بالأمور الحالية ، ولا تترك للفكر مجالا واسعا للتأمل العميق .

وليس هذا الأمر على إطلاقه فرمما يُلْقَى الإنسان الحكمة مع كثرة الارتباطات الاجتماعية لكونه ذا مقدرة عالية ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، ولكن عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى لاحظ بتجاربه أفرادا من الناس يمتازون بالحكمة ، ورأى أن أبرز صفاتهم كثرة الصمت وحب العزلة فعبر عن نتائج تجاربه التي رآها .
تأثره من شعر الزهد واستشهاد به :

ذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر عبد الصمد بن عبد الأعلى قال : كان عمر بن عبد العزيز وجّه عبد الأعلى بن أبي عمرة رسولا إلى

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز / ١٨١ .

طاغية الروم يدعوه إلى الإسلام ، فقال له عبد الأعلى : ياأمير
المؤمنين ائذن لي في بعض ولدي يخرج معي - وكان أبا عشرة -
فقال له : ومن يخرج معك من ولدك ؟ فقال عبد الله . فقال إني
رأيت عبد الله يمشي مشية مقتتها ، وبلغني أنه يقول الشعر . فقال عبد
الأعلى : ياأمير المؤمنين أما مشيته فغريزة هي فيه : وأما الشعر فإنما
هو نواحة ينوح على نفسه ، فقال مر عبد الله يأتيني العشية وأخرج
معك غيره ، فراح به إليه فدخل عليه فاستنشده ، فأنشده :

تجهزي بجهاز تبلغين به

يانفس قبل الردى ، لم تخلقي عبثا

وسابقي بغتة الآجال وانكمشي

قبل اللزوم فلا منجا ولا غوثا

ولا تكذبي لمن يبقى وتفتقري

إن الردى وارث الباقي وما ورثا

واخشي حوادث صرف الدهر في مهل

واستيقظي لا تكوني كالذي بحثا

عن مديّة كان فيها قطع مدته

فوافت الحرث موفورا كما حرثا

لاتأمني فجع دهر مترف ختل

قد استوى عنده من طاب أو خبثا

يَارُبُّ ذِي أَمَلٍ فِيهِ عَلَى وَجَلٍ
أَضْحَى بِهِ آمَنَا أَمْسَى وَقَدْ حَدَّثَا
مَنْ كَانَ حَيْثُ تَصِيبُ الشَّمْسُ جِبْهَتَهُ
أَوِ الْغُبَارُ يَخَافُ الشَّيْنِ وَالشَّعْمَا
وَيَأْلَفُ الظِّلَّ كِي تَبْقَى بِشَاشَتِهِ
فَسَوْفَ يَسْكُنُ يَوْمًا رَاغِمًا جَدَّثَا
فِي قَعَرٍ مُوَحَّشَةٍ غِبْرَاءَ مَقْفَرَةٍ
يَطِيلُ تَحْتَ الثَّرَى فِي قَعَرِهَا اللَّبْثَا

قال : فبكى عمر من شعره (١) .
وأخرج الحافظ أبو نعيم من خبر وهيب بن الورد قال : كان عمر
ابن عبد العزيز كثيرا ما يمثّل بهذه الأبيات :
يُرَى مُسْتَكِينًا وَهُوَ لِلَّهِو مَاقَت
به عن حديث القوم ما هو شاغله
وَأَزْعَجَهُ عِلْمٌ عَنِ الْجَهْلِ كُلِّهِ
وما عالم شيئا كمن هو جاهله
عبوس عن الجهال حين يراهم
فليس له منهم خَدِينٌ يَهَارِلُهُ

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز / ١٩٥ .

تذكّر مايبقى من العيش آجلاً
فأشغله عن عاجل العيش آجلاً
وأخرج أيضاً من خبر القاسم بن غزوان قال : كان عمر بن
عبدالعزیز يتمثل بهذه الأبيات :

أيقظان أنت اليوم أم أنت نائم
وكيف يطيق النوم حيران هائم
فلو كنت يقظان الغداة لخرقتُ
محاجر عينيك الدموع السواجم
بل أصبحت في النوم الطويل وقد دنت
إليك أمور مفضعات عظام
نهارك يامغرور سهو وغفلة
وليلك نوم والردى لك لازم
يغرك مايبلى وتُشغل بالهوى
كما غرّ باللذات في النوم حالم
وتُشغل فيما سوف تكره غبّه
كذلك في الدنيا تعيش البهائم (١)

(١) حلية الأولياء ٣١٨/٥ - ٣٢٠ ، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن
الجوزي/١٩٣ .

إيمانه بالقضاء والقدر :

أخرج الحافظ أبو القاسم ابن عساكر من خبر الحكم بن عمر قال : شهدت عمر يقول لحرسه : إن بي عنكم غنى ، كفى بالقدر حاجزاً وبالأجل حارساً ، ولا أطرحكم من مراتبكم ليجري لكم سنة بعدي ، من أقام منكم فله عشرة دنانير ومن شاء فليلحق بأهله (١) .

وأخرج محمد بن سعد من خبر أرطاة بن المنذر قال : كان عند عمر بن عبد العزيز نفر يسألونه أن يتحفظ في طعامه و يسألونه أن يكون له حرس إذا صلى لئلا يثور ثائر فيقتله ، ويسألونه أن يتنحى عن الطاعون ، ويخبرونه أن الخلفاء قبله كانوا يفعلون ذلك . قال لهم عمر : فأين هم ؟ فلمّا أكثروا عليه قال : اللهم إن كنت تعلم أنّي أخاف يوماً دون القيامة فلا تؤمّنْ خوفي (٢) .

وقال أبو محمد ابن عبد الحكم وكان عمر بن عبد العزيز يدعو بهذا الدعاء : اللهم رضني بقضائك ، وبارك لي في قدرك ، حتى لا أحب تعجيل ماأخرت ولا تأخير ما عجلت . وكان عمر بن عبد العزيز يقول : ما برح في هذا الدعاء حتى لقد أصبحت ومالي في شيء من الأمور هوى إلا في مواضع القضاء (٣) .

موقفه من الشعراء المداحين :

قال الحافظ ابن كثير : وقال الهيثم بن عدي عن عوانة بن الحكم

(١) تاريخ دمشق ٢١٩/٤٥ - ٢٢٠ .

(٢) طبقات ابن سعد ٣٩٨/٥ ، وانظر حلية الأولياء ٢٩٢/٥ .

(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز ١١١ .

قال : لما استخلف عمر بن عبد العزيز وفد إليه الشعراء فمكثوا ببابه أيامًا لا يؤذن لهم ولا يلتفت إليهم ، فساءهم ذلك وهموا بالرجوع إلى بلادهم ، فمر بهم رجاء بن حيوة فقال له جرير :

يا أيها الرجلُ المرخي عمامتهُ هذا زمانك فاستأذن لنا عمرا
فدخل ولم يذكر لعمر من أمرهم شيئًا ، فمرَّ بهم عدي بن أرطاة
فقال له جرير منشدًا :

يا أيها الراكبُ المرخي مطيتهُ هذا زمانك إني قد مضى زمني
أبلغ خليفتنا إن كنت لآقيهُ أني لدى الباب كالمصفود في قرن^(١)
لاتنسَ حاجتنا لآقيتَ مغفرةً قد طال مكثي عن أهلي وعن وطني
فدخل عدي على عمر بن عبد العزيز فقال : يا أمير المؤمنين
الشعراء ببابك وسهامهم مسمومة وأقوالهم نافذة ، فقال : ويحك
ياعدي ، مالي وللشعراء ، فقال : يا أمير المؤمنين إن رسول الله ﷺ قد
كان يسمع الشعر ويجزي عليه ، وقد أنشده العباس بن مرداس مدحة
فأعطاه حلة ، فقال له عمر : أتروي منها شيئًا ؟ قال : نعم فأنشده :

رأيتك ياخيرُ البرية كلها نشرتَ كتابًا جاءَ بالحق معلما
شرعتَ لنا دينَ الهدى بعدَ جورنا عن الحقِ لما أصبحَ الحقُ مظلمًا
ونورتَ بالبرهانِ أمرًا مدلسًا^(٢) واطفأتَ بالقرآنِ نارًا تضرما
فمن مبلغ عني النبي محمدًا وكلُّ امرئٍ يُجزى بما كانَ قدما

(١) يعني كالموثق في قيد .

(٢) مدلسًا : مخادعًا - كاذبًا .

أَقَمْتَ سَبِيلَ الْحَقِّ بَعْدَ اعْوِجَاجِهِ وَكَانَ قَدِيمًا رُكْنُهُ قَدْ تَهَدَّمَا
تَعَالَى عَلَوًّا فَوْقَ عَرْشِ إِلَهِنَا وَكَانَ مَكَانُ اللَّهِ أَعْلَى وَأَعْظَمَا
فَقَالَ عُمَرُ : مَنْ بِالْبَابِ مِنْهُمْ ؟ فَقَالَ : عُمَرُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ ، فَقَالَ
أَلَيْسَ هُوَ الَّذِي يَقُولُ :

ثُمَّ نَبَهَتْهَا فَهَبَتْ كَعَابَا (١) طِفْلَةٌ مَا تَبِينُ رَجَعَ الْكَلَامُ
سَاعَةً ثُمَّ إِنَّهَا بَعْدُ قَالَتْ وَبَلْنَا قَدْ عَجَلْتَ يَا ابْنَ الْكِرَامِ
أَعْلَى غَيْرَ مَوْعِدٍ جِئْتَ تَسْرِي تَتَخَطَّى إِلَى رُؤُوسِ النِّيَامِ
مَا تَجَشَّمْتَ مَا تَرِيدُ مِنَ الْأَمْرِ وَلَا حَيْثَ طَارَقًا لِحَصَامِ
فَلَوْ كَانَ عَدُوُّ اللَّهِ إِذْ فَجَرَ كَتَمَ وَسْتَرَ عَلَى نَفْسِهِ ، لَا يَدْخُلُ وَاللَّهِ
أَبَدًا ، فَمَنْ بِالْبَابِ سِوَاهُ ؟ قَالَ : هَمَامُ بْنُ غَالِبٍ - يَعْنِي الْفَرَزْدَقَ -
فَقَالَ عُمَرُ : أَوْ لَيْسَ هُوَ الَّذِي يَقُولُ فِي شَعْرِهِ :

هُمَا دَلْيَانِي مِنْ ثَمَانِينَ قَامَةً كَمَا انْقَضَ بَارِزُ أَقْتَمِ الرِّيشِ كَاسِرُهُ
فَلَمَّا اسْتَوَتْ رِجْلَايَ بِالْأَرْضِ قَالَتَا أَحْيِي [فِيرْجِي] أَمْ قَتِيلٌ نَحَازِرُهُ
لَا يَطَأُ وَاللَّهِ بَسَاطِي وَهُوَ كَاذِبٌ ، فَمَنْ سِوَاهُ بِالْبَابِ ؟ قَالَ :
الْأَخْطَلُ ، قَالَ : أَوْ لَيْسَ هُوَ الَّذِي يَقُولُ :

وَلَسْتُ بِصَائِمٍ رَمْضَانَ طَوْعًا وَلَسْتُ بِأَكْلِ لَحْمِ الْأَضَاحِيِّ
وَلَسْتُ بِزَاجِرٍ عَيْسًا بِكُورٍ (٢) إِلَى بَطْحَاءِ مَكَّةَ لِلنَّجَاحِ

(١) كَعَابَا : هِيَ الَّتِي نَهَدَ ثَدْيُهَا .

(٢) عَيْسًا : الْإِبِلُ الْبَيْضُ يَخَالِطُ بَيَاضَهَا سَوَادَ خَفِيفٍ .

ولستُ بزائرٍ بيتًا بعيداً بمكةً أبتغي فيه صلاحي
ولستُ بقائم كالغير^(١) أدعو قبيلَ الصبح حيَّ على الفلاح
ولكنني سأشربها شمولاً وأسجد عند منبلج الصباح
والله لا يدخل علي وهو كافر أبداً^(٢)، فهل بالباب سوى من
ذكرت؟ قال: نَعَمْ الأحوص، قال: أليس هو الذي يقول:
اللَّهُ يَبْنِي وَبَيْنَ سَيِّدِهَا يَفِرُّ مِنِّي بِهَا وَأَتْبَعُهُ
فما هو دون من ذكرت، فمن هنا غيره؟ قال جميل بن معمر،
قال: الذي يقول:

ألا ليتنا نحيا جميعاً وإن نَمْتُ يوافقُ في الموتى خريجي خريجها
فما أنا في طول الحياة براغبٍ إذا قيل [قد] سوى عَليها صَفِيحُها
فلو كان عدو الله تمنى لقاءها في الدنيا ليعمل بذلك صالحاً
ويتوب، والله لا يدخل علي أبداً، فهل بالباب أحد سوى ذلك؟
قلت: جرير، قال أما إنه الذي يقول:

طَرَقَتْكَ صَائِدَةُ الْقُلُوبِ وَلَيْسَ ذَا حِينَ الزِّيَارَةِ فَارْجِعِي بِسَلَامٍ
فإن كان لابد فأذن لجرير، فأذن له فدخل على عمر وهو يقول:
إن الذي بعث النبي محمداً جعل الخلافة للإمام العادل
وسمَّ الخلائق عدله ووفاءه حتى ارعوى وأقام ميل المائل

(١) العَيْر الحمار .

(٢) من المعروف أن الأخطل نصراني، ولو كان مسلماً لأقيم عليه الحد بذلك .

إنسي لأرجو منك خيراً عاجلاً والنفسُ مولعةٌ بحب العاجل
فقال له : ويحك يا جرير ، اتق الله فيما تقول ، ثم إن جريراً
استأذن عمر في الانشاد فلم يأذن له ولم ينهه ، فأنشده قصيدة طويلة
يمدحه بها ، فقال له : ويحك يا جرير لا أرى لك فيما ههنا حقاً ،
فقال : إني مسكين وابن سبيل ، قال : إنا ولينا هذا الأمر ونحن
لا نملك إلا ثلاثمائة درهم ، أخذت أم عبد الله مائة وابنها مائة وقد
بقيت مائة ، فأمر له بها ، فخرج على الشعراء فقالوا : ما وراءك
يا جرير ؟ فقال : مايسوءكم ، خرجت من عند أمير المؤمنين وهو
يعطي الفقراء ويمنع الشعراء وإني عنه لراض ، ثم أنشأ يقول :

رَأَيْتُ رُقَى الشَّيْطَانِ لَا تَسْتَفْزُهُ وَقَدْ كَانَ شَيْطَانِي مِنَ الْجِنِّ رَاقِيَا (١)

هذا خبر مهم في سيرة عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى ،
وقد اخترته لأنه يمثل منهجاً جديداً في ذلك العهد في معاملة الشعراء
الذين يقصدون الأمراء بشعرهم فيمدحونهم طلباً لرفدهم ، وقد كان
هذا الاتجاه مشهوراً في الجاهلية ، ويدخل فيه الغلو والمبالغات والكذب .

ولما قامت دولة الإسلام في المدينة النبوية وفد على النبي ﷺ عدد
قليل جداً من الشعراء ومدحوه بقصائدهم ووصل بعضهم بشيء رمزي
هو عبارة عن اللباس ونحوه تكريماً لهم ، وكان مدحهم بالدرجة
الأولى إشادة بالإسلام ، وقد كان إقرار النبي ﷺ إياهم لأهداف
دعوية منها : أن الشعر كان له - آنذاك - دور كبير في رفع القبائل
والدول وخفضها . فكان النبي ﷺ يقصد من إقرارهم وتكريمهم أن

(١) البداية والنهاية ٩/ ٢٧٣ - ٢٧٥ .

يرفعوا بشعرهم سمعة دولة الإسلام ، وذلك نوع من الجهاد الذي كان يحارب به النبي ﷺ أعداءه ، ولقد أدرك كفار مكة خطورة ذلك عليهم فمنعوا الأعشى ، الشاعر المشهور ، من الوفاة على النبي ﷺ ومدحه بقصيدته المشهورة كما تقدم .

ومنها أنه كان ﷺ يتألف بذلك أولئك الشعراء ليدخلوا في الإسلام ، أو ليثبتوا عليه إن كانوا قد أسلموا .

ولقد انقطع هؤلاء الشعراء حينما عزت دولة الإسلام ولم يعد هناك حاجة لتألف البارزين من العرب إلى الإسلام ، وقد تقدم لنا إنكار أمير المؤمنين عمر بن الخطاب على خالد بن الوليد - رضي الله عنهما - حينما قصده الأشعث بن قيس .

ثم عاد الشعراء في عهد بني أمية إلى انتجاع الأمراء ومدحهم وبالغوا في ذلك كثيراً ، إلى أن تولى الخلافة أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز فقصده كما كانوا يقصدون من قبله من الأمراء ، فكان له هذا الموقف الإسلامي النبيل المذكور في هذا الخبر .

ولقد كان عمر بن عبد العزيز يدرك المقاصد الدعوية التي من أجلها أقر النبي ﷺ الشعراء الذين وفدوا عليه ، ويعلم أن تلك المقاصد قد انتهت وخلفها مقاصد دنيوية تُفسد بُنية المجتمع ، وتشجع على سيادة الأخلاق السيئة ، من الكذب والتغريب والنفاق ، فقطع تلك العادة السيئة ولم تعد إلى الظهور إلا بعد وفاته .

ولقد دل هذا الخبر على أن عمر بن عبد العزيز كان ضليعاً في الأدب حافظاً للشعر، وإن سرعة إدراكه لسوءات أولئك الشعراء

الواقفين على بابه وروايته شيئاً من أشعارهم التي انحطوا فيها دليل على غزارة حفظه وتمييزه بين جودة المقاصد الشعرية ورداءتها .

ولقد كان إذنه لأحد أولئك الشعراء بالدخول عليه وهو جرير اليربوعي التميمي من أجل أن يكون رسولا إلى الشعراء لإعلامهم بالمنهج الإسلامي الذي يسير عليه عمر بن عبد العزيز ، ولقد أدى هذه الرسالة حيث غادر أولئك الشعراء باب أمير المؤمنين ولم يعودوا ، ولقد كان اختيار جرير لأنه كان أقرب أولئك الموجودين إلى التقوى .

ولقد اعترف جرير بأن الشياطين كانوا من وراء الشعراء في استفزاز الأمراء الممدوحين ، وأن عمر بن عبد العزيز قد تميز بحصانته من أولئك الشياطين .

اهتمامه بالجهاد في سبيل الله تعالى :

الناظر إلى سيرة عمر بن عبد العزيز من حيث اهتمامه الكبير المتواصل في إصلاح دولة الإسلام من داخلها يظن أنه قد أوقف جهاد الأعداء لشغله أكثر وقته وفكره في الإصلاحات الداخلية، خصوصا مع معرفة اهتمامه بإعادة جيش مسلمة من القسطنطينية، ولكننا نراه مع قيامه بتلك الإصلاحات الكبيرة قد اهتم بجهاد الأعداء ولكن بأسلوب يضمن أكبر قدر ممكن من سلامة جنود الإسلام، وقد رُويت في ذلك أخبار منها ما ذكر الإمام الطبري بقوله : وفي هذه السنة - يعني سنة مائة - أغزى عمر بن عبد العزيز الوليد بن هشام المعيطي وعمرو بن قيس الكندي من أهل حمص الصائفة (١).

(١) تاريخ الطبري ٥٥٦/٦ ، والصائفة هي الحملة العسكرية التي تخرج في الصيف .

ومن ذلك ما أخرجه ابن سعد من خبر خالد بن ربيعة عن أبيه قال: كتب عمر بن عبد العزيز: إذا دخلت الصائفة فلا تترك أحدًا يدخل في أثرهم إلا في قوة وجماعة من الرجال والخيل والعدد (١).

وكذلك ما أخرجه من خبر صفوان بن عمرو قال: جاءنا كتاب عمر بن عبد العزيز وهو خليفة إلى عامله: أن لاتقاتلن حصنا من حصون الروم ولا جماعة من جماعاتهم حتى تدعوهم إلى الإسلام، فإن قبلوا فاكف عنهم، وإن أبوا فالجزية، فإن أبوا فانبذ إليهم على سواء.

وأخرج أيضا من خبر المنذر بن عبيد قال: كتب إلي عمر بن عبد العزيز في الذمي يغزو مع المسلمين فيؤمن العدو، فكتب: لا يجوز أمانه، وقال: إنما قال رسول الله ﷺ: يجير على المسلمين أديانهم وهذا ليس بمسلم (٢).

(١) طبقات ابن سعد ٣٥٣/٥.

(٢) طبقات ابن سعد ٣٥٥/٥.

٥ - اهتمامه بمكارم الأخلاق

نفوره من الاتهام بالكذب :

نجد من مواقف عمر بن عبد العزيز تقديره البالغ لمكارم الأخلاق وغضبه واشمئزازه من مساوئها ، ومن أمثلة ذلك ما ذكره ابن عبد الحكم من أن عمر خرج مع سليمان بن عبد الملك يريد الصائفة^(١) . فالتقى غلمانه وغلمان سليمان على الماء فاقتتلوا ، فضرب غلمان عمر غلمان سليمان ، فشكوا ذلك إلى سليمان ، فأرسل إلى عمر فقال له : ضرب غلمانك غلماني ، قال : ما علمت ، فقال له سليمان : كذبت ، قال : ما كذبت مذ شددت عليّ إزاري وعلمتُ أن الكذب يضرُّ أهله ، وإن في الأرض عن مجلسك هذا لسعة ، فتجهز يريد مصر ، فبلغ ذلك سليمان فشقَّ عليه فدخلت فيما بينهما عمة لهما ، فقال لها سليمان : قولي له يدخل عليّ ولا يعاتبني ، فدخل عليه عمر فاعتذر إليه سليمان ، وقال له : يا أبا حفص ما اغتممت بأمر ولا أكرمني أمر إلا خطرت فيه على بالي ، فأقام^(٢) .

هذا وإننا لنجد في هذا الخبر إحساسا إسلاميا رفيعا وإدراكا بالغاً لخطورة الكذب ومهانة مرتكبيه ، فالملؤمن الحق قد يتعرض لبعض الذنوب التي منها ارتكاب الظلم ولكنه لا يمكن أبداً أن يكذب لأن الكذب يتنافى مع الإيمان كما جاء في الحديث الذي أخرجه الإمام

(١) يعني الجهاد في الصيف ، وكانوا لشدة البرد في بلاد الروم يخرجون صيفا غالبا .
(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٢٧ - ٢٨ ، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ٢٩ .

مالك عن صفوان بن سليم أنه قال قيل لرسول الله ﷺ : أياكون المؤمن جبانا ؟ فقال : نعم ، فقليل له : أياكون المؤمن بخيلا ؟ فقال : نعم ، فقليل له : أياكون المؤمن كذابا ؟ فقال : لا « (١) .

ونظراً لخطورة الاتهام بالكذب وما يحدثه في نفس المؤمن الواعي من فزع وهول فإننا نجد عمر بن عبد العزيز قد فزع كثيراً حينما اتهمه سليمان بن عبد الملك بالكذب ، ونفى عن نفسه بسرعة أن يكون قد قارف الكذب من حين بلوغه سنّ التمييز ، وأنه قد أدرك في تلك السنّ المبكرة خطورة الكذب فحمى نفسه من الوقوع فيه ، وبلغ فزعه من هذه التهمة وتأثره بها إلى حد العزم على مغادرة الشام إلى مصر ، لمفارقة البلد الذي اتهم فيه بهذه التهمة الفظيعة .

والكذب يعتبر ضعفا في النفس ، وجبنا عن المواجهة ، ولذلك نجد بعض الكبراء يُزهون أنفسهم منه لامن منطلق منافاته للإيمان ، وإنما من منطلق تعارضه مع الرجولة الكاملة وكونه من صفات النقص والضعف ، فنجد الحجاج بن يوسف مثلاً يقول لأحد كتابه : مايقول الناس فيّ ؟ فاستعفاه فلم يُعفه ، قال : يقولون إنك ظلوم غشوم قتال عسوف كذاب ، قال : كل ما قالوا فقد صدقوا فيه إلا الكذب فوالله ما كذبت منذ علمت أن الكذب يشين أهله (٢) .

من أمثلة تواضعه :

أخرج الحافظ أبو القاسم ابن عساكر من خبر الحكم بن عمر

(١) موطأ مالك ، كتاب الكلام ، رقم ٩٩٠ / ٢ .

(٢) هامش سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٢٨ .

الرعياني قال: رأيت عمر بن عبد العزيز إذا صلى المكتوبة انصرف إلى أهله لا يتطوع (١) ، وربما جلس فجاء الغريب الذي لا يعرفه ، وكان يقوم من هذه الحلقة فيجلس مع هذه الحلقة يسأل عن أمير المؤمنين وفي أي حلقة هو ! فيقف لا يدري أيهم حتى يشار إليه : هذا أمير المؤمنين ، فيسلم عليه بالخلافة (٢) .

وذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر الإمام الأوزاعي قال: كان عمر ابن عبد العزيز يجلس إلى قاصّ العامة بعد الصلاة ويرفع يديه إذا رفع ، ودخلت عليه ابنة أسامة بن زيد رضي الله عنهما ومعها مولاة لها تمسك بيدها ، فقام لها عمر ومشى إليها حتى جعل يدها في يده ويداه في ثيابه ، ومشى بها حتى أجلسها في مجلسه ، وجلس بين يديها ، وماترك لها حاجة إلا قضاها (٣) .

وقال أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم وناداه رجلٌ فقال: يا خليفة الله في الأرض . فقال له عمر : مَهْ إني لما ولدت اختار لي أهلي اسمًا فسَمَوْنِي عمر فلو ناديتني يا عمر أجبتك . فلما كبرت اخترت لنفسِي الكُنْيَ فكنيتُ بأبي حفص فلو ناديتني يا أبا حفص أجبتك . فلما وليتُموني أموركُم سميتُموني أمير المؤمنين فلو ناديتني يا أمير المؤمنين أجبتك . وأما خليفة الله في الأرض فلست كذلك ولكن خلفاء الله في الأرض داود النبي عليه السلام وشبهه قال الله تبارك

(١) أي لا يصلي السنة الراتبية في المسجد وإنما يصليها في البيت لكون ذلك أفضل .

(٢) تاريخ دمشق ٢١٠ / ٤٥ - ٢١١ .

(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز / ١٤٦ .

وتعالى : ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ [ص: ٢٦] (١).

جوابه لمن اتهمه بالكبر :

ذكر الحافظ ابن الجوزي من حديث الليث بن سعد أن أبا النضر حدثه قال : دسست إلى عمر بن عبد العزيز بعض أهله أن قل له : إن فيك كبراً وأنتك تتكبر ، فقليل ذلك له ، فقال عمر : لبئس ماظننت إن كنتَ تراني أتوقى الدينار والدرهم مراقبة لله وأنطلق إلى أعظم الذنوب فأرتكبه . الكبرياء إنما هو رداء الرحمن فأنازعه إياه ، و لكن كنت غلاماً بين الغلمان - أو قال بين ظهري قومي - يدخلون علي بغير إذن ويتوطئون فرشي ويتناولون مني مايتناول القوم من أخيهيم الذي لاسلطان له عليهم . فلما أن وليت خيرت نفسي في أن أمكنهم من حالهم التي كنت لهم عليها وأعاقبهم فيما خالف الحق أو أتمنع منهم في بابي ووجهي ليكفوا عني أنفسهم وعن الذي أحذر عليهم لو كنت جرأتهم على نفسي من العقوبة والأدب فهو الذي دعاني إلى هذا (٢).

وهكذا اتهم هذا الولي الصالح و الحاكم العادل بالكبر ، وإنه لعجيب جداً أن يُظنَّ بعمر بن عبد العزيز أنه متكبر وهو الذي خلف الدنيا بجاهها ومالها وراء ظهره ، ولكن الذين ليست لديهم تجارب إدارية يعتقدون أن المسئول يجب أن يكون بابه مفتوحاً للناس في جميع الأوقات ، ولا يعلمون أنه لو فعل ذلك لأضاع كثيراً من أمور الأمة

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز / ٩٤ .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز / ١٤٨ .

المهمة التي تحتاج إلى دراسة ونظر ومشورة من أصحاب الشأن، كما أن المسئول يحتاج إلى وقت للتأمل والتفكير فيما يصلح أمور الأمة ويرفع من مستواها المادي والفكري وغير ذلك مما يلزم له الاحتجاب عن عامة الناس بعض الوقت .

مثل من حلمه على من جهل عليه :

أخرج الحافظ ابن عساكر من خبر الإمام الأوزاعي : أن عمر بن عبد العزيز كان إذا أراد أن يعاقب رجلا حبسه ثلاثة أيام ثم عاقبه كراهية أن يعجل في أول غضبه .

قال : وأسمعه رجل كلاما فقال له : أردت أن يستفزني الشيطان فأناك منك اليوم بما تنال أنت مني يوم القيامة ، انصرف عني عافاك الله ورحمك (١) .

مثل آخر من حلمه :

ومن أمثلة تخلقه بخلق الحلم ما أخرجه محمد بن سعد من خبر عمر بن حفص قال : حدثنا شيخ قال : لما ولي عمر بن عبد العزيز بدابق خرج ذات ليلة ومعه حرسى فدخل المسجد فمر في الظلمة برجل نائم فعثر به ، فرفع رأسه إليه فقال : أمجنون أنت ؟ قال : لا ، فهم به الحرسى ، فقال له عمر : مه إنما سألتني أمجنون أنت فقلت لا (٢) .

(١) تاريخ دمشق ٤٥ / ٢٠٥ - ٢٠٦ ، وانظر البداية والنهاية ٢٠١ / ٩ وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ١٥١ .

(٢) الطبقات الكبرى ٣٩٧ / ٥ ، وانظر تاريخ دمشق ٢٠٦ / ٤٥ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ١٥١ .

وهكذا يمثل عمر بن عبد العزيز القمة في مكارم الأخلاق وقد بلغ القمة في الجاه الدنيوي ، حيث كان أكبر أمير على وجه الأرض ، ومع ذلك يحتمل هذه الكلمة القاسية وينهى حارسه لما أراد أن يعاقب ذلك الرجل .

عفوه عن الذي شجّه في وجهه :

أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر قيس بن عبد الملك قال : وقام عمر بن عبد العزيز إلى قائلته وعرض له رجل بيده طومار ، قال فظن القوم أنه يريد أمير المؤمنين ، فخاف أن يحبس دونه فرماه بالطومار ، فالتفت أمير المؤمنين فأصابه في وجهه فشجّه ، فنظرت إلى الدماء تسيل على وجهه وهو في الشمس ، فقرأ الكتاب وأمر له بحاجته وخلقى سبيله (١) .

مثل من عفوه عند الغضب :

ذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر إبراهيم بن أبي عبلة قال : غضب عمر بن عبد العزيز يوما على رجل غضبا شديداً فبعث إليه فجرده ومده في الحبال ، ثم عاد بالسياط حتى قلنا : هو ضاربه ، قال : خلوا سبيله ، أما إني لولا إني غضبان لسؤتك ، وقرأ ﴿ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٤] (٢) .

فهذا الرجل قد أغضب بجهله أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز

(١) حلية الأولياء ٣١١/٥ ، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ١٥٠ - ١٥١ .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز / ١٥٠ .

ولكنه وسعه بحلمه ، والحلم عند الجهل من مكارم الأخلاق العالية .
وفي قوله « أردت أن يستفزني الشيطان » إدراك منه لسلاح من
أسلحة الشيطان التي يغوي بها أصحاب المسؤولية ، فيحملهم على
السلوك المنافي لمكارم الأخلاق .

ونجده - رحمه الله - يتذكر الآخرة حالا فيبين أن النزول إلى
مستوى الجاهلين ينزل من درجات المسلم في الآخرة ، بينما تكون
عاقبة الصبر على الأذى والحلم عن الجاهلين والإمساك عن الجدل
معهم رفعة الدرجات في الجنة كما جاء في قول النبي ﷺ « أنا زعيم
ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقا » (١) .
مثل من رحمته بالجاهدين :

ذكر ابن عبد الحكم أن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز استفتح
خلافته بثلاثة كتب ، ذكر منها هذا الكتاب حيث قال : كتب بقفل
مسلمة بن عبد الملك من القسطنطينية ، وقد كان سليمان أغزاه إياها
براً وبحراً وأشفى على فتحها ، ثم خدع عنها حتى أحرزوا طعامهم
وحوائجهم ثم أغلقوها دونه بعد الإشفاء عليها ، فبلغ ذلك سليمان
فغضب مما فعل به فحلف أن لا يقفله منها مادام حياً ، فاشتد عليهم
المقام وجاعوا حتى أكلوا الدواب من الجهد والجوع حتى يتنحى الرجل
عن دابته فتقطع بالسيوف فبلغ رأس الدابة كذا وكذا درهماً . ولج
سليمان في أمرهم . فكان ذلك يغم عمر فلما وكي رأى أنه لا يسعه

(١) سنن أبي داود رقم ٤٨٠٠ ، كتاب الأدب باب ٨ ، والزعيم هو الضامن وريض الجنة
يعني طرفها ، والمراء هو الجدال والتزاع .

فيما بينه وبين الله عز وجل أن يلي شيئاً من أمور المسلمين ثم يؤخر قفلهم ساعةً فذلك الذي حملته على تعجيل الكتاب (١).

رحمته بالأسرى :

أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر الإمام الأوزاعي قال : كتب عمر بن عبد العزيز إلى بعض عماله : أن فاد أساري المسلمين وإن أحاط ذلك بجميع مالهم (٢).

مثل من رحمته بالأيتام :

قال الحافظ ابن كثير : وخرج ابن له وهو صغير يلعب مع الغلمان فشجه صبي منهم ، فاحتملوا الصبي الذي شج ابنه وجاؤوا به إلى عمر ، فسمع الجلبة فخرج إليهم فإذا مريثة تقول : إنه ابني وإنه يتيم ، فقال لها عمر : هوني عليك ، ثم قال لها عمر : أله عطاء في الديوان ؟ قالت : لا قال : فاكتبوه في الذرية ، فقالت زوجته فاطمة : أتفعل هذا به وقد شجَّ ابنك ؟ فعل الله به وفعل ، المرة الأخرى يشج ابنك ثانية ، فقال : ويحك إنه يتيم وقد افزعتموه ! (٣) .

وهكذا يشمل لطفه ذلك اليتيم مع إساءته إلى أحد ابنائه ، ويحظى منه بالتعويض المالي مقابل ذلك الفزع الذي حصل له ، فما أبلغ رحمة عمر ، وما أرق مشاعره ، وما أسمى تفكيره في معاملة إخوانه المسلمين !!

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز / ٣٧ .

(٢) حلية الأولياء ٣١٢/٥ .

(٣) البداية والنهاية ٢٠٢/٩ ، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ١٥٠ .

مثل من رحمته بالغلمان :

أخرج الحافظ أبو القاسم ابن عساكر من خبر عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز قال : قال لي رجاء بن حيوة : ما أكمل مروءة أبيك ، سمريت عنده ذات ليلة فعشى السراج فقال لي : ماترى السراج قد عشى ؟ قلت : بلى ، وإلى جانبه وصيف راقد ، قال قلت : ألا أنبهه ؟ قال : لا دعه يرقد (١) ، قال : قلت : أفلا أقوم أنا ؟ قال : لا ليس من مروءة الرجل استخدام ضيفه ، قال : فوضع رداءه ثم قال إلى بطة زيت معلقة فأخذها فأصلح السراج ثم ردها إلى موضعها ثم رجع ، قال : قمت وأنا عمر بن عبد العزيز ورجعت وأنا عمر بن عبدالعزيز (٢) .

فهذا الخبر يدل على قلب كبير يعرف مكارم الأخلاق ويقدرها . فهو يؤثر الرحمة بالمستخدمين على القسوة عليهم ، ويؤثر اكرام الضيف على تكليفه بخدمته مع أنه أمير المؤمنين وأعظم حاكم على وجه الأرض آنذاك ، فالرحمة والتواضع من أخلاق العظماء ، ولا يتصف بهما إلا من تجرد من حظ النفس وعاش للآخرين بفكره وجسمه ووقته .
رحمته بجاريه له :

ذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر النضر بن سهيل عن أبيه قال : قال عمر بن عبد العزيز لجارية له : يا جارية روحيني ، فأقبلت تروحه

(١) وفي رواية ابن كثير « لأحب أن أجمع عليه عملين » .

(٢) تاريخ دمشق ٢٢٥/٤٥ - ٢٢٦ ، وانظر الزهد للإمام أحمد ٢٩٨/ ، والبداية والنهاية ٢٠٣/٩ .

فغلبتها عينها فنامت ، فأخذ المروحة وأقبل يروحها ، فانتبهت فصاحت ، فقال لها عمر : إنما أنت بشر مثلي أصابك من الحرِّ ما أصابني ، وأحببت أن أروِّحك مثل الذي روحتني (١) .

مثل من رحمته بأهل الذمة :

أخرج ابن سعد من خبر عمر بن بهرام الصراف قال : قرئ كتاب عمر بن عبد العزيز علينا : بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عدي بن أرطاة ومن قبله من المسلمين والمؤمنين ، سلام عليكم ، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد : فانظر أهل الذمة فارفق بهم ، وإذا كُبر الرجل منهم وليس له مال فأنفق عليه ، فإن كان له حميم فمرُّ حميمه ينفق عليه ، وقاصه من خواجه (٢) كما لو كان لك عبد فكبرت سنُّه لم يكن لك بدٌّ من أن تنفق عليه حتى يموت أو يعتق (٣) .

فهذا مثل على سمو حكام المسلمين إذا تمثلوا بالإسلام وطبقوا تعاليمه ، وهو بالتالي شاهد على عظمة الإسلام الذي أخرج هذا الحاكم العادل الرحيم وأمثاله ، فالذمي الذي يفتقر لايضيع في دار الإسلام ، لأن حكومة الإسلام ترعاه كما ترعى فقراء المسلمين ، وهي لاترجو منه نفعاً ولا دفع ضرر وإنما تمثل بذلك مكارم الأخلاق التي هي من أعظم مقاصد الإسلام .

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز / ١٤٦ .

(٢) أي حُطَّ عن صديقه من خواجه ما أنفق عليه .

(٣) طبقات ابن سعد ٣٨٠ / ٥ .

مثل من رحمته بالحيوان :

لم تقتصر رحمة عمر بن عبد العزيز على الإنسان بل شملت الحيوان الأعجم ، ومن أمثلة ذلك ما ذكره ابن عبد الحكم رحمه الله من أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى عامله حيان بمصر : إنه بلغني أن بمصر إبلاً نَقَّالَات ، يُحْمَل على البعير منها ألف رطل ، فإذا أتاكَ كتابي هذا فلا أعرفنَّ أنه يحمل على البعير أكثر من ستمائة رطل (١) .

ومن ذلك ما أخرجه الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر أبي عثمان الثقفي قال : كان لعمر بن عبد العزيز غلام يعمل له على بغل له ، يأتيه بدرهم كل يوم ، فجاءه يوماً بدرهم ونصف ، فقال : ما بدا لك ؟ فقال : نَفَقَت السوق ، قال : لا ولكنك أتعبت البغل ، أُرْجِه ثلاثة أيام (٢) .

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ١٦٠ ، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ٦٤ .

(٢) حلية الأولياء ٢٦٠ / ٥ ، وأُرْجِه بمعنى أخرجه للراحة .

٦ - مواقفه في الزهد والورع والخشية -

خبر بدء إنابته :

أخرج الحافظ ابن عساكر من خبر عبد الله بن كثير قال : قيل لعمر بن عبد العزيز : ما كان بُدُوْ إنابتك ؟ قال : أردت ضرب غلام لي فقال لي : يا عمر اذكر ليلةً صبيحتها يوم القيامة (١) .

فهذه موعظة صادفت قلباً مهيباً لها فتمكنت منه ، وكانت سبباً في يقظة عمر بن عبد العزيز وإنابته .

خبره مع سليمان بن عبد الملك بمناسبة البرق والرعد :

أخرج الحافظ ابن عساكر من خبر عبد العزيز بن يزيد الأيلي قال : حج سليمان بن عبد الملك ومعه عمر بن عبد العزيز ، فأصابهم ليلة برق ورعد ، فكادت تنخلع أفئدتهم ، فقال سليمان : يا أبا حفص هل رأيت مثل هذه الليلة قط أو سمعت بها ؟ قال : يا أمير المؤمنين هذا صوت رحمة الله ، فكيف لو سمعت صوت عذاب الله ؟ (٢) .

فهذا مثال على براعة عمر بن عبد العزيز في اغتنام الفرص للدعوة إلى الله تعالى وترقيق القلوب وإثارة الخشية فيها .

خروجه للنزهة والعبرة في ذلك :

من مواقف عمر بن عبد العزيز رحمه الله في تذكر الآخرة وسرعة استحضاره لأهوالها ما ذكر ابن عبد الحكم قال : وخرج عمر

(١) تاريخ دمشق ٤٥ / ١٥٠ - ١٥١ .

(٢) المرجع السابق ٤٥ / ١٥٣ ، وانظر سير أعلام النبلاء ٥ / ١٢١ .

ابن عبد العزيز مع سليمان بن عبد الملك إلى مخرج من مخارجه لم يكن عمر قدّم فيه ثقلاً ، فبلغ المنزل فصار كل رجل إلى مضربه الذي قدّمه ، وصار سليمان إلى حجرة ، ثم فقد عمر فقال : اطلبوه فما أراه قدّم شيئاً ، فطلب فوجد تحت شجرة باكياً ، فأخبر بذلك سليمان فدعاه فقال : ما يبكيك يا أبا حفص ؟ قال : أبكاني يا أمير المؤمنين أني ذكرت يوم القيامة ، من قدّم شيئاً وجده ، ولم أقدم شيئاً فلم أجد شيئاً (١) .

وهكذا رأينا مثالا للوعي الدقيق والتذكر البليغ لأحوال يوم القيامة وأسباب النجاة فيه ، فحينما خرج عمر بن عبد العزيز ولم يُخرج معه متاعاً ذهب كل إنسان بما أعد لنفسه ، وبقي عمر بدون شيء ، وكان بإمكانه أن يطلب من أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك ما يشاء وهو الأثير عنده ، ولكن غلب عليه تذكر الآخرة فأثار شجونه وأبكاه وشغله عن البحث عما يحتاجه من متاع الدنيا .

وهكذا تكون قلوب أهل اليقظة والتفكير ، فإذا وقع الإنسان منهم في عسر وشدة تذكر شدايد يوم القيامة ، فشغله التفكير فيها عن التألم لوضعه الحاضر في الدنيا .

وإذا أنعم الله عليه بنعم الدنيا تذكر عظمة نعيم الآخرة فزهد في الدنيا ، ودفعه ذلك إلى شكر المنعم جلا وعلا .

ويشبه هذا الموقف ما ذكره ابن عبد الحكم قال : وخرج سليمان ابن عبد الملك ومعه عمر بن عبد العزيز إلى الحج فأصابهم مطر شديد ورعد وبرق ، فقال سليمان : هل رأيت مثل هذا يا أبا حفص ؟ فقال :

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٢٧ .

يأمر المؤمنين هذا في حين رحمته فكيف في حين غضبه (١) .
خبره مع الغراب وما فيه من العبر :

قال الحافظ ابن كثير : وقال عثمان بن زبر : أقبل سليمان بن عبد الملك وهو أمير المؤمنين ومعه عمر بن عبد العزيز على معسكر سليمان وفيه تلك الخيول والجمال والبغال والأثقال والرجال ، فقال سليمان : ماتقول يا عمر في هذا ؟ فقال : أرى دنيا يأكل بعضها بعضا وأنت المسئول عن ذلك كله ، فلما اقتربوا من المعسكر إذا غراب قد أخذ لقمة في فيه من فسطاط سليمان وهو طائر بها ونعب نعبه ، فقال له سليمان : ما هذا يا عمر ؟ فقال : لأدري ، فقال ماظنك أنه يقول ؟ قلت : كأنه يقول : من أين جاءت وأين يُذهب بها ؟ فقال له سليمان : ما أعجبك !! فقال عمر : اعجب ممن عرف الله فعصاه ، ومن عرف الشيطان فأطاعه ، ومن عرف الدنيا فركن إليها (٢) .

ونجد في هذا الخبر أن أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك كان معجبا بحكمة عمر بن عبد العزيز وتأملاته العميقة في أمور الدنيا وربطها بأمر الآخرة .

ونجد عمر عبد العزيز في هذا الخبر وأمثاله يغتنم الفرص ليوجه من حوله إلى الاستقامة على أمور الدين وتذكر الحياة الآخرة ، فهو حينما سأل سليمان عن نعب الغراب وهو يحمل تلك اللقمة اغتنم الفرصة ليدكره بلزوم الاستقامة في كسب الأموال وإنفاقها ، وإذا

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٣٠ ، وانظر البداية والنهاية ١٨٧/٩ .

(٢) البداية والنهاية ٢٠٤/٩ ، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ١٧٠ .

ضمن الإنسان الاستقامة في ذلك فقد ضمن الرزق الحلال الخالي من الحرام والشبهات وضمن الإنفاق الحلال الخالي من السرف والخيلاء .

وحينما تعجب سليمان من تفكير عمر زاده موعظة ببيان أن العجب الحقيقي أن ينحرف المسلم عن الطريق المستقيم الموصل إلى رضوان الله تعالى واللجنة بعدما عرف هذا الطريق وعرف المستقبل الأخروي لمن استقام عليها ولمن انحرف عنها .
خشيتته من العذاب بالريح :

أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر سلام بن أبي مطيع قال : بُنِيتُ أن عمر بن عبد العزيز لما قام هاجت ريح ، فدخل عليه رجل فإذا هو منتقع اللون ، فقليل له : يا أمير المؤمنين مالك؟ قال : ويحك وهل هلكت أمة قط إلا من الريح (١) .

فأكثر الناس يرون الريح ويحسون بها ولا تثير في أنفسهم شيئا من الخشية لاعتيادهم عليها ، ولكن عمر بن عبد العزيز تذكر على الفور عذاب الله تعالى للأمم السابقة فتأثر تأثرا شديدا من ذلك ، وهذا دليل على يقظة ضميره وقوة خشيتته من الله تعالى .

خشيتته من ارتكاب السيئات بمكة :

ذكر الشيخ أبو حفص عمر بن محمد الملاء من خبر القاسم بن محمد بن أبي بكر : أن عمر بن عبد العزيز كان يقيم في عمرته يومين ويخرج في الثالث : فقال له عبد الله بن عمر بن عيسى بن عمار : لو أقمت فاستمتعت بهذا البيت واستمتعتنا معك ! فقال :

(١) حلية الأولياء ٣١٣/٥ .

ماأظن أحدا منكم أشد حبا لهذا البيت مني ، ولكن والله لكأنني على الرّصَف (١) من حين أدخله إلى حين أخرج فرقا من أن أحدث .

قال : وهذا حينما كان واليا على المدينة زمن الوليد (٢) .

فهذا مثل من تعظيم عمر بن عبد العزيز للحرم المكي وخشيته من أن يكتب في صحيفته مخالفة وهو فيه لما كان يعلم من نكارة الذنوب فيه وضخامة عقوبة مرتكبيها ، بالرغم من علمه بمضاعفة الحسنات فيه إلى مائة ألف ، ولكن لشدة خشيته فإنه يؤمن بأن اجتناب السيئات مقدم على اجتلاب الحسنات .

زهده في مظاهر الخلافة :

من مواقفه التي جرت منه بعدما بويع بالخلافة انصرافه عن مظاهر الدنيا وتحكيمه للكتاب والسنة في دقيق الأمور وجليلها ، قال ابن عبد الحكم رحمه الله : ولما دُفن سليمان وقام عمر بن عبد العزيز فقرَّبَ إليه المراكب قال : ماهذه ؟ فقالوا : مراكب لم تركب قط يركبها الخليفة أول ما يلي ، فتركها وخرج يلتمس بغلته ، وقال : يامزاحم ضمَّ هذا إلى بيت مال المسلمين ، ونُصبت له سرادقات وحُجِرَ لم يجلس فيها أحد قط كانت تضرب للخلفاء أول مايلُون ، فقال : ماهذه؟ فقالوا : سرادقات وحجر لم يجلس فيها أحد قط يجلس فيها الخليفة أو ما يلي ، قال : يامزاحم ضم هذه إلى أموال المسلمين ، ثم ركب بغلته وانصرف إلى الفرش والوطاء الذي لم يجلس عليه أحد قط يفرش للخلفاء أول مايلون ، فجعل يدفع ذلك برجله حتى يُفْضي

(١) أي الحجارة المحماة .

(٢) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز / ٤٧ .

إلى الحصر ، ثم قال : يامزاحم ضمَّ هذا لأموال المسلمين .

قال : وبات عيال سليمان يُفرَّغون الأدهان والطيب هذه القارورة إلى هذه القارورة ، ويلبسُون مالم يُلبَسُ من الثياب حتى تتكسر ، وكان الخليفة إذا مات فما لبس من الثياب أو مُسَّ من الطيب كان لولده ، ومالم يُلبس من الثياب وما لم يُمسَّ من الطيب فهو للخليفة بعده ، فلما أصبح عمر قال له أهل سليمان : هذا لك وهذا لنا ، قال : وما هذا وما هذا ؟ قالوا : هذا مالبس الخليفة من الثياب ومس من الطيب فهو لولده ، ومالم يمسَّ ولم يلبس فهو للخليفة بعده وهو لك ، قال عمر : ما هذا لي ولا لسليمان ولا لكم ، ولكن يامزاحم ضمَّ هذا كله إلى بيت مال المسلمين ، ففعل .

فتوامر الوزراء فيما بينهم فقالوا : أما المراكب والسراقات والحجر والشوار^(١) والوطاء فليس فيه رجاء بعد أن كان منه فيه ما قد علمتم ، وبقيت خصلة وهو الجوّاري نعرضهن عليه ، فعسى أن يكون ماتريدون فيهن ، فإن كان وإلا فلا طمع لكم عنده ، فأُتي بالجوّاري فعُرضن عليه كأمثال الدُمى ، فلما نظر إليهن جعل يسألهن واحدة واحدة : من أنت ولمن كنت ومن بعث بك ؟ فتخبره الجارية بأصلها ولمن كانت وكيف أخذت ، فيأمر بردهن إلى أهليهن ، ويحملن إلى بلادهن حتى فرغ منهن ، فلما رأوا ذلك أيسوا منه وعلموا أنه سيحمل الناس على الحق^(٢) .

(١) يعني اللباس والزينة ومتاع البيت .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٣٨ - ٤٠ ، وانظر سيرة عمر بن عبد

العزيز لابن الجوّري / ٤٢ .

وهكذا رأينا مشهداً من العادات السيئة والمظاهر الدنيوية التي توارثها الأمراء قبل عمر بن عبد العزيز وأصبحت تتراكم شيئاً فشيئاً حتى وصلت إلى حد لا يختلف كثيراً في الأبهة والتعاضد عما كان عليه ملوك فارس والروم ، وكان الأمراء يرون في تلك المظاهر تثبيتاً لحكمهم وتعظيماً لهيئة السلطان في نفوس الرعية .

ولما تولى عمر بن عبد العزيز رأى أن قيمة تلك المظاهر أخذت من بيت مال المسلمين بدون حق، إلى جانب كونها تنطلق من خلق الكبر الذي جاء ذمه في الإسلام، وتتنافى مع خلق التواضع الذي جاء مدحه في الإسلام، فأمر مولاه مزاحماً بأن يدخلها في بيت مال المسلمين، وركب مركبه السابق الذي لا يميزه عن عامة المسلمين وأوساطهم .

وفي هذا الخبر تبين لنا كيف كان الولاة يتصرفون بأموال المسلمين بغير حق ، ويبتكرون عوائد من الحقوق الخاصة بالوالي الذاهب والوالي القادم في أموال ليس لهم حق التصرف فيها .

وفي تصرف عمر إزاء ذلك مثل واضح على عدله ورعايته لحقوق المسلمين العامة حيث رد تلك الأطياب والملابس إلى بيت مال المسلمين، ويبيّن أنه ليس له حق فيها ولا للأمير الذي قبله وأن هذه العادة مخالفة للإسلام .

كما أن في هذا الخبر دلالة على رعاية عمر للحقوق الخاصة، فتلك الجوارى التي كانت تساق كالدُّمى ، وقد حرّمن من المطالبة بحقوقهن ، واعتبرن من جملة المتاع الذي يرثه الأمراء خلْقاً عن

سلف، قد نظر عمر في أمرهن من ناحية الشرع فلما تحقق أنهن قد أخذن بطريقة غير مشروعة أعادهن إلى أهاليهن .

ونجد في هذا الخبر مثلاً من تفكير أصحاب النفوذ ممن ألفوا تلك المظاهر والعوائد، حيث أرادوا اختبار عمر بالجواري لما ردّ الفرش والأثاث والبيوت لأن داعي الاحتفاظ بالجواري أقوى لدى النفوس التي لا تلتزم في سيرها بهدي الإسلام الشامل لكل نواحي الحياة، فلما ردّ الجواري أيسوا منه وعرفوا أنه سيحمل الناس على الحق الذي يعرفونه ولكن يمنعهم من العمل به اتباع الهوى المنحرف .

زهده في مخصصات الخلافة :

من مواقف عمر بن عبد العزيز في الورع ما ذكره ابن عبد الحكم قال : وكان عمر قد طلق نفسه من الفئى فلم يرزق منه شيئاً إلا عطاء مع المسلمين ، فدخل عليه ابن أبي زكريا فقال : يا أمير المؤمنين إني أريد أن أكلمك بشيء ، قال : قل ، قال : قد بلغني أنك ترزق العامل من عمالك ثلاثمائة دينار ، قال : نعم ، قال : ولم ذلك؟ قال : أردت أن أغنيهم عن الخيانة ، قال : فأنت يا أمير المؤمنين أولى بذلك ، قال : فأخرج ذراعه وقال : يا ابن أبي زكريا إن هذا نبت من الفئى ولست معيداً إليه منه شيئاً أبداً (١) .

وهكذا حرم عمر نفسه من الأجر الذي يعطيه للولاية تورعاً ، ولو سوى نفسه بهم لم ينكر عليه أحد ، بل لو زاد عنهم قليلاً مقابل كثرة نفقته لمنصبه لما كان ذلك منكراً ، ولكنه تورع عن ذلك، وكان تذكره

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٤٦ .

للتجاوز الذي كان من ولاية عشيرته مانعاً له حتى من أخذ حقه في بيت المال فرحمه الله رحمة واسعة .

مثل من طموحه نحو المعالي :

أخرج محمد بن سعد من خبر سعيد بن عامر عن جويرية بن أسماء قال : قال عمر بن عبد العزيز : إن نفسي هذه نفس تواقة ، وإنها لم تعط شيئاً إلا تآقت إلى ما هو أفضل منه ، فلما أُعْطِيَ الذي لا شيء أفضل منه في الدنيا تآقت إلى ما هو أفضل من ذلك .

قال سعيد : الجنة أفضل من الخلافة (١) .

فهذه المقارنة تبين لنا عظمة عمر بن عبد العزيز ورجاحة عقله وسمو تفكيره ، فإن أعلى منزلة في الدنيا لاتعادل أدنى منزلة في الجنة ، فمن ضيع منازل الجنة بالحرص على منازل الدنيا كان من الخاسرين .

ورعه عما حمل على دواب البريد :

مثل آخر من ورع عمر الدقيق رحمه الله فقد أتت إليه سلتا رطب من الأردن ، فقال : ما هذا ؟ قالوا : رطب بعث به أمير الأردن ، قال : علام جيء به ؟ قالوا : على دواب البريد ، قال : فما جعلني الله أحق بدواب البريد من المسلمين ، أخرجوهما فبيعوهما واجعلوا ثمنهما في علف دواب البريد ، فغمزني (٢) ابن أخيه فقال لي : إذهب فإذا قامت على ثمن فخذهما علي ، فجئت بهما إلى ابن أخيه فقال :

(١) طبقات ابن سعد ٤٠١/٥ ، وانظر تاريخ دمشق ٢٠٨/٤٥ .

(٢) القائل هو راوي الخبر أبو شيبان وهو الذي قدم بالرطب .

أذهب بهذه الواحدة إلى أمير المؤمنين ، وحبس لنفسه واحدة ، فأتيته بها فقال : ما هذا ؟ قلت : اشتراهما فلان ابن أخيك فبعث إليك بهذه وحبس لنفسه الأخرى ، قال : الآن طاب لي أكله (١) .

وهذا مثال دقيق على ورع عمر واهتمامه البالغ بالحلال والحرام فإن فكر المسلم العادي لا يذهب إلى السؤال عن الدواب التي حُمِلَ عليها الطعام ، وإنما قد يسأل عن الطعام نفسه من باب التحري ، ومع أن البريد لم يأت من أجل ذلك التمر فإن عمر رده تورعا ، وأمر بجعل ثمنه علفًا لدواب البريد ، وحينما تصرف ابن أخيه ذلك التصرف الحسن فأهداه من ذلك التمر أكل منه طيبةً به نفسه ، فما أعظم الإسلام تمثلاً في صدور السابقين بالخيرات الذين يميزون بين الحلال الخالص والشبهات التي قد توصل إلى الحرام !
رده أحد أملاكه من الإقطاع :

من مواقفه رحمه الله في الورع ما حدث به الإمام عبد الله ابن المبارك رحمه الله تعالى قال : قال عمر بن عبد العزيز لمزاحم - وكان مزاحم موله وكان فاضلاً - قال : إن هؤلاء القوم - يعني أهله - أقطعوني مالم يكن لي أن آخذه ولا لهم أن يعطوني ، وإني قد هممت بردها على أربابها قال فقال مزاحم : فكيف تصنع بولدك؟ قال : فَجَرَتُ دموعه على وجنته وجعل يمسحها بأصبعه الوسطى ويقول : أَكْلُهُمْ إلى الله ، قال عبد الله : وكأن مزاحما - مع فضله -

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٩٤ ، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ١٣٣ .

لم يقنع بقوله : فخرج مزاحم فدخل على عبد الملك بن عمر بن عبدالعزيز ، فقال : إن أمير المؤمنين قد همَّ بأمرٍ لهُوَ أضرُّ عليك وعلى ولد أبيك من كذا وكذا ، إنه همَّ برَدِّ السهلة - قال عبد الله : وهي باليمامة وهي أمر عظيم - قال : وكان عيش ولده منها ، قال عبد الملك : فماذا قلت له ؟ قال كذا وكذا ، قال : بثس لعمر الله وزير الخليفة أنت ، قال : ثم قام ليدخل على عمر بن عبد العزيز وقد تبوأ مقيله ، قال : فاستأذن فقال له البواب : إنه قد تبوأ مقيله ، قال : مامنه بد ، قال : سبحان الله ألا ترحمونه ! إنما هي ساعته ، قال : فسمع عمر صوته فقال : عبد الملك ؟ قال : نعم ، قال : ادخل ، فدخل ، قال : ماجاء بك ؟ قال : إن مزاحما أخبرني بكذا وكذا ، قال : فما رأيك فإني أريد أن أقوم بالعشية ؟ قال : أرى أن تعجله فما تأمن أن يحدث الله بك حدثا ، قال : فرفع يديه وقال : الحمد لله الذي جعل من ذريتي من يعينني على ديني ، قال : ثم قام من ساعته فجمع الناس وأمر بردها (١) .

وهكذا لما علم أن تلك المزرعة التي باليمامة قد آلت إليه عن طريق الإقطاع من الولاة الذين سبقوه تخرج من بقائها في ملكه ، لأنه ليس كل المسلمين نالوا مثل ذلك ، فلم ير أن له حقاً في الاختصاص بملكها ، فردّها إلى بيت مال المسلمين ، مع ما ذكر من أنها ملك عظيم وأن عيش أولاده منها ، وهذا مثال على إحساسه الدقيق وورعه العميق .

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ٨٩ - ٩٠ ، وانظر تاريخ دمشق

وفي هذا الخبر يظهر عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز ورعا تقيا كأيّيه، وبهذا الإيمان القوي والسلوك العالي كان عبد الملك عوناً لأبيه في حمل الناس على الاستقامة، خاصة فما يتعلق بأسرته رحمهما الله تعالى.

مقدار مآرده من ماله لبيت المال :

أخرج الحافظ أبو القاسم ابن عساكر من خبر عبد العزيز بن عمر ابن عبد العزيز قال: دعاني أبو جعفر (١) فقال : كم كانت غلة عمر حين أفضت إليه الخلافة ؟ قلت : خمسون ألف دينار، فقال : كم كانت يوم مات ؟ قلت : مآزال يردها حتى كانت غلته مائتا دينار، ولو بقي لردها (٢).

وإذا كانت غلة أملاكه خمسين ألف دينار فكم هي قيمتها ؟ إنها مبلغ كبير ، ومع ذلك عفا عنه ورده إلى بيت مال المسلمين، فخلد بذلك ذكره في الدنيا وحاز على الدرجات العلى في الآخرة .

مثل من تورعه عن مال المسلمين :

أخرج الحافظ ابن عساكر من خبر يزيد بن أبي حبيب قال: وقيل لعمر بن عبد العزيز : يا أمير المؤمنين لو أنك أخذت كما يأخذ عمر بن الخطاب، يأخذ درهمين كل يوم ، قال: إن عمر لم يكن له مال، وأنا لي مال يغنيني عن ذلك، ورد عمر بن عبد العزيز في بيت المال ماكان أعطاه سليمان والخلفاء قبله (٣).

(١) هو أمير المؤمنين أبو جعفر المنصور .

(٢) تاريخ دمشق ٤٥ / ٢١٠ .

(٣) تاريخ دمشق ٤٥ / ٢١٢ .

استجابة دعائه في ابنه الصغير :

من مواقفه أيضاً في الورع رحمه الله ما قام به من رد أمواله التي شك في أصل اكتسابها إلى بيت مال المسلمين، وفي ذلك يقول : مامن شيء إلا وقد رددته في مال المسلمين إلا العين التي بالسويداء فلإني عمدت إلى أرض براح ليس فيها لأحد من المسلمين ضربة سوط فعملتها من صلب عطائي الذي يُجمع لي مع جماعة المسلمين، فجاءته غلتها مائتا دينار ، وجراب فيه تمر صيحاني وتمر عجوة، فقال : هات اصببُ للقوم من هذه العجوة فهي أبرد وأصح .

وهكذا رد عمر أمواله إلى بيت مال المسلمين لاعتقاده بأن أصلها من مال المسلمين العام، وأن الولاة الذين سبقوه أعطوه إياها بغير حق لأنهم لم يعطوا سائر المسلمين مثلها ماعدا ذلك البستان الذي ذكر في السويداء حيث كان من عطائه الذي يأخذ مثله أي فرد من المسلمين، فأصبح يأكل من غلته القليلة وهو قرير العين لأن أصله حلال ليس فيه شبهة .

وجاء في سياق هذه الرواية « قال : وسمع النساء بمال قد قدم عليه فأرسلن إليه بابن له غلام ليعطيه من ذلك المال ، فلما جاء الغلام قال : احفنوا له من ذلك التمر ، فحفنوا له من ذلك، فخرج الغلام فرحاً حتى إذا انتهى إلى النساء فرأين التمر ضربن الغلام، ثم قلن له : اذهب فانثره بين يديه، فأقبل الغلام فنثره بين يديه وأهوى بيديه إلى الذهب ، فقال عمر للوليد بن هشام من آل أبي معيط : أمسك يديه يا وليد، فأمسك يديه الوليد ، ودعا عمر بدعاء له كثير، وكان من

دعائه اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، بَغْضٍ إلى هذا الغلام هذا الذهب كما حَبَّبَتْهَا إلى فلان بن فلان ، أرسل يديه يا وليد، فارتعشت يده فما مس منها ديناراً وانصرف ، فقال له رجل : لقد استجيت لك يا أمير المؤمنين ، ثم قال عمر : أخرجوا زكاة هذه المائتي دينار (١) فقال الرسول : يا أمير المؤمنين لقد أُخِذَ خرص هذا الحائط، قال : يا بني ليس هذا من عملك ، قال : فَأُخْرِجُوا خمسة دنائير ، ثم قال : دلوني على رجل أعمى ليس له قائد، قال : بينما القوم يتذكرون، قال عمر : لقد وقعت عليه وقد ذكرته وهو الشيخ الجزري الأعمى، يأتي في الليلة المظلمة الماطرة ليس له قائد، أخرجوا له ثمن قائد، لا كبير يقهره ولا صغير يضعف عنه، قال : فَأُخْرِجُوا له منها خمسة وثلاثين ديناراً قال : ثم دعا عمر بالذي يقوم على نفقة أهله فقال : خذ هذه الذهب فأنفقها على عيالتنا إلى أن يخرج عطائي مع المسلمين أو يقضي الله قبل ذلك (٢) .

وفي هذا الخبر رأينا فزع عمر حينما جاء ولده الصغير فرمى بالتمر وأخذ الذهب ودعا الله تعالى أن يبغض إليه الذهب فارتعشت يدا الولد ، ولم يمس منها ديناراً ، وهكذا استجاب الله تعالى دعوة ذلك

(١) يعني غلة بستانه .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٤٧ ، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ٩١ .

الإمام العادل في الحال ، وهذا دليل على قربه من الله تعالى
وصلاحه .

ونجد عمر في هذا الخبر مع شدة احتياجه للمال وقلة غلة بستانه
ينفق منها خمسة وثلاثين ديناراً أجراً لقائدٍ خصصه لرجل أعمى .
فما أعظم عمر بن عبد العزيز ! وما أشد إحساسه بحاجات
الناس !

أمثلة من تحريره في ملكية الجواري :

من ذلك خبر الجارية التي أهدتها إليه زوجته فاطمة بنت عبد
الملك ، فقال للجارية : لمن كنت ؟ قالت : وهبني عبد الملك
لفاطمة ، قال : فلمن كنت قبل عبد الملك ؟ قالت : كنت لقوم
بالبصرة فأخذ عاملها أموالهم ، فكنت فيما أخذه ، فبعث بي إلى
عبد الملك فوهبني لفاطمة ، فدعا عمر بالبريد فكتب إلى عامل البصرة
فأمره بردها إلى أهلها (١) .

فهذا مثل من أمثلة بعده عن شهوات الدنيا ، وتحريره عن مصادر
الأموال ليعيد الحقوق إلى أصحابها ، فقد بحث عن أصل ملكية تلك
الجارية حتى تبين له أنها وصلت إلى فاطمة بنت عبد الملك من طريق
غير صحيح فأعادها إلى أهلها .

وأخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر إبراهيم بن هشام بن
يحيى بن يحيى قال حدثني أبي عن جدي . قال : كانت لفاطمة بنت

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٦٠ ، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز

لابن الجوزي / ٨٧ ، ١٣١ .

عبد الملك امرأة عمر جارية ، فبعثت بها إليه وقالت إني قد كنت أعلم أنها تعجبك وقد وهبتها لك فتناول منها حاجتك . فقال لها عمر اجلسي يا جارية فوالله ماشيء من الدنيا كان أعجب إلي أن أناه منك ، فأخبريني بقصتك وما كان من سييك ؟ قالت : كنت جارية من البربر جئني أبي جناية فهرب من موسى بن نصير عامل عبد الملك على أفريقية فأخذني موسى بن نصير فبعث بي إلى عبد الملك فوهبني عبد الملك لفاطمة فأرسلت بي إليك ، فقال : كدنا والله نفتضح ، فجهزها وأرسل بها إلى أهلها (١) .

وهكذا سما عمر بن عبد العزيز بإيمانه القوي ويقينه الراسخ على شهوات النفس ، مع أن الظاهر من الخبر أن تلك الجارية مباحة له بعد أن أهدتها إليه زوجته التي تملكها ، ولكنه لم يكن في وقته متسع للنساء بعد أن شغل جُل وقته بأمور الرعية ، ثم ألهمه الله تعالى إلى البحث عن أصل تلك الجارية فتبين له أنها وصلت بطريق غير مشروع فردها إلى أهلها لأنها لم تعد جارية مملوكة بل حرة اغتصبت من أهلها ، وهكذا يفتح الله تعالى على السابقين بالخيرات أنواراً من الفرقان يفرقون بها بين الحق والباطل .

تورعه عن مزارع خبير :

ومن ذلك ماجاء في رواية لابن عبد الحكم قال : وكان عمر ابن عبد العزيز نظر في مزارعه فخرق سجلاتها حتى بقيت مزرعتا خبير والسويداء فسأل عن خبير من أين كانت لأبيه ؟ قيل : كانت في نحل

(١) حلية الأولياء ٥ / ٢٦٠ ، وانظر تاريخ دمشق ٤٥ / ١٩٥ ، والبداية والنهاية ٩ / ٢٠١ .

رسول الله ﷺ فتركها رسول الله ﷺ فيئاً للمسلمين ثم صارت إلى مروان أبيك ، ثم أعطاكها أبوك ، فخرق عمر سجلها وقال : أتركها حيث تركها رسول الله ﷺ (١) .

فهذا مثل على ورع عمر بن عبد العزيز واحتياطه بالبعد عن الشبهات ، فحيث علم أن أصل مزرعة خبير قد جعلها رسول الله ﷺ فيئاً للمسلمين ، فإنه قد جعلها كذلك ، مع أنه لم يبحث طريق وصولها إلى جده مروان .

تورعه عن حلي زوجته :

ومن ذلك خبر حلي زوجته فاطمة حيث قال لها : قد علمت حال هذا الجوهر ، وما صنع فيه أبوك ومن أين أصابه ، فهل لك أن أجعله في تابوت ثم أطبع عليه وأجعله في أقصى بيت مال المسلمين ، وأنفق مادونه ، فإن خلصت إليه أنفقته ، وإن مت قبل ذلك فلعمري ليردنه إليك ، قالت له : افعل ما شئت ففعل ذلك ، فمات رحمه الله ولم يصل إليه ، فرد ذلك عليها أخوها يزيد بن عبد الملك ، فامتنعت من أخذه ، وقالت : ما كنت لأتركه ثم أخذه ، فقسمه يزيد بين نسائه ونساء بنيته (٢) .

فهذا ابتلاء داخل بيت عمر حيث تذكر أن حلي زوجته فاطمة

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٦١ ، سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ٩٠ .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٦٢ .

وانظر الكامل لابن الأثير ٤ / ١٥٣ .

بنت عبد الملك قد أعطاه إياها أبوها ، ولعله كان من مال المسلمين العام ، فلم يسعه أن يبقيه بيدها وقد أخذ على نفسه أن يعيد إلى بيت مال المسلمين كل ما أخذ منه بغير حق .

وقد كانت له مطبعة بارة ، ثم تبين ورعها حين رد ذلك الحلي إليها أخوها يزيد فلم تأخذه .

لقد استطاع عمر بتوفيق الله تعالى أن يؤثر عليها وعلى بنه ، وأن يكون أسرة عالية في الصلاح والتقوى رحمهم الله جميعا .

تورعه عن صرف شيء من المال العام في الحج :

ومثل آخر من ورعه وسمو هدفه في هذه الحياة ، فقد قال لمولاه مزاحم : إني قد اشتريت الحج فهل عندك شيء ؟ قال : بضعة عشر دينارا ، قال : وماتقع مني ؟ ثم مكث قليلا ، ثم قال له : يا أمير المؤمنين تجهز فقد جاء مال سبعة عشر ألف دينار من بعض مال بني مروان ، قال : اجعلها في بيت المال ، فإن تكن حلالا فقد أخذنا منها مايكفي ، وإن تكن حراما فكفانا ماأصبنا منها .

فلما رأى عمر ثقل ذلك عليّ قال : ويحك يامزاحم ، لا يكثرنّ عليك شيء صنعته لله ، فإن لي نفسا تواقّة ، لم تتق إلى منزلة فنالتها إلا تآقت إلى ماهي أرفع منها ، حتى بلغت اليوم المنزلة التي ليس بعدها منزلة وإنها اليوم قد تآقت إلى الجنة (١) .

ففي هذا الخبر تورع عمر رحمه الله عن ذلك المال الذي لا يدري

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٦٢ ، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ٥٣ .

هل هو حلال أم حرام ؟ ولم يرض أن ينفق منه في الحج كما كان قبل ذلك لا يرضى أن ينفق على نفسه من مال فيه شبهة ، بل إن موضوع النفقة في العبادة أولى بالتحري والبعد عن الشبهات .

وفي آخر الخبر مثل من سمو تفكيره وعلو مقصده ، حيث ذكر وصوله إلى أعلى قمة في الحياة الدنيا ، وأن نفسه قد تاقّت إلى ما هو أعلى من ذلك بكثير وهو الظفر بنعيم الجنة ، فأصبح يُسَخَّر كل ما بيده من سلطان للوصول إلى الجنة ، ولذلك كان قويا في عدله ، حازما في قراراته لأن هدفه الأعلى لا يحصل له إلا بذلك .

أما الذين يجعلون هدفهم منازل الحياة الدنيا فإنهم يترددون في إصدار القرارات ويتناقضون فيها بين الحين والآخر ، لأنهم يراعون أمور الدنيا ، وهي متقلبة بتقلب أبنائها .

تورعه عن دماء الناس وأموالهم :

هذا ومن نماذج تورعه عن دماء الناس وأموالهم ما جاء في كتابه إلى عدي بن أرطاة ، عامله على البصرة حيث قال فيه : أما بعد فقد جاءني كتابك تذكر أن قبلك عُمَلاً قد ظهرت خيانتهم ، وتسألني أن أذن لك في عذابهم ، كأنك ترى أنني لك جنة من دون الله ، فإذا جاءك كتابي هذا فإن قامت عليهم بينة فخذهم بذلك ، وإلا فأحلفهم دُبْر صلاة العصر بالله الذي لا إله إلا هو ما اختانوا من مال المسلمين شيئاً ، فإن حلفوا فخل سبيلهم ، فإنما هو مال المسلمين ، وليس للشحيح منهم إلا جهد أيمانهم ، ولعمري لأن يلقوا الله بخياناتهم

أحب إلي من أن ألقى الله بدمائهم ، والسلام (١) .

وهكذا كان عمر رحمه الله شديداً في محاسبة الولاة ، حريصاً على أموال المسلمين ، ولقد فهم والي البصرة أن مما يترتب على هذا المنهج أن يقوم بتعذيب العمال الذين ظهرت خيانتهم ، فاستأذن أمير المؤمنين عمر في ذلك ، فكان جوابه جواب الرجل الذي يخشى الله تعالى في دماء المسلمين وأعراضهم .

وقد أشار إلى نقطة مهمة وهي أن كل وال مسئول عن عمله وعن كل ما يقوم به من إحسان أو عقوبة ، وأن صدور الأوامر من مسئول أعلى منه لا يسوغ وقوعه في الخطأ والتجاوز لأن المسئول الأعلى قد لا يعلم تفاصيل الأمر كما يعلمها هو .

وبين في كتابه لذلك الوالي أنه إذا قامت البينة على مسئول بخيانة فيجب أخذه بذلك ، وإن لم تقم عليه بينة فيكفي لبراءته ظاهراً أن يحلف بعد صلاة العصر بالله الذي لا إله إلا هو ما اختان من مال المسلمين شيئاً .

ثم يختم عمر كتابه ببيان ما ينتظره و ينتظر الولاة من الوقوف للحساب بين يدي الله تعالى فيما إذا وقع منهم ظلم للآخرين ، وفي هذا تذكير للمسئولين بأن يراقبوا الله سبحانه ، ويتذكروا وقوفهم بين يديه للحساب ، وهذا يجعلهم يترددون كثيراً قبل أن يقدموا على ثواب أو عقاب .

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٦٥ ، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ٦٨ .

نماذج من تورعه عن المال العام :

ومن ذلك أنه وفد عليه بريد من بعض الآفاق ، فانتهى إلى باب عمر ليلا فقرع الباب فخرج إليه البواب فقال : أعلم أمير المؤمنين أن بالبواب رسولا من فلان عامله ، فدخل فأعلم عمر ، وقد كان أراد أن ينام ، فقعده وقال : إئذن له ، فدخل الرسول فدعا عمر بشمعة غليظة فأججت نارا ، وأجلس الرسول ، وجلس عمر فسأله عن حال أهل البلد ومن بها من المسلمين وأهل العهد ، وكيف سيرة العامل وكيف الأسعار ، وكيف أبناء المهاجرين والأنصار وأبناء السبيل والفقراء ، وهل أعطى كل ذي حق حقه ، وهل له شك وهل ظلم أحدا ؟

فأنبأه بجميع ما علم الرسول من أمر تلك المملكة ، فلم يدع شيئا إلا أنبأه به ، كل ذلك يسأله فيحفي السؤال حتى إذا فرغ عمر من مسأله قال له : يا أمير المؤمنين كيف حالك في نفسك وبدنك؟ وكيف عيالك وجميع أهل خزانتك ومن تُعنى بشأنه ؟ قال : فنفخ عمر الشمعة فأطفأها بنفخته وقال : يا غلام عليّ بسراج ، فدعا بفتيلة لاتكاد تضيء فقال : سل عما أحببت ، فسأله عن حاله فأخبره عن حاله وحال ولده وعياله وأهل بيته ، فعجب البريد للشمعة وإطفائه إياها وقال : يا أمير المؤمنين رأيتك فعلت أمرا ما رأيتك فعلت مثله ، قال : وما هو ؟ قال : إطفائك الشمعة عند مسألي إياك عن حالك وشأنك .

فقال : يا عبد الله إن الشمعة التي رأيتني أطفأتها من مال الله ومال المسلمين وكنت أسألك عن حوائجهم وأمرهم فكانت تلك

الشمعة تَقْدُ بين يديَّ فيما يصلحهم وهي لهم : فلما صرتُ لشأني وأمر عيالي ونفسي أطفأتُ نار المسلمين (١) .

فهذا التصرف الذي قام به عمر بن عبد العزيز في غاية السمو من الورع ، وفيه ملاحظة في الفصل بين حق النفس وحق المسلمين .

ولو تصور أيّ مسئول هذا الأمر لأدرك أن القليل جداً من المسؤولين يُحْطَى بهذا التذكر السريع في أمر حقير كهذا ، ثم القليل من هؤلاء الذي يتورع بهذه الدقة ، فيجتنب الاستفادة من حق المسلمين العام في مثل هذا الأمر الصغير .

ويشبه هذا في حياة المسؤولين استعمال الورق والأقلام والظروف ونحوها لصالح المسئول الخاص مما كان خاصاً بالعمل .

وقد يحتقر المسئول هذا الأمر ولا يُلْقِي له بالاً لعدم ظهور النقص في الحق العام بشكل واضح ، ولكن المبدأ واحد في عدم جواز استخدام حق المسلمين العام في الشؤون الخاصة ، سواء في أمر خطير أو في أمر حقير .

وأخرج محمد بن سعد من خبر جويرية بن أسماء قال : قال عمر يامزاحم بعني رَحْلاً لمصحفي ، قال فأتاه برحْلٍ فأعجبه ، قال : من أين أصبتَ هذا ؟ قال : يا أمير المؤمنين دخلتُ بعض الخزائن فوجدتُ هذه الخشبة فاتخذتُ منها رَحْلاً . قال : انطلق فقوّمه في السوق . فانطلق فقوّمه نصف دينار فرجع إلى عمر فأخبره ، قال : ترانا إن وضعنا في بيت المال ديناراً أنسلم منه ؟ قال : إنّما قوّمه نصف دينار . قال : ضَع في بيت المال دينارين .

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ١٥٥ .

وأخرج أيضا من خبر علي بن مسعدة قال : حدثنا رياح بن عبيدة قال : أخرج مسك من الخزائن فلما وضع بين يدي عمر أمسك بأنفه مخافة أن يجد ريحه ، فقال له رجل من أصحابه : يا أمير المؤمنين ماضرك أن وجدت ريحه ؟ فقال عمر : وهل يُتَغى من هذا إلا ريحه ؟

وأخرج أيضا من خبر فُرات بن مسلم قال : كنت أعرض على عمر بن عبد العزيز كتبي في كل جمعة فعرضتها عليه فأخذ منها قرطاساً قدر شبر أو أربع أصابع بقي فكتب فيه حاجة له ، فقلت : غفل أمير المؤمنين . فلما كان من الغد بعث إليّ أن تعال وجئ بكتبك ، فجئته بها فبعثني في حاجة ، فلما جئت قال : مانال لنا أن ننظر في كتبك بعد ، قلت : لا إنما نظرت فيها أمس . قال : خذها حتى أبعث إليك . فلما فتحتُ كتبي وجدتُ فيها قرطاساً قدر قرطاسي الذي أخذ .

وأخرج أيضا من خبر وهيب بن الورد قال : بلغنا أن عمر بن عبدالعزيز اتخذ دار الطعام للمساكين والفقراء وابن السبيل . قال وتقدم إلى أهله : إياكم أن تصيبوا من هذه الدار شيئا من طعامها فإنما هو للفقراء والمساكين وابن السبيل . فجاء يوماً فإذا مولاة له معها صحيفة فيها غرفة من لبن فقال لها : ماهذا ؟ قالت : زوجتك فلانة حامل كما قد علمت واشتهدت غرفة من لبن ، والمرأة إذا كانت حاملاً فاشتهدت شيئا فلم تُؤت به تخوّفت على مافي بطنها أن يسقط ، فأخذتُ هذه الغرفة من هذه الدار . فأخذ عمر بيدها فتوجّه بها إلى زوجته وهو

عالي الصوت وهو يقول : إن لم يُمسك مافي بطنها إلا طعامُ المساكين والفقراء فلا أمسكه الله . فدخل على زوجته فقالت له : مالك ؟ قال : تزعم هذه أنه لا يُمسك مافي بطنك إلا طعام المساكين والفقراء ، فإن لم يُمسكه إلا ذلك فلا أمسكه الله . قالت زوجته : رُدِّيه ويحك ، والله لا أذوقه . قال : فردَّته .

وأخرج من خبر عُبَيْد بن الوليد قال : سمعتُ أبي يذكر أنَّ عمر ابن عبد العزيز كان يسخِّن له في مطبخ العامة ماء يتوضَّأ به وهو لا يعلم ، ثمَّ علم بعد ذلك فقال : كم لكم منذ أسختموه ؟ فقالوا : شهر أو نحوه . قال فألقى في مطبخ العامة لذلك حطباً (١) .

وأخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر الحكيم بن عمر قال : شهدت عمر بن عبد العزيز وأرسل غلامه يشوي بكبكة من لحم ، فعجل بها ، فقال : أسرع بها ! قال : شويتها في نار المطبخ - وكان للمسلمين مطبخ يغديهم ويعشيهم - فقال لغلامه : كُلْها يا بني فإنك رزقتها ولم أرزقها (٢) .

فهذه الأخبار تفيد تورع أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى عن الاستفادة من مال المسلمين العام ، وهي تبين ورعه عن أشياء صغيرة جداً لاتلفت نظر أكثر الناس ، لكنه لدقة إحساسه بالحرام والشبهات تنبه لها ، فقدم بذلك أمثلة رائعة للتورع أصبحت عبرة

(١) طبقات ابن سعد ٣٦٦/٥ ، ٣٦٨ ، ٣٧٧ - ٣٧٩ ، ٣٩٩ وانظر تاريخ دمشق ٢١٤/٤٥ - ٢١٩ .

(٢) حلية الاولياء ٢٩١/٥ .

لأفراد الأمة من معاصريه والذين جاؤوا بعده رحمه الله تعالى رحمة واسعة .

خوفه من الرياء والسمعة :

أخرج محمد بن سعد من خبر ميمون بن مهران قال : كنت في سمر عند عمر بن عبد العزيز ليلة فتكلم فوعظ ، قال : ففطن لرجل خذف بدمعته فسكت ، فقلت : يا أمير المؤمنين عُدْ لمنطقك لعل الله أن ينفع بك من بلغه وسمعه ، فقال : ياميمون إن الكلام فتنة وإن الفعل أولى بالمرء من القول (١) .

وهكذا سكت عن الوعظ حينما أحس بشيء من الإعجاب بالنفس لما رأى أن كلامه أبكى ذلك الرجل ، وهذا يدل على كمال إخلاصه لله تعالى وقوة توحيده ، وقد ذكر ليمون بن مهران أن الكلام فتنة ، وذلك أن الإنسان قد يعجب بنفسه لما يرى من قوة تأثيره على الناس فيكون ذلك سببا في نقص إخلاصه ، حيث يتكلم ليراه الناس فيمدحوه ويتحدثوا عنه .

وفي هذا المعنى ما ذكر الحافظ أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي من خبر سعيد بن عبد العزيز قال : كان عمر بن عبد العزيز إذا خطب على المنبر فخاف فيه العجب قطع ، وإذا كتب كتابا فخاف فيه العجب مزقه ، ويقول : اللهم إني أعوذ بك من شر نفسي (٢) .

(١) طبقات ابن سعد ٣٧١/٥ وانظر تاريخ دمشق ٢٢٩/٤٥ وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ١٨٤ .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ٥١ .

وكذلك ما أخرجه الحافظ ابن عساكر من خبر نعيم بن عبد الله كاتب عمر بن عبد العزيز أن عمر بن عبد العزيز قال : إنه ليمنعني من كثير من الكلام مخافة المباهاة (١).

مثل من حرصه على إخفاء عمله الصالح :

ذكر الشيخ عمر بن محمد الخضر الملاء من خبر رجاء بن حيوة قال : لما مات أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز وقام يزيد بن عبد الملك بعده في الخلافة ، أتاه عمر بن الوليد بن عبد الملك فقال ليزيد : يا أمير المؤمنين ! إن هذا المرائي - يعني عمر بن عبد العزيز - الذي مضى بالأمس قد أخذ كل ما قدر عليه من جوهر ثمين وجعله في بيتين ، فأرسل يزيد إلى أخته فاطمة وسألها عما أُخبر به . فقالت : والله يا أخي إن عمر ماترك سبداً ولا لبداً إلا مافي هذا المنديل من الثياب . فحلّه فوجد فيه قميصاً مرقوعاً ورداءً غليظاً قشياً ، وجبةً محشوة غليظة ذاهبة البطانة . قال : ليس عن هذا أسألك ، إنما سألتك عن البيت المقفل . فقالت : والذي فجعني بأمر المؤمنين مادخلت إلى ذلك البيت منذ وُلِّيَ عمر الخلافة ، لعلمي أنّه كان يكره ذلك ، وهذه مفاتيحه فانظر مافيه ، فإن كان ما يقال لك حقاً فحوّل مافيه إلى بيت المال .

فجاء يزيد ومعه عمر بن الوليد والناس ففتحو البيت الأول وإذا فيه كرسي من آدم وأربع آجرات مبسوطات ، وقمقم نصفه ماء . فقال عمر : استغفر الله .

ثم فتح البيت الثاني فوجد فيه مسجداً مفروشاً بالحصى وسلسلة

(١) تاريخ دمشق ٢٢٩/٤٥ .

معلقة بسقف البيت فيها كهيئة الطوق يدخل رأسه فيها - كان يجعله في رقبتة إذا نعس في الصلاة - وصندوقاً مقفلاً . ففتح الصندوق فإذا فيه دراعة وثياب من شعر وعطاف من مسوح ، فبكى يزيد وبكى الناس . واستغفر عمر - أي ابن الوليد - الله تعالى (١) .

تورعه عن البناء :

قال ابن عياش : كانت لعمر مرقأتان يرقى من صحن داره إلى قعر بيته عليهما ، فانقلعت إحدى المرقأتين فأثاها رجل من أهل بيته فأصلحها كراهية أن يشق على عمر ، فلما جاء عمر ونظر إليها قال : من صنع هذا ؟ قالوا : فلان قال : عليّ به فلما جاء قال : ويحك يافلان ، أنفست على عمر أن يخرج من الدنيا ولم يضع لبنة على لبنة ؟ والله لولا أن يكون فساد بعد إصلاح لغيرتها إلى ماكانت عليه (٢) .

تورعه عن قبول الهدية :

أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر عمرو بن مهاجر قال : اشتهى عمر تفاحاً فقال لو أن عندنا شيئاً من تفاح فإنه طيب ؟ فقام رجل من أهله فأهدى إليه تفاحاً ، فلما جاء به الرسول قال : ماأطيبه وأطيب ريحه وأحسنه ، ارفع ياغلام واقراً على فلان السلام وقل له : إن هديتك قد وقعت عندنا بحيث تحب ، قال عمرو بن مهاجر :

(١) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز / ٦٦٤ - ٦٦٥ ، وانظر البداية والنهاية . ٢٢٣/١٠ .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ١٥٤ .

فقلت له ياأمير المؤمنين ابن عمك رجل من أهل بيتك وقد بلغك أن النبي ﷺ كان يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة ، قال : إن الهدية كانت للنبي ﷺ هدية ، وهي لنا رشوة^(١) .
مثل آخر من رده الهدية :

أخرج الحافظ ابن عساكر من خبر يعقوب قال : سمعت أبي يحدث أن عمر بن عبد العزيز جاءه ثلاثون ألف درهم من مال بالبحرين ، فجاءه الذي كان يقوم على طعام أهله ، فقال : ياأمير المؤمنين قد جاءك الله بنفقة ، قال : من أين ؟ قال : من مالك الذي بالبحرين ، جاءتك ثلاثون ألفا ، قال : فاسترجع عمر وقال : ادع لي مزاحما ، فلما جاءه مزاحم قال : أي مزاحم ، مارددت ذلك المال الذي جاءنا من البحرين في مال الله ! قال مزاحم : سقط عليّ ياأمير المؤمنين ، قال : فارده وصل بهذا المال في بيت مال المسلمين . قال : فدخل عليه قيّم ذلك المال فقال : ياأمير المؤمنين اعتق رقبتني من الرق أعتقك الله من النار ، قال : فنظر إليه ثم قال : إنّما أنت وذاك المال من مال الله فلا سبيل إلى عتقك ، قال : ياأمير المؤمنين جرة ونجيبيل مُرَبَّت كنت أهديها لك كلّ عام وقد جئت بها ، قال : ائت بها ، قال : فأخرج منه عوداً فوضعه على شفّتيه ثم قال : مه ، إذا شككت في الشيء فدعه ، لاحتاجة لي بجرتك^(٢) .

(١) حلية الأولياء ٢٩٤/٥ ، وانظر تاريخ دمشق ٢٢٠/٤٥ .

(٢) تاريخ دمشق ٢٢١/٤٥ ، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ١٤٠ .

مثل من إجلاله رسول الله ﷺ :

أخرج الحافظ أبو نعيم من خبر عبد الله بن يونس قال : سمعت بعض شيوخنا يذكر أن عمر بن عبد العزيز أتيَ بكاتب يخط بين يديه ، وكان مسلماً وكان أبوه كافراً نصرانياً أو غيره ، فقال عمر للذي جاء به : لو كنت جئت به من أبناء المهاجرين ! قال : فقال الكاتب : ماضراً رسول الله ﷺ كفر أبيه ، قال فقال عمر : وقد جعلته مثلاً ! لاتخط بين يدي بقلم أبدا (١).

أمره والي المدينة بالاقتصاد في الوقود والورق :

ومن أمثلة اقتصاده وحفاظه على مال المسلمين العام ماجاء في كتابه لأبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم والي المدينة وقد جاء فيه : أما بعد فقد قرأت كتابك إلى سليمان تذكر فيه أنه كان يقطع لمن كان قبلك من أمراء المدينة من الشمع كذا وكذا يستضيئون به في مخرجهم ، فابتليت بجوابك فيه ، ولعمري لقد عهدتكم يا ابن أم حزم وأنت تخرج من بيتك في الليلة الشاتية المظلمة بغير مصباح ، ولعمري أنت يومئذ خير منك اليوم ، ولقد كان في فتائل أهللك ما يغنيك والسلام .

وكتب إليه أيضاً : أما بعد فقد قرأت كتابك إلى سليمان تذكر أنه كان يُجري على من كان قبلك من أمراء المدينة من القراطيس لحوائج المسلمين كذا وكذا ، فابتليت بجوابك فيه ، فإذا جاءك كتابي هذا فأرقِ القلم ، واجمع الخط ، واجمع الحوائج الكثيرة في الصحيفة الواحدة

(١) خلية الأولياء ٢٨٣/٥ - ٢٨٤ .

فإنه لاجابة للمسلمين في فضل قول أضرَّ بيت مالهم ، والسلام عليك (١) .

فهذان مثالان عاليان في الاقتصاد ، فالمسئول مؤتمن على أموال الدولة ، فلا يجوز له أن يسرف حتى في الأشياء الرخيصة الثمن كالورق والأقلام ونحوها ، لأن القليل مع القليل كثير ، وقبل ذلك لأن الذمة لاتبرأ إلا في الاقتصاد على ما يؤدي الغرض المطلوب .

وما أشار إليه عمر في هذين الكتابين يعتبر توجيهها سديدا لكل مسئول ، بحيث يكون في ذهنه لزوم الاقتصاد في أموال الدولة ، من أجل أن تصرف على مستحقيها ، بدلا من أن تضيع في معاملات طويلة تستنفد وقتا طويلا وتكاليف كثيرة وهي يمكن أن تؤدَّى في أقل من ذلك .

إن عدم الشعور بوجوب حفظ مال الدولة - الذي هو مال المسلمين العام - يعتبر نوعا من التفريط في الواجب ، وقد يقود صاحبه إلى أنواع من المآثم التي قد لا يحسب لها حسابا .

أما إذا شعر بأن كل فرد من أفراد المسلمين له حق في ذلك المال الذي أصبح مسئولا عنه ، وأن الله تعالى سيحاسبه على القليل والكثير من ذلك إذا صرفه في غير حقه ، فإن ذلك يجعله يفكر كثيرا في حفظ ذلك المال ، وعدم صرفه إلا في وجوهه المشروعة ، وأن يجتهد في الاقتصاد في ذلك ، بحيث يؤدي العمل الكثير بالانفاق القليل .

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٦٤ - ٦٥ ، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ٦٦ ، وحلية الأولياء ٣٠٧/٥ .

وعظه مسلمة في الاقتصاد في المأكل :

ومن أمثلة زهده وتزهيده في الدنيا مارؤي عن مسلمة بن عبد الملك قال : دخلت على عمر بن عبد العزيز بعد الفجر في بيت كان يخلو فيه فلا يدخل عليه أحد ، فجاءت جارية بطبق تمر صيحاني - وكان يعجبه التمر - فرفع بكفيه فقال : يا مسلمة أترى رجلا لو أكل هذا ثم شرب عليه من الماء - فإن الماء على التمر يطيب - أكان يُجزيه إلى الليل ؟ فقلت : نعم يا أمير المؤمنين كان كافيه دون هذا حتى ما يبالي أن لا يذوق طعاما غيره ، قال : فعلامَ تدخل النار ؟

قال مسلمة : فما وقعتُ مني موعظة ما وقعت مني هذه (١) .

فهذه موعظة بليغة من عمر تأثر بها مسلمة بن عبد الملك ، وإنما قصد عمر نهى مسلمة عن الإسراف في الطعام ، وكان ممن اشتهر بذلك .

والإسراف في الطعام قد نهى الله تعالى عنه وكذلك في اللباس ونحوه من متاع الدنيا ، كما قال تعالى ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ (٢) .

حواره مع عمته في رد مخصصاتها :

ومن ذلك ما ذكره ابن عبد الحكم رحمه الله قال : ولما ولي عمر ابن عبد العزيز أتت عمه له إلى فاطمة امرأته فقالت : إني أريد كلام

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ١٥٧ ، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز

لابن الجوزي / ١٨٤ - ١٨٥ .

(٢) سورة الأعراف / ٣١ .

أمير المؤمنين ، قالت لها : اجلسي حتى يفرغ فجلست ، فإذا بغلام قد أتى فأخذ سراجا .

فقالت لها فاطمة : إن كنت تريدني فالآن ، إذا كان في حوائج العامة كتب على الشمع ، وإذا صار إلى حاجة نفسه دعا بسراجة ، فقامت فدخلت عليه ، فإذا بين يديه أقراص وشيء من ملح وزيت ، وهو يتعشى ، فقالت : يا أمير المؤمنين أتيت بحاجة لي ثم رأيت أن أبدا بك قبل حاجتي .

قال : وماذا يا عمة ؟ قالت : لو اتخذت لك طعاما ألين من هذا ، قال : ليس عندي يا عمة ، ولو كان عندي لفعلت ، قالت : يا أمير المؤمنين كان عمك عبد الملك يُجري عليّ كذا وكذا ، ثم كان أخوك الوليد فزادني ، ثم وليت أنت فقطعته عني .

قال : يا عمة إن عمي عبد الملك وأخي الوليد وأخي سليمان كانوا يعطونك من مال المسلمين ، وليس ذلك المال لي فأعطيكه ، ولكني أعطيك مالي إن شئت ، قالت : وماذا يا أمير المؤمنين ؟ قال : عطائي مائتا دينار فهي لك ، قالت : وما يبلغ مني عطاؤك ؟ قال : فليس أملك غيره يا عمة ، قالت (١) : فانصرف عنه (٢) .

في هذا الخبر مواقف إسلامية رائعة من عمر بن عبد العزيز رحمه الله ، فهو أولا يضرب مثلا عاليا في الورع حيث لا يستعمل في

(١) يعني فاطمة بنت عبد الملك .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٦٣ .

حوائجه الخاصة شيئاً من مال المسلمين العام ، وقد تقدم خبر يشابه ذلك .

وهو ثانياً يضرب مثلاً عالياً في الزهد حيث اكتفى بتلك النفقة القليلة والطعام الزهيد ، الذي أشفقت عليه منه عمته فبدأت بلومه على ذلك .

ثم هو ثالثاً يضرب مثلاً عالياً في الحزم والقوة في تطبيق الحق وتنفيذ العدل حتى مع أقاربه الكبار حيث قطع عنهم المخصصات التي كانت تصرف لهم ، ولم يثنه عن عزمه في ذلك كثرة شكواهم وإلحاحهم عليه في الطلب .

ولقد أبدى لعمته استعداده لمنحها ماله الخاص مع أنه لا يملك غيره ، فهو الأمر الذي يوقن بأن الله تعالى لن يسأله عنه ، أما مال المسلمين العام فإنه مستول عنه أمام الله تعالى يوم القيامة ، فكيف يجامل أقاربه مهما كان حقهم وقدرهم ليواجه الحساب يوم القيامة ولا حاجة له .

ولكن هذه المرأة - مع كبر سنّها - زهدت في عطاء عمر لأنه لا يساوي شيئاً يُذكر أمام مخصصها الذي قُطع ، مع أن هذا العطاء قد خُصّصَ من أهل النظر لكفاية بيت من بيوت المسلمين ، وذلك لأنها تعودت على نمط من الحياة لا يغطي تكاليفه إلا المال الكثير .

وهكذا تكون طبيعة النفوس إذا ألّفت على الإنفاق الكثير فإنها لا تستطيع أن تألف على القليل .

والنفس كالطفل إن تهمله شبَّ على حب الرضاع وإن تفضمه ينظم
رفضه أن يوصي لأولاده بشيء :

ومن ذلك ما ذكره أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم رحمه الله تعالى قال: لما حضرت عمر بن عبد العزيز الوفاة دخل عليه مسلمة بن عبد الملك فقال: يا أمير المؤمنين إنك قد أفغرت أفواه ولدك من هذا المال، فلو أوصيت بهم إليّ وإلى نظرائي من قومك فكفوك مؤونتهم! فلما سمع مقالته قال: أجلسوني فأجلسوه فقال: قد سمعت مقالتك يا مسلمة، أما قولك: إني قد أفغرت أفواه ولدي من هذا المال فوالله ما ظلمتهم حقاً هو لهم، ولم أكن لأعطيهم شيئاً لغيرهم، وأما ما قلت في الوصية فإن وصي فيهم ﴿اللَّهُ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦]، وإنما ولد عمر بين أحد رجلين: إما رجل صالح فسيغنيه الله، وإما غير ذلك فلن أكون أول من أعانته بالمال على معصية الله، ادعُ لي بنيّ، فأتوه فلما رآهم تفرقت عيناه، وقال: بنفسى فتية تركتهم عالة لاشيء لهم - وبكى - : يا بنيّ إني قد تركت لكم خيراً كثيراً، لا تمرون بأحد من المسلمين وأهل ذمتهم إلا رأوا لكم حقاً، يا بنيّ إني قد مثلتُ بين الأمرين: إما أن تستغنوا وأدخل النار، أو تفتقروا إلى آخر يوم الأبد وأدخل الجنة، فأرى أن تفتقروا إلى ذلك أحب إليّ، قوموا عصمكم الله، قوموا رزقكم الله (١)

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ١١٥ - ١١٦، وانظر تاريخ دمشق ٢٥٢/٣٤٥، وحلية الأولياء ٣٣٣/٥.

وقد جاء في إحدى الروايات أن الراوي قال: فما احتاج أحد من أولاد عمر ولا افتقر (١) .

في هذا الخبر مثل من ورع أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى حتى في وصيته لأولاده بعد موته، حيث لم يرض لنفسه أن يفارق الدنيا وقد حملَ ذمته شيئاً لا يدري على أي وضع يكون تنفيذه، فربما تصور أنه لو أوصى بهم أحد أقاربه لأعطاهم من مصدر لا يحل ، فيلحقه بذلك شيء من الإثم، فلجأ إلى الله تعالى وفوض أمرهم إليه .

لقد تصور في معاملة أولاده وقوعه بين أمرين : أن يغنيهم في الحياة الدنيا ، وذلك بمنحهم شيئاً من المال العام للمسلمين فيتعرض بذلك للنفحات النار، أو أن يكتفي بالإنفاق عليهم من المورد القليل الحلال الخالي من الشبهات فيتعرض بذلك لنفحات الجنة ، فاختار الطريق الأخير مع ثقته بالله تعالى أنه لن يضيعهم ، وقد أشار إلى أنه ترك لهم السمعة العالية ، حيث سيكونون موضع احترام وعطف جميع المسلمين وأهل الذمة ، وأكرمُ بذلك من تركة !!
إنها تركة عظيمة لاتقدر بها أموال الدنيا عند أصحاب الأفكار النيرة والعقول المبصرة .

وفي قوله « إنما ولد عمر بين أحد رجلين : إما رجل صالح فسيغنيه الله وإما غير ذلك فلن أكون أول من أعانه بالمال على معصية الله » لفظة جليله إلى معية الله تعالى لأوليائه بالحفظ أخذاً من قول الله تعالى ﴿ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾ ، وإشارة إلى أن الأمر المهم أن

(١) هامش السيرة المذكورة / ١١٦ .

يبدل الوالد أقصى جهده في تربية أولاده على الصلاح ليحفظهم الله تعالى ، وليس المهم أن يسعى في جمع المال لهم حتى يغتتوا من بعده ، لأنهم إن لم يكونوا صالحين فسيكون ذلك المال عوناً لهم على معصية الله تعالى .

وصيته لمسلمة بالتحري في الأموال :

ومن أمثلة تحري أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز الحلال وبعده عن الشبهات ما ذكره ابن عبد الحكم قال : ودخل مسلمة بن عبد الملك على عمر بن عبد العزيز في مرضه الذي مات فيه ، فأوصاه عمر بأن يحضر موته وأن يلي غسله وتكفينه ، وأن يمشي معه إلى قبره ، وأن يكون ممن يلي إدخاله في لحده ، ثم نظر إليه وقال : انظر يا مسلمة بأي منزل تتركني ، وعلى أي حال أسلمتني إليه الدنيا ، فقال له مسلمة : فأوص يا أمير المؤمنين ، قال : مالي من مال فأوصي فيه ، قال مسلمة : هذه مائة ألف دينار فأوص فيها بما أحببت ، قال : أو خير من ذلك يا مسلمة ؟ أن تردها من حيث أخذتها ، قال مسلمة : جزاك الله عنا خيراً يا أمير المؤمنين والله لقد أَلَنْتَ لنا قلوباً قاسية ، وجعلت لنا ذكراً في الصالحين (١) .

ففي هذا الخبر يوجه أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ابن عمه مسلمة بن عبد الملك إلى التحري في اكتساب المال ، ويبين له أن إنفاق المال بالصدقة أو الهدية لا يجعله حلالاً ، بل لا بد من التحري في كسبه ، فإذا لم يكن للإنسان حق فيه وجب عليه أن يرده إلى مستحقه ، ولا يبرئ ساحته أن يتصدق به أو يهديه .

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ١٢٢ - ١٢٣ .

اعتباره بزهد النبي ﷺ :

قال الحافظ ابن الجوزي : وعن عمرو بن مهاجر قال : كان متاع رسول الله ﷺ عند عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه في بيت ينظر إليه كل يوم قال : وكان ربما اجتمعت إليه قريش فأدخلهم ذلك البيت ثم استقبل ذلك المتاع فيقول : هذا ميراث من أكرمكم الله وأعزكم به ، قال وكان سريراً مرمولاً بشريط ومرفقة من آدم محشوة بليف وجفنة وقدحا وقطيفة من صوف كأنها جرمقانية^(١) ، قال : ورَحَى وكنانة فيها أسهم وكان في القطيفة أثر وسخ رأسه ، فأصيب رجل فطلبوا أن يغسلوا بعض ذلك الوسخ فيسعط به ، فذكر ذلك لعمر فسُعط فبرأ^(٢) .

من أمثلة زهده :

أخرج الحافظ أبو القاسم ابن عساكر من خبر مسلمة بن عبد الملك قال : دخلت على عمر بن عبد العزيز أعوده في مرضه ، فإذا عليه قميص وسخ فقلت لامرأته فاطمة : اغسلوا قميص أمير المؤمنين فقالت : نفعل ذلك إن شاء الله ، ثم عدت فإذا القميص على حاله فقلت : يا فاطمة ألم آمركم أن تغسلوا قميص أمير المؤمنين ! فقالت : والله ماله قميص غيره^(٣) .

(١) نسبة إلى الجرامقه وهم من العجم يصنعون هذه القطائف .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز / ١٨٥ .

(٣) تاريخ دمشق ٢١١/٤٥ .

تربيته أولاده على التقشف والزهد :

ذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر يعقوب عن أبيه أن عبد الله بن عمر بن عبد العزيز أتى إلى أبيه وهو خليفة يستكسي أباه ، فقال : ياأبت اكسني ، فقال : اذهب إلى الخيار بن رياح البصري فإن لي عنده ثيابا فخذ منها ما بدا لك ، قال : فذهبت إلى الخيار بن رياح فقلت : إني استكسيت أبي فأرسلني إليك وقال : إن لي عند الخيار بن رياح ثيابا ، فقال صدق أمير المؤمنين ، فأخرج إليه ثيابا سنبلانية أو قطرية ، فقال : هذا ما لأمير المؤمنين عندي فخذ منها ما بدا لك ، قال عبد الله : ما هذا من ثيابي ولا من ثياب قومي ، فقال : هذا ما لأمير المؤمنين عندي ، فرجع عبد الله إلى أبيه عمر فقال : ياأبتاه استكسيتك فأرسلتني إلى الخيار بن رياح فأخرج لي ثيابا ليست من ثيابي ولا من ثياب قومي . قال : فذاك مالنا عند الرجل ، فانصرف عبد الله حتى إذا كاد يخرج ناداه فقال : هل لك أن أسلفك من عطائك مائة درهم ، قال : نعم ياأبتاه ، فأسلفه مائة درهم فلما خرج عطاؤه حوسب بها فأخذت منه (١) .

موعظة المنصور بسيرة عمر المالية :

قال الحافظ ابن الجوزي : وبلغني أن المنصور قال لعبد الرحمن ابن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه : عظمي . قال : بما رأيت أو بما سمعت ؟ قال : بما رأيت قال : مات عمر بن عبد العزيز رحمه الله وخلف أحد عشر ابنا وبلغت تركته سبعة عشر

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز / ٣٣٥ .

دينارا كُفِّنَ منها بخمسة دنانير واشتُرِيَ له موضع قبره بدينارين وقُسم الباقي على بنيه ، وأصاب كل واحد من ولده تسعة عشر درهما ، ومات هشام بن عبد الملك وخلف أحد عشر ابنا ، فقسمت تركته وأصاب كل واحد من تركته ألف ألف . ورأيت رجلا من ولد عمر ابن عبد العزيز قد حمل في يوم واحد على مائة فرس في سبيل الله عز وجل ، ورأيت رجلا من ولد هشام يُتصدق عليه (١) .

وإن في هذا الخبر لعبرة للمعتبرين ، حيث تحولت حال أبناء عمر ابن عبد العزيز الذين لا يملك الواحد منهم عشرين درهما إلى أن ملكوا الألف ، بينما تحولت حال أبناء هشام بن عبد الملك الذين يملك الواحد منهم مئات الألف إلى أسوأ حال ، وذلك من آثار صلاح عمر ابن عبد العزيز ومن بركة دعائه الصالح لأولاده ، فإن صلاح الآباء يكون خيرا وبركة على أبنائهم في الدنيا والآخرة ، فأما في الدنيا فمن أدلة ذلك خبر الغلامين اللذين حفظ الله تعالى لهما رزقهما بسبب صلاح أبيهما كما جاء في قوله تعالى ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّنَ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ [الكهف: ٨٢] .

وأما في الآخرة فإن الله تعالى يلحق بفضله وكرمه ذرية الصالحين بهم في الجنة كما جاء في قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِّنْ عَمَلِهِمْ مِّنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز / ٢٥٤ .

كَسَبَ رَهِينٌ ﴿[الطور: ٢١]﴾ ، وإن في ذلك لبشرى لمن وفَّقوا بآباء صالحين ، وذلك مما يدفعهم إلى الاستقامة على ما كان عليه آبائهم حتى يسعدوا في دنياهم وآخرتهم .

دقة موازنته بين الدنيا والآخرة :

ذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر جزيمة أبي محمد بن العابد أن عمر بن عبد العزيز قال : ما أعطيت أحداً مالا إلا وأنا استقله ، وإنني لأستحي من الله عز وجل أن أسأل الجنة لأخ من إخواني وأبخل عليه بالدنيا ، فإذا كان يوم القيامة قيل لي : لو كانت الجنة بيدك كنت بها أبخل (١) .

وهذا يدل على اهتمامه بالجنة وتعظيمه إياها وأنه يرى أن الدنيا لاتساوي شيئاً عندها ، فلذلك يرى أن من تكرم على أخيه بسؤال الجنة له لا ينبغي له أن يبخل عليه بالدنيا مهما كان حجم الطلب منها ، وفي ذلك عبرة للمسلمين الذين يستهينون بطلب نعيم الآخرة الخالد ، بينما يدون اهتماما كبيرا بطلب متاع زائل .
أمثلة من زهده وإصلاحه :

ذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر الحكم بن عمر الرعيني قال : شهدت عمر حين جاءه أصحاب المراكب يسألونه العلوفة ورزق خدمها . قال وكم هي ؟ قالوا هي كذا وكذا . قال أبعث بها إلى أمصار الشام يبيعونها فيمن يريد وأجعل أثمانها في مال الله عز وجل ، تكفيني بغلتي هذه الشهباء ، وجاءه صاحب الرقيق يسأل أرزاقهم

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز / ١٣٣ .

وكسوتهم وما يصلحهم ، فقال عمر : كم هم ؟ قالوا : هم كذا وكذا ألفا ، فكتب إلى أمصار الشام أن ارفعوا إليّ كل أعمى في الديوان أو مقعد أو من به فالج أو من به زمانة تحول بينه وبين القيام إلى الصلاة ، فرفعوا إليه ، فأمر لكل أعمى بقائد وأمر لكل اثنين من الزمّنى بخادم ، وفُضِّل من الرقيق فكتب : أن ارفعوا إليّ كل يتيم ومن لا أحد له ممن قد جرى على والده الديوان ، فأمر لكل خمسة بخادم يتوزعون بينهم بالسوية (١) .

فليُنظر العقلاء وليوازنوا بين عهد أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز وعهود من قبله من الأمراء بالنسبة لهؤلاء المملوكين الذين خُصّصوا للخدمة ونحو ذلك ، كم هي نفقاتهم وهم قد بلغوا عدة آلاف؟ وكم هو النقص الذي يحصل على بيت مال المسلمين منهم؟! ثم ليُعتبروا بما قرره عمر بن عبد العزيز من التخلي عنهم وتوزيعهم على المسلمين من أصحاب العاهات واليتامى ليقوموا بخدمتهم ، فهو بهذا وفّر نفقاتهم الكبيرة على بيت المال ، وفي الوقت نفسه نفع بهم أعداداً كثيرة من المسلمين هم بحاجة إليهم ، فهكذا تكون الاستقامة ، وهكذا تكون العدالة !!

مثل من خشيته وموقف لأبي قلابة :

أخرج الإمام أحمد من خبر حميد الطويل أبي عبيدة الخزاعي قال : لما استخلف عمر بن عبد العزيز بكى وقال : يا أبا قلابة هل

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز / ١٣٠ .

تخشى علي؟ قلت: كيف حبك الدرهم؟ قال: لأحبه، قال: لا تخف إن الله عز وجل سيعينك (١).

فهذا فهم جيد من أبي قلابة عبد الله بن زيد الجرمي رحمه الله تعالى، فقد ذكر أهم أسباب الفتنة وهو حب المال، فإن حب المال يحمل صاحبه على اكتسابه من طريق الحرام والشبهات، وإذا وقع المسئول في ذلك سارع إلى منافسته ومحاولة احتوائه أمثاله من أهل الدنيا، فيضطر إلى إنفاق المال على الكبراء من هؤلاء الذين هم خبراء به لكيلا يفضحوه أمام الناس، فيكون الجميع شركاء في نهب أموال الأمة وحرمان أصحاب الحقوق.

نهاية عمر بن عبد العزيز وما في ذلك من مواقف:

ذكر ابن سعد من خبر محمد بن قيس قال: حضرت أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز أول مرضه، اشتكى لهلال رجب سنة إحدى ومئة، فكان شكوه عشرين يوماً، فأرسل إلى ذمي ونحن بدير سمعان، فساومه موضع قبره، فقال الذمي: يا أمير المؤمنين إنها خيرة أن يكون قبرك في أرضي، قد حللتك، فأبى عمر حتى ابتاعه منه بدينارين، ثم دعا بالدينارين فدفعهما إليه (٢).

وقال الحافظ الذهبي في ترجمة أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز: كان قد شدد على أقاربه وانتزع كثيراً مما في أيديهم ف تبرموا وسموه، فروى معروف بن مشكان عن مجاهد قال قال لي عمر بن عبد

(١) الزهد / ٣٠١.

(٢) طبقات ابن سعد ٤٠٦/٥.

العزیز: ما يقول الناس في ؟ قلت : يقولون إنك مسحور، قال: ما أنا بمسحور، ثم دعا غلاما له فقال له ويحك ما حملك على أن سقيتني السم؟ قال: ألف دينار أعطيتها وعلى أن أعتق، قال: هات الألف، فجاء بها . فألقاها عمر في بيت المال . وقال: اذهب حيث لا يراك أحد^(١) .

فهذا مثل عجيب في العفو ، حيث عفا أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى عن غلامه الذي وضع له السم وتسبب في قتله وهو قادر على أن يقتله شر قتلة ، ولكنه يوقن بأن ماعند الله خير وأنه إن عفا عنه حصل له الثواب من الله تعالى على العفو، وإن انتصر منه فأقام عليه الحد لم يأثم ولكنه لا يحصل على أجر العفو، ونظراً إلى أن أغلى شيء عنده في هذه الحياة أن يرتفع رصيده من الحسنات فإنه قد فضل العفو على الانتصار للنفس .

ومما جرى منه في مرضه ما أخرجه محمد بن سعد من خبر أيوب السخثياني قال: قيل لعمر بن عبد العزيز : يا أمير المؤمنين لو أتيت المدينة فإن قضى الله موتاً دُفِنْتَ في الموضع الرابع مع رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر ، قال: والله لأن يعذبني الله بكل عذاب إلا النار فإنني لأصبر لي عليه أحب إليّ من أن يعلم الله تعالى من قلبي أنني أراني لذلك أهلاً^(٢) .

فهذا مثال على خشيته العظيمة وتواضعه الكبير رحمه الله تعالى رحمة واسعة .

(١) تذكرة الحفاظ ١/ ١٢١ .

(٢) طبقات ابن سعد ٥/ ٤٠٤ ، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ١٤٨ .

وذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر أبي زيد الدمشقي قال : لما ثقل عمر بن عبد العزيز دُعي له طبيب فلما نظر إليه قال : الرجل قد سُقي السم ، ولا آمن عليه الموت . فرفع عمر بصره فقال : ولاتأمن الموت أيضا على من لم يسق السم ؟ قال الطبيب هل أحسست بذلك ياأمير المؤمنين ؟ قال : نعم قد عرفت حين وقع في بطني ، قال : فتعالج ياأمير المؤمنين فإني أخاف أن تذهب نفسك ، فقال ربي خير مذهوب إليه والله لو علمت أن شفائي عند شحمة أذني مارفعت يدي إلى أذني فتناولته . اللهم خِرْ لعمر في لقاءك ، قال : فلم يلبث أياما حتى مات (١) .

وأخرج ابن سعد من خبر عمرو بن عثمان قال : مات عمر بن عبد العزيز لعشر ليال بقين من رجب سنة إحدى ومائة ، وهو ابن تسع وثلاثين سنة وأشهر ، وكانت خلافته ستين وخمسة أشهر ، ومات بدير سمعان (٢) .

سؤال الفقهاء عن حال عمر في بيته :

أخرج الحافظ أبو القاسم ابن عساكر من خبر وهيب بن الورد قال : بلغنا أن عمر بن عبد العزيز لما توفي جاء الفقهاء إلى امرأته يعزونها به فقالوا لها : جئناك لنعزيك بعمر ، فقد عمت مصيبتة الأمة ، فأخبرنا يرحمك الله عن عمر ، كيف كانت حاله في بيته ؟ فإن أعلم الناس بالرجل أهله ، فقالت : والله ماكان بأكثركم صلاة

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز / ٢٣٩ .

(٢) طبقات ابن سعد ٤٠٧/٥ - ٤٠٨ .

ولاصياما ، ولكنني والله مارأيت عبدا لله قط كان أشد خوفا لله من عمر ، والله إن كان ليكون في المكان الذي ينتهي إليه سرور الرجل بأهله ، بيني وبينه لحاف فيخطر على قلبه الشيء من أمر الله فينتفض كما ينتفض طائر وقع في الماء ثم ينشج ، ثم يرتفع بكأؤه حتى أقول : والله لتخرجن نفسه التي بين جنبيه ، فأطرح اللحاف عني وعنه رحمة له ، وأنا أقول : ياليتنا كان بيننا وبين هذه الإمارة بعد المشرقين ، فوالله مارأينا سرورا منذ دخلنا فيها (١) .

من ثناء العلماء على عمر :

من ذلك ما أخرجه ابن عساكر من خبر حماد بن واقد قال : سمعت مالك بن دينار يقول : يقولون مالك بن دينار زاهد ! (٢) أي زهد عند مالك وله جبة وكساء !! إنما الزاهد عمر بن عبد العزيز ، آتته الدنيا فاعرة فاها فتركها (٣) .

ثناء ملك الروم عليه :

أخرج الحافظ أبو نعيم من خبر محمد بن معبد أن عمر بن عبد العزيز أرسل بأسارى من أسارى الروم ففادى بهم أسارى من أسارى المسلمين ، قال : فكنت إذا دخلت على ملك الروم فدخلت عليه عظماء الروم خرجت ، قال : فدخلت يوما فإذا هو جالس في الأرض مكتئبا حزينا ، فقلت : ما شأن الملك ؟ قال : وماتدري ما حدث ؟ !

(١) تاريخ دمشق ٢٣٥/٤٥ - ٢٣٦ ، وأخرج نحوه الإمام أحمد في الزهد / ٢٩٩ .

(٢) يعني نفسه .

(٣) تاريخ دمشق ٢٠٩/٤٥ ، وانظر حلية الأولياء ٢٥٧/٥ .

قلت: وما حدث؟ قال: مات الرجل الصالح، قلت: من؟ قال: عمر بن عبد العزيز. قال: ثم قال ملك الروم: لأحسب أنه لو كان أحد يحيى الموتى بعد عيسى بن مريم عليه السلام لأحياهم عمر بن عبد العزيز، ثم قال: لست أعجب من الراهب أغلق بابَه ورفض الدنيا وترهب وتعبَّد، ولكن أتعجب ممن كانت الدنيا تحت قدميه فرفضها ثم ترهب (١).



(١) حلية الأولياء ٥/ ٢٩٠، وأخرج نحوه ابن عساكر - تاريخ دمشق ٤٥/ ٢٦١-٢٦٢،

وانظر سير أعلام النبلاء ٥/ ١٤٢، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ٢٤٩.

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م

رقم الإيداع : ١٩٩٧/٥٦٣٢

الترقيم الدولي

977 - 253 - 151 - 8

دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع

١ شارع منشأ - محرم بك - الإسكندرية

ت : ٤٩٠١٩١٤ - فاكس : ٥٩٥١٦٩٥

مكتب توزيع القاهرة ت : ٣٨٣٢٧٤٧

دار الأندلس الخضراء للنشر والتوزيع

حي السلامة - شارع عبد الرحمن السديري - مركز الزومان التجاري

ص.ب : ٤٢٣٤٠ - جدة : ٢١٥٤١ هاتف / فاكس : ٦٨٢٥٢٠٩

المملكة العربية السعودية